عبد الرحمن الناصر

رواية تاريخية غرامية

الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات أهلها
في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي
(من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته
من المنعة والسيادة وما بناه من القصور
الفخمة وكيف كان يحتفل باستقبال وفود
ملوك أوربا بالهدايا وما كان من
خروج ابنه عبد الله يطلب
ولاية العهد لنفسه دون
أخيه الحكم الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

هذه هي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام والثالثة منها في تاريخ الاندلس . فان الاولى رواية « فتح الاندلس » تتضمن فتح هذه البلاد على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ مع بيان حالها السياسي والاجتماعي والديني قبل الفتح. والثانية رواية «شارل وعبد الرحمن » وتشتمل على فتوح العرب في فرنسا الى ضفاف نهر لوار في اوائل القرن الثاني للهجرة حتى ردهم شارل مارتل . وهذه رواية « عبد الرحمن الناصر » تحتوي على وصف حال الاندلس في ايام عبد الرحمن الناصر اول من سمي خليفة من بني مروان هناك (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته من المنعة والحضارة والعمارة

فمن طالع هذه الروايات جميعاً يستطلع تاريخ الاندلس السياسي والاجتماعي من فتحها في أواخر القرن الاول للهجرة الى ايام الخليفة الناصر الاموي باوائل القرن الرابع وقد بلغت هذه الدولة في ايامه ابان مجدها يوم كانت الدولة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء عبد الرحمن الناصر الاموي هذا في الاندلس والخلفاء العبيديون أو الفاطميون في افريقية والخلفاء العباسيون في بغداد وكان هو أعزهم جانباً وأطولهم أياماً وأوسعهم حضارة

فنطلب اليه تعالى أن يأخذ بيدنا لاتمام هذه السلسلة انه السميع المجيب

obeikandl.com

الفصل الاول

قُرطُبة والخليفة عبد الرحمن الناصر

قرطبة عاصمة الامويين في الاندلس واقعة شمالي نهر يعرف باسم الوادي الكبير في جنوب اسبانيا . وقد بلغت ابان حضارتها وأوج مجدها في زمن عبد الرحمن الناصر (تولى سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ للهجرة) وهو أول من تسمى خليفة من ملوك الاندلس . تولى الملك والاحوال مضطربة والبلاد قائمة قاعدة لاختلاف الاحزاب وكثرة المطالبين من العرب والبربر غير الافرنج المجاورين له في اشتوريا وغليكية ونافار وبمبلونة وغسكونية وغيرها . فما زال يحارب ويناضل ويجد ويجتهد حتى دانت له الرقاب واستقرّ له الملك واستتب الامر . فتقرّب اليه ملوك عصره بالهدايا وأوفدوا اليه الوفود من القسطنطينية ورومية وفرنسا وروسيا (ملك الصقالبة) وغيرهم

ولما أحس من نفسه بالقوة ورأى الخلافة العباسية قد تضعضعت واستولى الجند التركي على خلفائها سمى نفسه أمير المؤمنين فلم يلقَ معارضة . واتفق في أثناء ذلك قيام الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب وهم شيعة يطلبون الخلافة باسم علي فاصبحت الخلافة الاسلامية يدعيها ثلاث دول : العباسيون في العراق والفاطميون في المغرب والامويون في الاندلس

وزهت قرطبة في أيام الناصر واستبحر عمرانها وكثرت قصورها ومتنزهاتها — يكفي من ذلك قصرها الكبير لانه آية من آيات الزمان كان مؤلفاً من ٤٣٠ داراً بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر البديع وقد غالوا في زخرفها واتقانها وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج

والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابرز والفضة الخالصة والنحاس المموّه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من أنابيب الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ولم يكن في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء . وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم أخذوا بتوسيعه والزيادة فيه حتى بلغت سعته في ايام الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع . وأغرب ما فيه المأذنة لم يكن في مساجد المسلمين مأذنة تعدلها طولها الى موقف المؤذن ٤٥ ذراعاً والى أعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً

ومما ابتدعه الناصر من القصور قصر الزهراء ذكروا انه بناه اجابة لطلب جارية له اسمها الزهراء على مسافة أربعة أميال من قرطبة . وهو عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته أو سواريه ٤٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية . وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب

وفيل . وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر تجري الماء من أفواهها وقد أنفق في بناء هذا القصر ما يزيد على ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار[١]

ناهيك بما كان في دولة الناصر من رواج العلم فقد كانت قرطبة كعبة العلم ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب . وكان اقتناء الكتب من جملة ضروريات الحياة عندهم ـ كانوا يفعلون ذلك اقتداء بخليفتهم وأبنائه

الفصل الثاني

مكتبة في قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة « مالي أرى الناس في شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم يا سيدي »

فاجابه صاحبها سعيد « انهم في شاغل عن كل شيء بالتشوف الى رسل قيصر الروم الذين جاؤا بالهدايا من قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية الى مولانا أمير المؤمنين الناصر فخرجوا من قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله . كأنك كنت غائباً عن قرطبة ؟ »

قال الغلام « لم اكن غائباً ولكنني لم أبرح هذه الدار منذ أسبوع يا سيدي »

فانتبه سعيد وقال « صدقت . . فالخليفة لما بلغه قدوم رسل ملك الروم أمر ان يتلقوا أحسن تلق وبعث جماعة من خاصته يلاقونهم في بجاية وأن يحسنوا خدمة الطريق . فوصلوا أمس الى مقربة من قرطبة فأمر بارسال الجند والعدة والتعبية لملاقاتهم . فاشتغل اكثر الناس بالوقوف لهم في الطرق ومشاهدة موكبهم فلم يأتنا أحد منهم »

فقال « وكيف هم رسل ملك الروم ؟ »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٩٤ ج ٥ (طبعة ثالثة)

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه فقال « انهم أناس مثلنا هل تحب أن تراهم ؟ »

قال « كيف لا ؟ »

قال « ولكن ذلك غير ميسور لأحد لان الخليفة الناصر أمر ان ينزلوا في الربض خارج المدينة بمنية الحكم ولي العهد وان يمنعوا من ملابسة الناس وان يقام الحجاب على ابوابهم حتى لا يخاطبوا احداً ولا يراهم احد »

فقال « يا للعجب وهل يخافهم على دولته ؟ »

قال « كلا . ولكن للملوك سياسات لا تفهمها . . هذا الفقيه ابن عبد البر قادم أعدد له المسند وضع له الدواة على المنضدة في غرفة المطالعة »

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر وهو من كبار الفقهاء في قرطبة وقد شب في حاشية الحكم ولي العهد ثم لازم أخاه عبد الله ابن الناصر. وكان عبد الله يحب العلماء وأهل الادب ويكثر من مجالستهم

وكان ابن عبد البر هذا يتردد على هذه المكتبة مثل كثيرين من الادباء وحبي المطالعة . وقرطبة يومئذ في أوج مجدها واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء كما تقدم بل هي كالاثاث لا يستغنى عنها في بيت من البيوت لان الخليفة نفسه كان محباً للعلم مقرباً للعلماء وشب اولاده على ذلك وخصوصاً الحكم ولي العهد وأخوه عبد الله واقتدى بهم سائر أهل الدولة — والناس على دين ملوكهم . فاصبحت تجارة الكتب من أروج التجارات عند الوجهاء وأهل الرياسة فكثر الوراقون وهم الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها

وكان سعيد صاحب هذه المكتبة قد أنشأها في الربض خارج قرطبة في بيت على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) فهي تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر وقد جعلها أشبه بنادي مطالعة منه بمستودع كتب أو دار نسخ . فكان أدباء قرطبة يتوافدون اليها

للمطالعة والشراء أو النسخ فيرون من سعيد مؤانسة ولطفاً وتساهلاً ويلتذون بمعاشرته لسعة اطلاعه ودماثة أخلاقه . وكان كثير الاختفاء على الخصوص بابن عبد البر . وهذا يحسب اختفاءه به مبنياً على انتفاعه منه بكتاب يبيعه على يده لولي العهد أو لأخيه عبد الله بن الناصر . لان الفقيه كان معدوداً من خاصة عبد الله وكان هذا مغرماً باقتناء الكتب فاذا سمع بكتاب بذل في سبيله الاموال الطائلة حتى يقتنيه . وكثيراً ما كان يبتاعها من عند سعيد بواسطة ابن عبد البر — ولكن اختفاء سعيد كان لغرض آخر يقصر ابن عبد البر عن ادراكه

فلما أطل الفقيه من باب الحديقة خف سعيد لاستقباله في الدار ورحب به فدخل وعلى وجهه أمارات العجلة فتجاهل سعيد وهش له وقال « ما بال الفقيه قد أبطأ علينا اليوم ألعله كان في جملة الذين خرجوا لمشاهدة رسل القسطنطينية ؟ »

فقال وهو يخرج يده من جيب جبته وفيها لفافة من الورق « كلا لم أذهب معهم ولكني شغلت بالمطالعة . . . هل في مكتبتك كتاب البيان والتبيين للجاحظ ؟ »

قال « كيف لا . . . أظنك تشتغل باعداد خطبة تتلوها في يوم الاحتفال باستقبال أولئك الرسل في حضرة الخليفة »

فضحك ضحكة اعجاب بنفسه ولم يجب وظل ماشياً وهو يصلح عمامته ويخرج منها قلماً كان قد غرسه فيها لما قام مسرعاً من منزله لمراجعة شيء في كتاب البيان والتبيين — ومشى سعيد أمامه الى خزانة الكتب وهي عبارة عن غرفة واسعة فيها رفوف مسمرة بالحائط وعليها الكتب مرتبة حسب مواضيعها واكثرها من كتب الادب ولم يكن يتجاسر على التظاهر بكتب الطبيعيات والفلسفة لان أصحابها كانوا متهمين بالكفر . وبدلا من أن يأمر الخادم الموكل بحفظ الكتب ان يستخرج كتاب البيان ويقدمه للفقيه أسرع سعيد بنفسه وحمله اليه

مبالغة بالاكرام . فتناول ابن عبد البر الكتاب وجلس على المسند المعد له وهو يقول « ان هذا الكتاب عندنا منه عدة نسخ في مكتبة مولانا الامير عبد الله ولكنني أحببت ان أخلو به هنا بجوارك يا صاحبي »

فقال سعيد « ان ذلك من حسن حظي يا مولاي » وتركه وانصرف الى ناحية من المنزل تشرف على النهر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فرأى الناس في القوارب عائدين من ملاقاة الوفد . وفهم من حديثهم ان الرسل وصلوا الربض ونزلوا في منية الحكم . فوقف هنيهة ساكتاً واستغرق في تأملاته حتى نسي موقفه ولم ينتبه حتى ناداه جوهر الخادم فالتفت فاذا هو يشير اليه ان يأتي وأسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية في وجهه « ان ياسراً فتى امير المؤمنين . . . » وتلعثم لسانه من الدهشة

الفصل الثالث

ياسر كبير الخصيان

فاستغرب سعيد قدوم ياسر في ذلك اليوم وكان قد سمع بخروجه هو وتمام الفتى الآخر لاستقبال رسل الروم مبالغة في اكرامهم . لان ياسراً وتماماً كانا كبيري الخصيان في القصر بما يشبه الباش آغا الآن وكان للخصيان في ذلك العهد سطوة ونفوذ لانهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطاني . فارسال كبيري الخصيان لملاقاة أولئك الرسل يعد من المبالغة في الاكرام

وكان ياسر طويل القامة ابيض الطلعة لانه من الصقالبة البيض أزرق العينين غائرهما عريض ما بينهما بارز الوجنات أجرد الوجه مثل سائر الخصيان

فاستقبله سعيد وهش له ورحب به فرأى في وجهه انقباضاً

فتجاهل وقال « اهلا بالاستاذ ياسر ... » ودعاه للدخول الى قاعة المطالعة للاستراحة

فردّ ياسر التحية بصوت رفيع كصوت الاحداث مثل اصوات سائر الخصيان ولم يبتسم كعادته ولكنه أطاع سعيداً ومشى معه حتى جلس على كرسي قدمه له فجلس وهو يتلفت فقال سعيد « هل يأمر مولاي بشيء اقدمه ؟ من كتاب او قلم او ورق ؟ »

قال « لا . . ولكنني حسبت الفقيه محمد بن عبد البر دخل هذا المكان »

قال « نعم يا سيدي وهو يطالع في الغرفة الاخرى هل أدعوه ؟ »

قال « كلا ... دعه في عمله »

فاراد سعيد ان يستجسه فقال « ألم يخرج الاستاذ لملاقاة رسل صاحب القسطنطينية اليوم . . ؟ »

قال « بلى خرجت وانا عائد الآن وقد وصل القوم الى الربض فاقمنا عليهم الحرس حتى يأمر امير المؤمنين باستقدامهم اليه » قال ذلك وفي خاطره شيء يكتمه

فقال سعيد « سيكون يوم استقبالهم حافلا . . أين يكون ذلك يا ترى ؟ »

قال « في القصر الزاهر من قصور الخلافة انهم يهيئون المكان منذ أيام »

قال « كنت أحسبه يستقبلهم في قصر من قصور الزهراء الفخيمة »

قال « ولكنه امر ان يهيئوا القصر الزاهر لهذه الغاية »

قال « انه سيكون مشهداً جميلا في داخل القصر »

فادرك ياسر انه يمرض برغبته في الحضور فقال « اذا شئت الحضور فادخل برفقة الفقيه ابن عبد البر فلا يعارضك احد . وان كنت انا في جملة المرحبين فلا بأس عليك » قال ذلك وبلع ريقه كأنه يخفي امتعاضاً خامره . وكان سعيد يراقب كل حركة تبدو منه فلما لحظ امتعاضه قال

وهو يظهر الاستغراب « أي الاستاذ يشك في كونه احد المرجين وهل يتقدمه احد في ذلك . . ؟ لا ريب انك ستكون في مقدمة المستقبلين »

فقال ياسر وفي صدره شيء يود التصريح به ليشفي ما في نفسه من الغيظ ولكنه أمسك وقال « من الممكن ان لا اكون انا هنالك »

فضحك سعيد وأظهر انه لم يصدق كلامه وقال « كلا انك ستكون في صدر البهو . . . انا اعرف منزلتك عند امير المؤمنين »

فنهض ياسر فجأة ووضع انامله على فم سعيد كأنه يتلطف في اسكاته وابتسم وقال « كانت تلك المنزلة . . . ولكن » وخاف ان يخونه لسانه فيقول ما يندم عليه فتظاهر بتغيير الحديث وقال « اني أرى اناساً قادمين اليك ولا احب ان يعلم احد مجيئي الى هنا اليوم . استودعك الله » قال ذلك وخرج وغادر سعيداً يفكر في سبب مجيئه وفي ما بدر منه من الالفاظ القليلة العدد الكثيرة المادة وقد همه الاطلاع على ما في نفس ياسر

وبعد قليل اخذ الناس يتوافدون الى منزل سعيد وكل منهم يشتغل بشيء من كتابة او نسخ او مطالعة واذا أحوجهم الاستفهام عن امر اشكل عليهم عمدوا الى سعيد وهو يرشدهم الى ما يريدون . وكانوا يعتقدون الصدق في ما يقوله ولو خالف المعقول لانه كان قوي الحجة قوي العارضه وكان في عينيه شيء كالمغناطيس اذا تنرس في عيني جليسه تخلب عليه كأنه نوّمه بالمغنطيسية الحيوانية فلا يشعر الجليس الا وهو طوع ارادته

وكان سعيد الوراق هذا في نحو الاربعين من عمره صحيح البنية عريض الكتفين قوي العضل كبير الدماغ تتجلى الرزانة في جبينه والذكاء في عينيه والثبات حول شفتيه . ولا يكفي التعبير عن حدة عينيه بالذكاء فان فيهما قوة الاقناع او هي الملتزم لانه لا يباحث احداً الا أقنعه . وكان خفيف العارضين والتحية قلما يضحك ولكن الابتسام

خلقة في وجهه . وقد مضى عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة في قرطبة او يتجر بالكتب ولم يعامله احد الا أعجب باخلاقه العالية وذكائه المفرط . فكان الادباء من الفقهاء واهل الدولة يترددون الى منزله كما يجتمع الناس في ناد للمطالعة والاستفادة ولكنه كان يشترط ان يكون ذلك في النهار فاذا غربت الشمس اقفل الباب

فلما رأى الناس يتوافدون في ذلك اليوم امر خادمه بتقديم ما يحتاجون اليه وليس هو خصياً مثل سائر خدم قرطبة فان اهلها قلدوا اميرهم باقتناء الخصيان — على اختلاف اجناسهم وهي كثيرة يومئذ وكانوا يحملونهم من اطراف العالم الى دار الاسلام وخصوصاً الاندلس لانها كانت اكثر الممالك الاسلامية رخاء في ذلك العهد — وانما كان خادم سعيد بربرياً من اهل المغرب في نهاية السذاجة

الفصل الرابع

تليد خازن كتب الحكم

اشتغل جوهر بتقديم ما يحتاج اليه القوم . وتوجه سعيد الى الغرفة التي فيها ابن عبد البر فرآه منهمكا بالمطالعة يكتب في كاغد بيده وهو يتأمل بما يكتبه وقد نزع عمامته واستغرق في التفكير . وبينما هو ينظر اليه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى تليداً صاحب خزانة كتب الحكم ولي العهد قادماً على عجل — وهو خصي وجيه . فتحول سعيد للترحيب به فرآه يشير اليه بسبابته على شفته ان يسكت فسكت . وتقدم تليد حتى أطل على ابن عبد البر خلسة فلما رآه مستغرقاً بالكتابة همس في اذن سعيد « ان الفقيه يهيء خطاباً ليتلوه بين يدي امير المؤمنين غداً فينال منصب قاضي القضاة » قال ذلك وهز رأسه

استخفافاً ورجع وهو قابض على يد سعيد حتى دخلا غرفة أخرى وابن عبد البر لم ينتبه

فمشى سعيد معه وهو ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول له « بلغني ان رجلا من بني امية اسمه ابو الفرج الاصفهاني الف كتاباً في الاغاني هل سمعت عنه شيئاً ؟ »

قال « سمعت انه يؤلف هذا الكتاب من عهد بعيد ولا ادري اذا كان قد اتمه الآن »

قال « سمعت انه احسن كتاب في الادب »

قال سعيد « نعم وقد بلغني انه قضى معظم حياته في جمعه وتأليفه وهو يغني عن سائر الكتب »

قال « بلغ مولاي الحكم خبر هذا الكتاب وان مؤلفه اموي مثله فاحب اقتناءهُ وهو يبذل ما تشاء للحصول عليه »

قال « سأبعث في طلبه من العراق لان صاحبه مقيم هناك »

قال « افعل . . ولا تذكر خبر قدومي اليك ولا خبر هذا الكتاب . . فهمت ؟ »

فاجاب « نعم » وقد ادرك انه يريد ان يخفي ذلك خصوصاً عن ابن عبد البر لاتصاله بعبد الله شقيق الحكم وكان عبد الله ينافس اخاه الحكم في اقتناء الكتب فاذا سبق احدهما الى اقتناء كتاب جديد عدَّ ذلك فخراً له

وودع تليد سعيداً بالاشارة وهمَّ بالخروج فتبعه سعيد الى الباب وقال له « هل كنتم في جملة الخارجين لملاقاة رسل الروم . . ؟ يا حبذا لو كنت معكم »

قال « لا لم اكن »

فقال « لو كنت لم يحدث شيء يغضب ياسراً » قال ذلك وهو لا يعرف شيء عما أغضبه وانما اراد الاستطلاع

فقال تليد « وهل بلغك ما حصل ؟ اني ارى ياسراً محقاً في غضبه

لان تماماً مع انه اقرب عهداً في خدمة القصر نراه قد شمخ بانفه عليه ويريد ان يتقدمه في المجالس وفي الاستئذان . ولكن ياسراً عاقل لا اظنه يحاسبه على هذه الجسارة » فال ذلك وودعه وهو يقول لا تذكر خبر قدومي لاحد

فادرك سعيد سبب غضب ياسر واستبشر به وكتمه وعاد الى عمله

ولما دنت الشمس من المغيب أخذ الزوار في الانصراف وابن عبد البر مستغرق في درسه وكتابته ولم يشأ سعيد أن ينبهه . . خرج الجميع ولم يبق هناك غيره فانتبه لنفسه لما غابت الشمس وخيم الظلام وهمّ بالنهوض فرأى جوهر الخادم يحمل اليه سراجاً مضيئاً وهو يقول « ان مولاي قد بعث اليك هذا السراج تستضيء به حتى يتم عملك »

الفصل الخامس

عابدة

فشكر له اختصاصه بهذا الاكرام وظل جالساً يكتب وقد خفت الضوضاء . وهو في ذلك سمع وقع اقدام خارج غرفته فالتفت فلمح شبحاً مرّ ببابها يشبه ان يكون امرأة حاسرة الوجه جميلة الطلعة . فاستغرب ذلك وانصت لعله يستطلع شيئاً فسمع سعيداً يرحب بالقادم بصيغة التأنيث فحمله حب الاستطلاع على رؤية الفتاة فنهض واطل من الباب وهو يتجاهل فرأى فتاة كالقمر طلعة والخيزران قواماً تخاطب سعيد بلسان فصيح يدل على علم وادب . وسعيد يقول لها « أتيت اهلا ووطئت سهلا يا عابدة لقد طال انتظاري قدومك »

فقالت « لم يكن تأخري عن عمد ولكنني شغلت بمطالعة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ونسخه فان هذا الرجل قد جمع فيه ما لا مثيل له في سواه من العروض والشعر والاخبار والامثال والتاريخ

ناهيك بالفوائد الصحية والعظات الدينية وقد نظم اعمال امير المؤمنين شعراً وتوفي وهو ينظمها منذ عان سنوات (توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هـ) » قالت ذلك واخرجت من تحت وسادها صرة كبيرة وقالت « وهذه هي النسخة التي نسختها »

فتناولها سعيد وهو يقول « انت نسختها بيدك ؟ »

قالت « نعم نسختها بيدي وارجو ان تعجبك »

فاخذ سعيد يقلب فيها ويتصفحها وهو يقول « ان هذا الكتاب نادر المثال ومع ان صاحبه توفي في هذه المدينة منذ بضعة اعوام فاني لم اجد نسخة منه بمثل هذا الخط وهذا الضبط » قال ذلك وهمّ بالمسير نحو غرفة ابن عبد البر وهو يقول « اظن ان هذه النسخة تليق بخزانة الامير عبد الله ابن امير المؤمنين »

فلما رآه ابن عبد البر يتقدم نحوه عاد الى مجلسه واظهر انه كان مشتغلا بالكتابة فلما وصل سعيد الى الباب قال « هل يأذن الفقيه بالدخول »

قال « تفضل وادخل »

فدخل والكتاب بيده وأشار الى الفتاة ان تدخل فدخلت وهي حاسرة الوجه والذكاء يتجلى في عينيها فدهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها على هذه الصورة وظنها لاول وهلة نصرانية او يهودية لان اليهود كانوا يعنون بالادب العربي . والتفت الى سعيد وهو ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقدم له الكتاب ويقول « جاءتني هذه الاديبة بهذا الكتاب مكتوباً بخط يدها وهو العقد الفريد لابن عبد ربه وأظن في مكتبة مولانا الامير عبد الله عدة نسخ مثله »

فتناول الفقيه الكتاب وهو ضخم وأخذ يقلبه على ضوء السراج ويعجب بجمال خطه وضبطه وقال « نعم فيها منه عدة نسخ ولكن لا مثيل بينها لهذه النسخة وأظن مولانا الامير يرغب في اقتنائها اذا أرادت هذه الحسناء بيعها . وهل هي خطها بيدها ؟ » ورفع بصره اليها

قال سعيد « نعم . . . وهل تستغرب ذلك ؟ فكيف اذا عرفت انها تعي هذا الكتاب وعشرات مثله في ذهنها . . فلا تسألها عن شعر جاهلي او اسلامي الا قالته »

فقال ابن عبد البر « ما شاء الله . . ان ذلك نادر في النساء »

فقال سعيد « وفوق ذلك فهي تحسن الغناء والضرب على العود »

فدهش الفقيه وجلس يفكر بما يسمعه وقال « واغرب من ذلك انها نصرانية او اسرائيلية على ما أظن »

قال « كلا بل هي مسلمة »

قال « ولكني أراها مكشوفة الوجه . . . واظن بهذا الجمال أن تبتذله العيون »

فالتفت سعيد الى الفتاة كانه يطلب اليها ان تجيب عن نفسها فقالت بالفاظ رخيمة لها وقع على النفس أشد من وقع معانيها « لا ارى داعياً الى تغطية الوجه الا ضعف النفس . واني على رأي عائشة بنت طلحة . فقد كانت تجالس الرجال ولا تحجب وجهها عنهم . ولما سئلت عن ذلك قالت : ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال احببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره ووالله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد »

فلما سمع الفقيه كلامها زادت دهشته والتفت الى سعيد وقال همساً « من هي ؟ »

قال « هي جارية من مولدات بغداد »

فهز الفقيه رأسه اعجاباً وقال « لله در بغداد كم يخرج منها . . ان مثل هذه الجارية جديرة ان تكون في دور الخلفاء أو الامراء ... »

فقطع سعيد كلامه قائلا « ألا تظن مولانا الامير يحب اقتناء هذه النسخة من العقد الفريد » واشار الى الكتاب بيده

ففهم الفقيه أن سعيداً لا يحب ان يذكر خبر اقتناء الجارية بين

يديها فاجابه « لا اشك في ذلك . . فاذا قدمته اليه بعد الفراغ من الاحتفال القادم اخذه واكرمك . وانا اذكر له خبرك قبل قدومك واذا رأيت ان تأخذ هذه الحسناء معك ليراها ويسمع حديثها كان ذلك باعثاً على رضاه وسروره »

قال « سنفعل . . والآن متى يكون الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية ؟ »

قال « اظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوماً على عادة أمير المؤمنين من تأجيل المقابلة زيادة في الارهاب »

قال اني شديد الرغبة في حضور ذلك الاحتفال »

قال « سأصطحبك معي . ومتى آن الوقت انبأتك وذهبنا معاً »

فشكر له وهمّ بالخروج فقال الفقيه « قد آن لي ان انصرف فأذن لي اذا شئت »

قال « لك الخيار يا سيدي . ولا بأس عندي من بقائك هنا في عملك واذا اردت كتباً أخرى غير البيان والتبيين قدمته مع السرور . وهذا كتاب العقد الفريد بين يديك ولعله يفيدك في ما تحتاج اليه في خطبتك من الشواهد التاريخية أو الامثال . . تفضل اجلس »

فشكر ابن عبد البر احتفاءه وقال « يكفي الآن ما قرأته »

قال سعيد « اظن خطبتك ستكون جامعة واعية وأرجو أن تنتفع بها فاذا انتفعت بها عادت بالنفع على اصحابك ولكن لا ادري اذا كنت تعدني من الاصحاب . . »

فخجل ابن عبد البر من هذا الاطناب وقال « انك من اعز الاصدقاء يا سعيد واذا وفقني المولى ونلت المنصب الذي اتوقعه بعد هذا الاحتفال رأيت مني ما يسرك فادع لي »

قال « اني ادعو لك بكل خير واراك اهلا لاكبر المناصب العلمية . فمن اولى منك برئاسة القضاة أو الخطباء ؟ »

الفصل السادس

المانيتزم

فتظاهر ابن عبد البر بالتواضع واسرع فوضع أوراقه في جيبه وخرج . فشيعه سعيد الى الباب ثم امر خادمه أن يوصد الباب وراءه فلما سمع ايصاده تنهد طويلا وعاد الى موقف الجارية فاذا هي لا تزال واقفة في انتظاره . فلما استقبلها نظرت اليه بعينين براقتين تكادان تنطقان وقالت « هل تأذن بانصرافي ايضاً ؟ »

فاشار اليها ان تجلس وتلفت حتى يتحقق خلو المكان من الرقباء فجلست على وسادة في غرفة ليس فيها غير بساط ومناضد صغيرة لوضع الاقلام أو الكتب او ادوات الكتابة وسراج قائم على مسرجة يخفق لهيبه فيتطاير سناجه في تلك الغرفة همساً كما تتصاعد زفرات عابدة ولا يشعر بها سعيد أو لعله شعر وتجاهل

فلما قعدت قعد امامها وهي تنظر اليه فلما وقع بصرها على بصره بادرت الى الاطراق لانها لا تطيق التفرس في عينيه لحظة فاذا فعلت احست كأن سهاماً تخترق بصرها الى احشائها او هي اشعة كهربائية تنتفض لها جوارحها . ولم يكن هو يجهل ذلك ولكن مطالبه غير مطالبها . فلما اطرقت قال لها « ما بالك لا تنظرين اليّ »

قالت « ألا تعلم اني لا استطيع النظر الى عينيك ؟ »

قال « كنت احسبك تفعلين ذلك حياء »

قالت « لم يبق باعثاً على الحياء بيننا وقد اطلعتك على مكنونات قلبي وتفاهمنا ملياً »

قال « يسرني انك فهمت مرادي وذهب سوء الظن »

قالت « نعم فهمت . ولكن يظهر لي ان هذا الانتظار لا آخر له وانت قانع ببيع الكتب ونسخها ومقابلة الناس ومحاسنتهم » قالت ذلك

وابرقت عيناها وظهر الارتباك في شفتيها كانها تخفي شيئاً تريد ان يفهمه سعيد بدون أن تقوله

أما هو فاحس بحدة ذلك التوبيخ فتغيرت سحنته وقال « لست ورّاقاً ولا ناسخاً كما تعلمين وانما انا . . » والتفت خوفاً من أن يسمعه احد وسكت وهو يحرق اسنانه

فقالت « لا تغضب يا سيدي . ولا تحسبني أعاتبك ولكني استبطىء النجاح . . ان شبابنا كاد ينقضي في هذه الديار متسترين . . »

فرفع بصره اليها وقال « يعجبني منك حماسك في سبيل الامر الذي جئنا هذه الديار من أجله ولا تظنيني جاهلاً مرادك فانا أعلم انك ارقى نفساً من ان يكون مطلبك مني مثل مطلب سائر النساء الجاهلات . وقد تعاقدنا وتعاهدنا على ذلك . وأما استبطاؤك النجاح فقد يكون في محله وقد تكونين مخطئة فان لكل اجل كتاباً . . . وهل تحسبينني غافلا . . . ولكن اعلمي يا عابدة ان الساعة دنت وفتح باب الفرج الآن . . . واصبح اتمام العمل عليكِ « قال ذلك وتفرس في وجهها »

فتحمست وقالت « عليّ أنا ؟ . اني طوع اشارتك . . متى بلغ من الامر ان يكون قضاؤه عليّ فقد انقضى »

فاعجب بذلك القول الدال على قوة العزيمة والحزم وقال « اتطيعينني ؟ »

فتنهدت وقالت « وهل أقدر ان اعصاك . . لا أعلم ما بعينيك من التأثير في خاطري . . اني لا يقع بصري على بصرك الا شعرت كأنك غلبتني على أمري وقيدت ارادتي بارادتك فاشعر كأني عضو من اعضائك يخضع لارادتك ويعصاني . فكيف تسألني اذا كنت اطيعك ؟ » قالت ذلك وأطرقت حياءً

فقال « تطيعينني حتى الموت ؟ »

قالت « حتى الموت وبعد الموت »

قال « لا اعني ان تعرضي نفسك للموت بل اعني اذا اقتضت الحال ان تقتلي أحداً بيدك هل تفعلين . . ؟ »

قالت « اذا كان ذلك في امكاني افعله » قالت ذلك وقد احمرت بقشعريرة خفيفة وسكتت

فتحفز للوقوف وهو يقول « اني ذاهب الساعة الى الاجتماع »

فتنهدت وقالت « ألا يزال القوم مجتمعون كالعادة »

قال « نعم وهم يزدادون عدداً وقوة حتى دخل في جمعيتنا هذه كل رؤساء القبائل الناقمة على الناصر وفيهم آل خصيون الذين غلبهم على أمرهم وجماعات كتامة وغيرهم من البربر وانما نحن نترقب الفرص »

قالت « وهل يعتقدون حتى الآن انهم يجتمعون لاصلاح داخلية بلادهم »

قال « ان المفهوم من اغراض هذه الجمعية عند اعضائها انها تشكو من ايثار الناصر للخصيان الصقالبة على ابناء العرب أو غيرهم من الاحرار . وتنتقد بذخه واسرافه . هذا كل ما يفهمونه من الاغراض . وليس في هذه البلاد من يفهم حقيقة الغرض الاصلي الا انت وانا فابقي على الكتمان »

فاطرقت لحظة وقد بدا الاهتمام في جبينها وقالت « دعني أذهب معك »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « افعل كما تفعلون . . لعلي استحث القوم على العمل »

قال احسنتِ هيا بنا « ونهض فنهضت معه وقد التقت بردائها فامسك بيدها وخرج من باب آخر في المنزل ومشيا في الظلام وهي لا ترى شيئاً ولو مشى بها الى الجحيم وهو قابض على يدها لمشت ولم تبال لانها اسيرة ارادته كما يخضع من ينام نوماً مغنطيسياً لارادة منومه بالاستهواء

مشيا مدة بين صعود وهبوط وقد بعدا عن الابنية حتى وقف بها في مكان سمعت فيه عنين ساقية وخرير ماء فقال « وصلنا »

الفصل السابع

الاجتماع

فنظرت الى ما حولها فرأت بين يديها ماء يجري في نهر عرفت ذلك من لمعان سلاحه في الظلام فقالت « نحن على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) »

قال « اصبري » وأخذ بيدها وأدخلها دهليزاً شديد الظلام بجانب الساقية فتلمسا الحائط حتى أطلا على باب فاستخرج سعيد من جيبه مفتاحاً فتحه به ودخل واقفله وراءه وعابدة تحملق بعينيها من شدة الظلام فاذا هي ترى شعاعاً ضعيفاً ما زال يشتد حتى ظهر فرأت نفسها عند باب مقفل فتقدم سعيد وقرعه قرعاً مخصوصاً ففتح له ونظر الى عابدة على النور فرأى سحنتها قد تغيرت لشدة القلق في اثناء الطريق فاشار اليها أن ترخي النقاب ففعلت ودخل أمامها - ثم أمرها ان تدخل ومشى بها الى مجلس في صدر القاعة فاجلسها على وسادة الى جانبه وتفرست في الوجوه فرأت شيوخاً وشباناً عرفت بعضهم ورأت اناساً بينهم من رجال الدولة المروانية انفسهم فتهيبت برهة ثم سمعت سعيداً يتكلم فقال « ياقوم نحن الآن في جلسة مقدسة وقد اتيت بهذه الاديبة من اهل دعوتنا لتعلموا ان النساء يشاركننا في النقمة على الحالة الحاضرة . . فالى متى نحن صابرون ؟ »

فنهض رجل من الحضور وهو في عنفوان الشباب وقال « نحن صابرون لصبرك . قم بنا فاننا قائمون »

قال « صدقت . . ولكنني لا ارى العجلة تنفع . ان الامر الذي نحن ساعون فيه يحتاج الى اعمال الفكرة . نحن ساعون في المطالبة بحق ضائع . ان هذا الرجل الذي سمى نفسه خليفة وتلقب بامير المؤمنين قد استبد بالاحكام واخرج المناصب من اهلها فسلمها الى جماعة من الخصيان

والعبيد حملوا اليه حمل الاغنام من اقصى الشمال فاشتراهم كما يشتري الماشية ثم اختصهم بقربه وأغفل اهله وابناء عترته . ولم يبق الا ان يولي القضاء فتى من فتيانه الصقالبة أو الافرنج . . انه ينفق الاموال في بناء القصور واقامة التماثيل ويصنع حجارة البناء من ذهب وقد نهى الله عن ذلك (١) ان الذين فعلوا هذا قبله اضاعوا الدولة والمملكة فتبصروا في امركم »

فنهضت عابدة والنقاب لا يزال على وجهها وقالت « اني فتاة لا اعلم علمكم ولكنني أعلم ان طول الصبر عجز وان المبادرة حزم ـ ان عبد الرحمن صاحب هذا البلد قد أفرط بالاسراف وحط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم اصل هذا الدين وعماده فعهد باكثر مناصب الدولة الى الخصيان والعبيد واستكثر من هؤلاء حتى غصت بهم قصوره وابتنى قصر الزهراء على اسم جاريته وملأه بالخصيان والجواري والعبيد . ان في هذا القصر وحده ١٣٧٥٠ فتى من الخصيان وفيه من الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ وعدد النساء الصغار والكبار فيه ٦٣١٤ ما فائدة الدولة من هؤلاء وهو ينفق عليهم الوف الوف الدنانير من مالها . . أتعلمون كم مقدار النفقة ؟ ان احصاءها فوق طاقتي ولكنني اذكر لكم مقدار ما ينفق لاطعام اسماك احدى بحيرات الزهراء . . علمت ان مبلغ ذلك في اليوم ١٢٠٠٠ خبزة وستة اقفزة من الحمص ـ تلك هي نفقة طعام اسماك احدى البحيرات فكم يكون مقدار النفقة على سائر حيوانات تلك القصور من الخيل والاسود والكلاب بل كم هي نفقة اولئك الالوف من الخصيان والعبيد . وانما البلية من كثرة النساء لان كثرتهن تكثر الخصيان . . هل فيكم من يقدر ان يعرف مقدار النفقة ؟ كلا ولكنكم تعرفون جميعاً انها باهظة »

كانت تقول ذلك بصوتها الرخيم فلما وصلت الى هنا بلعت ريقها وسكتت هنيهة ثم عادت الى الكلام فقالت « وهؤلاء الخصيان المجلوبون

(١) المقري ج ١

بالشراء اصبحوا الآن كبار رجال الدولة كصاحب الخيل وصاحب الطراز وقد اتخذ منهم جنده وحاشيته وجالسهم وقربهم واصبح اذا اراد أن يكرم وافداً بعث اليهم خصياً يستقبله كما فعل اليوم بانفاذه ياسراً وتماماً لاستقبال رسل ملك القسطنطينية . وقد اتخذ من العبيد ايضاً جنداً وحاشية واهمل العرب والبربر الذين فتحوا هذا البلد وجاهدوا في سبيل الاسلام ـ ان اعماله هذه دليل على قرب سقوط هذه الدولة . ولا يغرنكم ما تسمعون به من الذهب ولا ما تشاهدونه من أسباب الرخاء والترف فقد كان مثل ذلك او اكثر منه في الدولة العباسية على عهد الرشيد والمأمون ولكنهم اهملوا اهل عصبتهم فاستقووا بالاتراك يتحاربون بهم . فصار النفوذ الى الاتراك وهو صائر هنا الى الخصيان ان لم تمنعوه بمبادرتكم . ويكفي لفتاة مثلي ان تقول ذلك واذا رأيتم اني استطيع عملا اندبوني له والسلام »

وكانت تتكلم والحضور كأن على رؤوسهم الطير وقد احسوا بتهاملهم فنهض شاب متحمس وقال « اني افدي الامة بنفسي اندبوني للقتل او الفتك . . ان اهلي وعترتي يعدون بالمئات وهذا دمي بين ايديكم »

وصاح صائح بمثل ذلك وعلت الضوضاء فوقف سعيد وقال « لا حاجة بنا الى العجلة انظروني فاخبركم بالوقت المناسب . لكنني أتقدم اليكم ان تجعلوا نصب اعينكم ان هذه الدولة لا بأس من بقائها وانما العيب في امرها ولا نرى ولي العهد الا مثله فان اقرب المقربين اليه خصي صقلبي هو جعفر فاذا صارت الخلافة اليه هل يرجى منه غير ما نراه من ابيه ؟ لقد اعمى عبد الرحمن ابصار الناس بالابهة والزخرف . . . اعماها بالقصور التي بناها لجاريته . وابنه الحكم سيكون مثله . . ولا بد من النظر في من يصلح للملك سواهما . . . على اني اشكر لهذه الفتاة التي انتنا وبثت فينا روح النشاط والهمة وهي نفسها سيكون لها شأن في هذا العمل الجليل »

وبعد قليل انفضت الجلسة وقد اقسم كل منهم على الكتمان والثبات

وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث أتيا حتى اذا وصل منزله قال لها « لقد أعجبتني لانك لم تذكري دولة السعيدين ولا قلت شيئاً عن الشيعة لئلا يستفشرونا »

فقالت « ألم أقل لك اني اشعر كأني عضو من اعضائك انما أقول ما توحيه اليّ ويكفي ان تريد ذلك وان لم تقله والآن اسمح لي بالانصراف »

قال « موعد اللقاء يوم الذهاب الى الامير عبد الله نقدم له العقد الفريد وانما ابعث اليك باخبر في حينه »

فنفت رأسها ايجاباً وابتسمت وانصرفت وهي تلتفت اليه وكان خادمها الخصي في انتظارها خارجاً ليمشي في خدمتها الى منزلها

الفصل الثامن

المناجاة

انصرفت عابدة وسعيد يشيعها ببصره ثم وقف حيناً وهو غارق في بحار الهواجس ينظر الى الارض وهو تارة يحك ذقنه بسبابته وأخرى يتشاغل باصلاح قبعة كان يلبسها على رأسه كالعرقية والخادم واقف وبيده المصباح ينتظر امره ولا يجسر ان يخاطبه تهيباً مما في وجهه من ملامح الاهتمام والارتباك . ثم انتبه سعيد لنفسه ومشى الى غرفة الرقاد وأشار الى الغلام ان يضع المصباح هناك ويمضي

ثم نهض سعيد وأغلق باب الغرفة واستلقى على فراشه ولم يبدل شيئاً من ثيابه كأنه لا ينوي الرقاد في تلك الساعة لما قام في ذهنه من التذكرات المقلقة . ظل مستلقياً برهة وهو غارق في التفكير ثم جلس فجأة وأخذ يناجي نفسه قائلا « ماذا اعمل ؟ انها تحبني . . . تحبني كثيراً

ولكنني لا اشعر اني احبها . . . بل لا أقدر ان احبها مع انها جميلة وذكية و . . . لماذا لا أحبها وأريح قلبي من التفكير بسواها ؟ . . . » ولطم كفه على جبينه وحرق اسنانه ونهض وأخذ يمشي في الغرفة ثم وقف وقال « مسكينة عابدة انها جميلة وأديبة وذكية وهي تحبني بل هي تعشقني وتستهلك في سبيل مرضاتي . . . فلماذا لا أحبها ؟ . لماذا لا احبها وانزع صورة تلك القاسية القلب الشامخة الانف من ذهني . . نعم ينبغي لي ان ابغض هذه وارذلها وأطرد خيالها من خاطري . . . آه اني اذا فعلت ذلك فانا سعيد البطل الحازم واكون اهلا للاسم الذي يحسبني هؤلاء اسمى فيه واني انما قمت هنا نصرة للمظلومين ودفعاً لظلم الظالمين . . نعم ينبغي ان يكون هذا غرضي الوحيد . . نعم اذا طردت ذلك الخيال من خاطري خيال تلك المتكبرة القاسية . . اذا نزعتها من فكري وأحببت عابدة — اذا فعلت ذلك يرتاح قلبي وأتفرغ للعمل العظيم الذي يتوقعه الناس مني . . نعم هكذا يجب ان اعمل هكذا يجب ان يكون سعيد القائد الحكيم الحازم . . »

قال ذلك وأخذ يخلع ثيابه فخلع الفراجية وعلقها بوتد في الحائط ثم نزع القبعة ودار وهو لا يدري اين يضعها لاضطراب خاطره فرمى بها الى الارض وأطفأ المصباح واستلقى فعادت اليه هواجسه وهجره النوم وتراكمت عليه الخيالات . فجعل الغطاء فوق رأسه كأنه يختبىء من الخيالات فلم يرها الا تزداد وازداد تنبهه حتى سمع دقات قلبه بأذنه فصبر عليها فأخذته سنة الوسن هنيهة فرأى حلماً أزعجه فوثب من الفراش كالمجنون وهو يقول « لا لا . . . يجب ان احب عابدة التي تكاد تعبدني . . وانزع تلك الصورة من خاطري . . والا فما انا سعيد كما يسمونني . . ما بالي لا اشعر اني قادر على ذلك . . ما هذا الخيال الذي يتردد امام عينيّ ؟ . . اذهب عني . . دعني وشأني اني قد عزمت على السلو . . كيف لا . . اني اشعر بقوة ازحزح بها الجبال وأغالب أعقل الناس وأدعاهم أفلا اقدر على امتلاك قلبي . . ماذا ارى . . هذا

خيالها . . » وأطبق كفيه على عينيه كأن امامه شبحاً لا يريد ان يراه وقال « اذهبي عني دعيني وشأني قد آن لي ان ارجع الى رشدي وقد ادركت الاربعين . . فيجب ان انسى عواطف ابناء العشرين والثلاثين . . نعم يجب ان انساها لانها نسيتني وعلقت بسواي . . علقت بسواي ؟ اذاً هي احتقرتني فيجب ان انتقم منها . . انتقم منها ؟ لا لا . . لعلها معذورة واذا رأتني تتذكر الماضي وتعود اليّ . . هل يكون ذلك . . وا فرحتاه اني أراها تبتسم لي وتهم بمعانقتي . . آه ما اجمل رضاها . . انه ينسيني عابدة وسائر العباد . . هل يجود عليّ الزمان بذلك ؟ نعم لا بد ان يجود . . سأجعله يجود رغم انفه . . سأضحي كل شيء في سبيل الوصول الى تلك الحبيبة فاما انالها او انتقم منها ومن . . . » وسكت لانه سمع حركة توهم ان عابدة قادمة نحوه فوقف والظلام حالك وهو يتوقع ان يسمع قرع الباب فلم يسمعه فعلم انه واهم ولكنه عاد الى تذكر عابدة فقال « وعابدة المسكينة أأهملها ؟ لا . . بل اجعلها سعيدة مع سواي . . او . . ولكن بعد ان تخدمني في غرضي . . »

الفصل التاسع

السحر والتنجيم

قضى سعيد معظم الليل في امثال هذه الهواجس ولم ينم الا عند الفجر بعد ان تعب وخارت قواه وأصبح في اليوم التالي وعاد الى عمله فشغل عن هواجسه بمقابلة الزائرين وهو على احر من الجمر في انتظار يوم الاحتفال وقد أخذ في التفكير والتدبير لينتفع من الاجتماع في ذلك اليوم

وأتته عابدة في أثناء الانتظار تتذرع الى رؤيته بالسؤال عن وقت الاحتفال فاجابها انه لا يزال ينتظر الخبر بذلك . فمكثت عنده حيناً تتشاغل بتقليب الكتب وهو يبدي السرور برؤيتها وفي خاطره

تردد لم يظهر لها لانه كان قوي الارادة كبير المطامع لا يبالي بما يقف في طريقه الى غرضه ولا بما قد يرتكبه في ذلك السبيل من الكبائر فاخذ ساعات اجتماعه بعابدة في أثناء تلك الفترة فرصة لتوطئة المعدات التي ينوي اعدادها لتنفيذ غرضه وهي توافقه ولا ترى غير ما يراه . وفي جملة تلك المعدات كتاب قديم استخرجه من خزانة واخذ يقلب صفحاته وفيها رسوم واشكال من قبيل الطلاسم واستخراج المخبآت وهي لا تزداد بذلك الا تعلقاً به وانقياداً له حتى صارت تعتقد انه قادر على كل شيء

وهما في ذلك أنبأها الخادم بقدوم الفقيه ابن عبد البر فنهض سعيد لاستقباله فلما دخل ورأى عابدة فرح بها ووافق وجودها غرضاً جاء من اجله . فحيا وسلم على عابدة سلام من يعرفها فردت التحية بادب وحشمة زادتها رفعة في عينيه فوجه كلامه الى سعيد قائلا اظنني اتيت في غير الوقت المناسب »

فاظهر سعيد الاحتفاء الكثير وقال « بالعكس يا سيدي فقد جئت في ابان الحاجة اليك »

فنظر الى الكتاب الذي بين يديه وقال « ألملك عثرت على كتاب جديد

قال « كلا يا مولاي . . ان هذا الكتاب قديم » وجعل يقلب فيه فوقع بصر الفقيه على رسوم واشكال تعود ان يرى مثلها في كتب السحر فقال « وساحرٌ أيضاً . . انك رجل نادر المثال »

فقال لا تستغرب شيئاً ايها الفقيه فان الانسان اذا جد وجد ولا أراني أعرض شيئاً لا يستطيعه سواي .. وفي كل حال فليس لي ما للفقيه من العلم الواسع في الفقه واصوله وهو الخطيب المفوه . . »

فقطع ابن عبد البر كلامه على كيفية يوهمه بها ان خاطراً خطر له في تلك اللحظة ولم يكن في باله من قبل مع انه جاء من اجله فقال « ليس فيّ شيء من ذلك . . . وقد اذكرتني أمر الخطاب »

فادرك سعيد ما في نفسه فسبقه الى القول « انما قلت ما قلته

لا تدرج الى سماع خطابك . هل أتممته ؟ »

فمد ابن عبد البر يده الى جيب قفطانه واستخرج منديلا فيه لفافة ففضها وهو يقول « هذا هو الخطاب . . ولم يأت كما كنت احب . . ولكن لا بأس به »

فاومأ سعيد الى عابدة فقالت للفقيه « لا اظننا نستحق ان نسمعه قبل مولانا امير المؤمنين »

قال وقد أثر قولها فيه « كيف لا ؟ اذا شئت تلوته عليك ولكنني لا أراه أهلا لاعجاب ادبية مثلك . . »

فابتسمت واشارت اليه ان يقرأ اذا شاء فقال « أتلوه عليكما على سبيل التجربة واذا بدا لكما انتقاد قولاه »

فأشار سعيد بعينيه وشفتيه انه يجل الفقيه عن أن يكون موضع نقد ضعيف مثله ثم أصلح الفقيه موقفه وأخذ يتلو الخطاب كما يتلى في حضرة الخليفة وسعيد وعابدة صامتان مصغيان يبديان الاعجاب عند بعض المواقف وهو يجود وما أتى على آخر الخطاب حتى امتلأ اعجاباً بنفسه وسعيد وعابدة يطنبان ويعجبان حتى قال سعيد « ان هذا الخطاب اذا قدره أمير المؤمنين قدره جعلك قاضي القضاة او شيخ أهل الفتوى »

فخفى الفقيه رأسه تواضعاً وهو بالحقيقة يعتقد في نفسه اضعاف ما سمعه ولكنه خاطب سعيداً قائلاً « ان ذلك يرجع الى التوفيق فاذا وفقت الى ساعة سعيدة ووازرتني بدعائك نجحت ان شاء الله . ولكن هذا كتاب الطوالع بيدك اخبرني عما سيكون من حظي بعد تلاوة الخطاب »

فقال وهو يفتح الكتاب « ذلك يتوقف على اليوم الذي سيعقد فيه الاحتفال اذ لكل يوم طالع قد يوافق نجمك وقد لا يوافقه . . هل تعرف متى يكون الاحتفال ؟ »

قال « عينوا له يوم السبت القادم الواقع في ١١ ربيع الاول »

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ ويعيد القراءة ويعيد التقليب وقد بدت البغتة في عينيه وهو يقول « أنت مؤكد انه سيكون يوم السبت من كل بد ؟ لعلك واهم »

فاختلج قلب الفقيه في صدره خوفاً وقال « ألعل ذلك اليوم لا يوافق طالعي ؟ »

قال « لا أعني ذلك ولكنني أحب أن أعرف الذين سيحضرون ذلك المحل فان الطالع يتغير بتغير الجراذب والدوافع من الطوالع الاخرى » ثم وصل الى صحيفة وقف عندها طويلا وقال ان طالعك اذا استقلّ لا خوف عليه في اي يوم كان اما اذا زاحمه طالع آخر أرى صفته في هذا الكتاب وكان ذلك في يوم السبت قد يصيبه ضرر . . ولكن ذلك غير مؤكد فتوكل على الله واعلم انك أحسنهم جميعاً وانما أتقدم اليك متى أحرزت ذلك المنصب الرفيع أن لا تنسى صاحبك سعيداً »

فاقلقه ذلك الارتياب لكنه اطمأن للعبارة الاخيرة فضحك وهز رأسه استخفافاً بتلك التهمة ولسان حاله يقول « كيف انساك ؟ » وزاد ذهنهُ تعلقاً بنيل هذا المنصب

وهم في ذلك دخل ياسر كبير فتيان الناصر وكان قد أكثر من التردد على سعيد بعد مقابلته الاخيرة وأسرّ اليه اموراً فرّحه بها وزادت الروابط بينهما سراً وارتفعت الكلفة . وأما بين يدي الفقيه فاحتفل سعيد بياسر وبالغ في تبجيله واكرامه وقدم له كرسياً ليقعد عليه وابن عبد البر لا يزال قابضاً على اللفافة فهمّ بوضعها في جيبه وأخذ بالسلام على ياسر فآنس منه احتفاء واكراماً فوق العادة فآنس به فقال سعيد لياسر « هل يرغب الاستاذ في خدمة ؟ »

قال « كلا ولكنني تذكرت سؤالك عن وقت الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية لانك تحب حضوره وكنت قد جئت على بغلتي الى هذه الجهة لغرض لي فرأيت أن أمر بك واخبرك ان الاحتفال يكون يوم السبت القادم وقد سرني اني لقيت الفقيه هنا لاوصيه

بمرافقتك الى القصر الزاهر حيث يكون الاحتفال »

قال « أشكرك يا سيدي على هذه العناية » والتفت الى الفقيه وسأله عن الملتقى فقال « نلتقي في المسجد قرب باب الجنان المطل على الرصيف فوق الوادي الكبير وهو أقرب أبواب القصر الينا على ما أظن »

قال « حسناً سأوافيك الى هناك صباح يوم السبت القادم ان شاء الله »

وهمّ ياسر بالانصراف فاستوقفه الفقيه بقوله « هل كنت تعرف قبل الآن ان لسعيد معرفة بالنجابة والطوالع »

قال « وأعرف فوق ذلك انه طبيب وكيماويّ »

فبغت الفقيه وهز رأسه وقال « وكيماويّ ايضاً انه كل شيء »

وكانت عابدة في أثناء ذلك مشتغلة بكتاب في يدها تقلب صفحاته وكلما سمعت اطناباً بسعيد اختلج قلبها فرحاً به وتنهدت تنهداً عميقاً

وانتبه الفقيه لها في تلك اللحظة فقال لياسر « وهل عرفت هذه الفتاة الاديبة ؟ لا أظن في قصور أمير المؤمنين فتاة في مثل أدبها وتعقلها »

فالتفت ياسر الى الفتاة وقد خجلت من ذلك الاطراء وعلت وجهها حمرة وأبرقت عيناها فقال « هل تعرف الشعر والادب ؟ »

قال سعيد « نعم يا سيدي انها تحفظ ألوفا من أشعار العرب وأمثالهم وأخبارهم »

قال « ليس بين نساء قصر أمير المؤمنين من يحفظ الشعر الا الزهراء ولذلك فانها أقرب جواريه اليه كما تعلمون لان مولانا الناصر كثير الشغف بالادب واهله . على ان معرفتها قليلة في جانب ما تذكره عن هذه الحسناء »

فندم الفقيه على توجيه نظر ياسر الى عابدة مخافة ان يسعى في اخذها الى الخليفة وهو يحب ان تكون للامير عبد الله فيكون له حظ من

ادبها فغير الحديث واستأذن في الانصراف على موعد اللقاء يوم السبت. وبعد قليل انصرف ياسر بعد ان ودع سعيد وقد تفاهما

الفصل العاشر

الاحتفال

واخذ اهل قرطبة يتأهبون لاستقبال رسل ملك القسطنطينية في البناء المعروف بالقصر الزاهر احد ابنية القصر الكبير. لان هذا القصر كان مؤلفاً من عدة قصور كما تقدم وهو واقع في الطرف الغربي من قرطبة يطل على الوادي الكبير وهو نهرها الذي يجري من الشرق الشمالي الى الغرب الجنوبي. والقصر يشغل مساحة كبيرة تتخللها البساتين والحدائق والاحواض والبرك والبحيرات والقصور وغيرها. ويحيط بها جميعاً سور له بضعة ابواب منها باباذ في الجنوب يطلان على النهر هما باب الحنان والسطيح وواحد في الشمال اسمه باب قورية وآخر في الشرق هو باب الجامع. والاخير في الغرب ويقال له باب الوادي. والاثنان الاولان يشرفان على النهر وبينه وبينهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر يخرج اليه الوجهاء واهل الدولة للتنزه بقرب الوادي الكبير (النهر)

وفوق النهر جسر فخيم (كوبري) يصل بين قرطبة وارباضها الجنوبية طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه عشرون ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وعدد قناطره ١٨ ذراعاً وفوقه ابراج عددها ١٩ برجاً وهو يعد من مفاخر قرطبة ولا يزال الى اليوم من آثارها الفخيمة

وكان منزل سعيد في الارباض الجنوبية ولا بد له في ذهابه الى القصر من العبور على ذلك الجسر. فلما كان اليوم المعين لبس لباساً فاخراً على شكل يستلفت انتباه اهل قرطبة وفيه مشابهة للباس العلماء والاطباء مع فخامة واتقان وكبر العمامة على الخصوص مع ان اهل

الاندلس قلما كانت لهم عناية بالمهائم . وغرس في عمامته قلم الكتابة وتمنطق فوق القفطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة واكتحل بالاثمد اكتحالا كثيفاً . وركب بغلته وساقها يطلب باب الجنان من ابواب القصر ومشى خادمه في ركابه . وكان ركوب البغال في الاندلس من دلائل الجاه والثروة . فقطع سعيد مسافة وهو يطلب الجسر فعرف قربه من الوادي مما سمعه من دوي الرحى بجواره — فقد ذكروا انه كان في ذلك الوادي ٥٠٠٠ رحى (١) تطحن الحنطة وغيرها وكلها تدور بمجرى الماء

وبعد قليل أشرف سعيد على الجسر فرأى الاقدام قد تزاحمت فيه لكثرة الوافدين على القصر او على الرصيف للتفرج باحتفال أولئك الرسل . ورأى ما على الجسر من الابراج في الجانبين بين البرج وأخيه ثمانون ذراعاً وعليها الاعلام منصوبة تخفق مع الريح . فقطع الجسر بين الجماهير والشمس لم تشكبد السماء بعد فوصل الرصيف وقد تجمهر فيه الناس رجالا ونساء وأطفالا بين راكب وماش وواقف على طول الرصيف وخصوصاً بقرب الجسر . لان الرسل سيمرون عليه بانتقالهم من منزل ولي العهد في الربض بعدوة قرطبة الى القصر الكبير . وقد تفرقت الاجناد في الطرق لمنع الزحام وخصوصاً على الجسر

فظل سعيد سائقاً بغلته في الرصيف الى الجامع فلم يجد ابن عبد البر فيه ولكنه وجد خادماً صقلبياً واقفاً بانتظاره . فلما رأى سعيداً قال له « ان مولانا الفقيه سبقك الى السطح المشرف فوق الباب وراء هذا الجامع ويرغب اليك ان تذهب الى هناك لتشرف من ذلك السطح على النهر والجسر والرصيف والقصر جميعاً »

فساق بغلته الى ذلك الباب وعليه سطح مشرف لا مثيل له في العالم (٢) فتحوّل وترك البغلة للخادم وصعد الى السطح من سلم بجانب

(١) المقري ج ٢ (٢) المقري ج ١

الباب فرأى الفقيه جالساً في انتظاره فوقف له ورحب به وقال « أظنني أتعبتك بالمجيء الى هنا ولكنني اعلم انك تسر بهذا المنظر الجميل . . . »

فوقف سعيد الى جانبه وتلفت الى ما يشرف عليه فاذا هو يرى النهر وفيه القوارب من جهة الجنوب وفوق الجسر وعليه الاعلام تخفق فوق الابراج وقد تزاحم الناس وتحاكت مناكبهم وفيهم العربي والصقلبي والبربري والمستعرب (وهو في اصلاحهم الاسباني الذي يتكلم العربية) من الرجال والنساء والاطفال يتخللهم الباعة بالاطباق على رؤوسهم وفيهم من يحمل طعاماً او فاكهة او نقلا والسقاة يحملون الجرار على ظهورهم ينادون سبيل يا عطشان وبين هذه الاخلاط من الناس رجال الجند تتشابه ملابسهم وفيهم الصقالبة البيض والرجالة السبيد وقد رتبوا صفوفاً حسب رتبهم وأجناسهم . فوقف صف من السبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤوسهم الخوذ الصقلبية وفي أيديهم التراس الملونة على طول الجسر الى باب الجنان من ابواب القصر يتخللهم فرسان منهم

الفصل الحادي عشر

القصور

وأومأ الفقيه الى سعيد ان يلتفت شمالا غربياً نحو أبنية القصر وبساتينه فرأى ما بهره من القصور المختلفة الاشكال وبينها الحدائق والبساتين تتخللها البرك والبحيرات والاحواض من الرخام المنقوش وعليها تماثيل من الرخام او الفضة على اشكال مختلفة يجري ماؤها من أنابيب بعضها كأفواه الحيوانات . اكثرها من الرخام وبعضها من الفضة والبعض الآخر من الذهب تتلألأ عن بعد في اشعة الشمس . وبعض الاحواض عليها التماثيل من النحاس المموه على أشكال جميلة والماء ينبثق من جوانبها فيتلون رشاشهُ بألوان قوس القزح . فانبهر سعيد من تلك

المناظر ولم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المشرف فقال « بالحقيقة ان الخليفة الناصر قد ابدع في تدبير هذا القصر واتقانه . وأغرب ما فيه هذه الاحواض المنقوشة وعليها التماثيل يتفجر الماء من جوانبها أو رؤوسها او افواهها . هل هو ماء النهر حمل اليها ؟ »

فضحك الفقيه وقال « ماء النهر ؟ . . وهل يصعد الماء من هذا الوادي الى هذه المصانع ؟ . انما هو ماء مجلوب من هذه الجبال العالية على المسافات البعيدة . . وقد أنفقوا في سبيل جلبه ما لا يقدر من الاموال . يكفي ان تتصور اجراء هذا الماء من تلك الجبال الى هذه القصور في قنوات من الرصاص . فكم نقروا من الصخور وبنوا من القصاب لتدبير الماء في مجريه بالانابيب المذكورة . ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله الى هذه القصور والبحيرات والبرك والصهاريج حتى ينصب من تماثيل الفضة او الرخام او النحاس المموّه وبعضه يجري من أنابيب الذهب . غير ما أنفقه في نقش هذه التماثيل الرخامية فوق الاحواض »

فكان ابن عبد البر يتكلم وسعيد مطرق يفكر حتى فرغ الرجل من كلامه فقال له « لا يدهشني مقدار ما أنفق من الاموال اكثر من اتخاذ هذه التماثيل . . فهل أفتيتم له باتخاذها وهي محرمة على ما أعلم »

فهز الفقيه رأسه وقال « من أفتى له ؟ انه أفتى لنفسه »

ثم استوقفهما صوت النفير فالتفتا نحو الجسر فرأيا الناس يتسابقون نحوه لمشاهدة أولئك الرسل وقد أقبلوا على افراسهم وعليهم الالبسة المذهبة تتألق بضوء الشمس فوق السروج المفضضة وقد أحاطت بهم كوكبة من الفتيان الوصفاء من شبان الصقالبة عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية وقد امتطوا الافراس الجياد عليها اللجم المحلاة بالذهب . وقد بالغ عبد الرحمن باظهار الابهة والعظمة ارهاباً للاعداء

فأراد سعيد ان ينزل عن السطح فقال له « والى أين ؟ ان الطريق مسدود بالناس ولا سبيل لنا الى القصر الآن فالافضل ان نمكث هنا ريثما يمرّ الركب ثم ندركه على عجل او نسبقه من طريق مختصر

اعرفه . . أنظر الى ما اراده امير المؤمنين من الارهاب بايقاف أحاسن رجاله في طريق اولئك الرسل . ان رجالته العبيد مصفوفون على الجسر وهذه كوكبة من الفتيان الاصاغر تحيط بالرسل . . ألا ترى هؤلاء الروم قد أخنوا رؤوسهم خوفاً ورهبة . انظر الى باب الجنان كم نصب عليه من الاعلام وكم وقف بجانبيه من الفرسان وعليهم الالبسة الثمينة . هؤلاء ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة وقد لبسوا البياض وبأيديهم السيوف ووراءهم من هذا الباب في الداخل الى الباب الثاني من أبواب القصر صف من الرماة وقد تنكبوا قسيهم وجعابهم . واذا أمعنت نظرك في الوقوف بالباب الثاني وما وراءه رأيت طائفة أخرى من الصقالبة الاكابر في أثمن من ذلك وأبهج . . لا ريب عندي ان اولئك الاروام قد دهشوا من هذه المناظر . وسترى اغرب من ذلك متى اتيت القصر ورأيت ما اعدوه هناك من الرياش والاثاث ومظاهر الملك وأبهة الدولة . . »

قال سعيد « اخاف ان يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب تعبنا سدًى »

فهز رأسه استخفافاً وقال « لا يبدأون قبل وصول الخطباء . . ومع ذلك فاني آخذك من طريق مختصر نصل منه الى القصر قبل وصول الناس اليه »

قال « افعل اذا شئت »

فتحوّل الفقيه وتحوّل سعيد معه فلما صارا في الطريق اشار الى سعيد ان يترك بغلته ويسير معه ماشياً لان ذلك اسهل عليهما

فأشار سعيد الى خادمه ان يحتفظ بالبغلة ومشى مع الفقيه . فسار به في البساتين بين الاشجار والرياحين وقد سرّه المشي هناك بدل الركوب ليتمكن من رؤية كل شيء فكثيراً ما وقف عند بعض الاحواض الرخامية يتأمل انصباب الماء من جوانبها او من اواسطها في الانابيب المختلفة الاشكال والالوان وحولها البستانيون يتعهدونها بالاصلاح

والري والتنظيم . ولحظ الفقيه اعجابه بما يشاهده هناك فقال له « أراك قد دهشت مما تراه في هذا القصر من البذخ فكيف اذا دخلت الزهراء ورأيت قصورها وقاعاتها وحدائقها وقبابها ؟ كيف اذا رأيت القبة التي قرميدها من الذهب ؟ . . »

فصاح سعيد « قرميدها من الذهب ؟ . اني استغرب ذلك من امير المؤمنين بعد ان اتخذ الخلافة فصار نائباً عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الناهي عن اتخاذ ذلك . . »

فأومأ الفقيه بسبابته على شفته السفلى ان « دع هذا الآن »

الفصل الثاني عشر

القصر الزاهر

وما زالا يتصلان من بستان الى بستان ومن حديقة قصر الى حديقة قصر آخر وقد سبقا الموكب حتى اطلا على القصر الزاهر . وهو من أجمل أبنية القصر الكبير فانتبه سعيد على الخصوص لواجهته فرأى عليها نقوشاً كالوشم على المعصم في أشكال جميلة بين أقواس منحوتة باشكال هندسية عربية تتخللها الابواب في الاسفل وهي في غاية ما يكون من اتقان النقش . ويزينها في الطبقة العليا النوافذ والاحنية والقناطر كالرواق القائم على أساطين الرخام وعلى تيجانها نقوش وكتابة وفوق التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفها مربعات متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفراً او تصويراً . وعلى افاريز الشبابيك أبيات من الشعر مذهبة والافاريز من الشكل المقرنص . وتنتهي تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش في غاية الجمال . وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع على أشكال هندسية في أجمل زينة

لم يستطع سعيد التفرس في ذلك البناء طويلا لما رآه ببابه من الحرس وقوفاً وهم من خاصة الفتيان الاكابر والمقدمين . عليهم الالبسة القصب

وعلى أكتافهم الظهائر المذهبة وعلى رؤوسهم القلانس الهرمية الشكل تزينها الطراز المذهب وقد تقلدوا السيوف المذهبة وهم نخبة الرجال قامة وجمالا وهيبة مما يستوقف الابصار . فهيب سعيد من تلك العظمة ولم يكن يتصور ابهة الملك تبلغ الى هذا الحد فقال في نفسه كيف يكون البهو الداخلي الذي أعدوه لاستقبال الرسل . ولم يستطع دخول القصر الا بعد ان رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر وتحققوا انه من حاشية الامير عبد الله وصنيعة الحكم فدخل وتبعه سعيد فمشيا في طرقات بين الاشجار مفروشة بالازهار والرياحين حتى أتيا الباب الخارجي وقد فرش من عتبته الى الدهليز وصحن الدار وهو البهو الخارجي بعتاق البسط وكرائم الدرانك وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور

وصعدا من ذلك الصحن على بضع درجات من الرخام المذهب الى بهو واسع قد نقش سقفه وافاريزه بالذهب والالوان الزاهية اكثرها الاحمر والازرق والاصفر . وقد جللت جدرانه بالديباج وفرشت أرضه بالسجاد الثمين ونصبت المقاعد والكراسي في جوانب البهو على حسب الرتب والمناصب

وفي صدر البهو سرير الخليفة من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت فوقه قبة فيها نقوش وأبيات على أبدع تصوير . وقد فاحت رائحة العنبر من مبخرة مذهبة نصبت في بعض جوانب البهو . ولم يؤذن بدخولهما هذا المجلس لان الخليفة لم يكن قد وصل بعد . فوقفا حائرين وسعيد يتأمل كل شيء ويعمل فكرته في كل شيء . ثم لاحت منه التفاتة فرأى ياسراً ينظر اليه فاشار سعيد انه يريد الدخول فتقدم ياسر وقال له « لا يجوز الدخول قبل قدوم الخليفة ولكن لا بأس من دخولكما خلسة من باب سري تجلسان في مكان لا ضرر منه وتريان الناس عند دخولهم ومتى انتظم عقد المجلوس تجلسان في هذا المكان مع جماعة الفقهاء » واشار الى المكان

فسرّ سعيد لهذه الفرصة ودخل ومعه ابن عبد البر حتى وقفا وراء بعض الاساطين في آخر البهو بحيث يريان كل قادم ولا يراهما أحد

ولم تمض هنيهة حتى سمعا لغطاً ورأيا الخصيان في حركة فعلم ابن عبد البر ان الناصر قادم فتهيب وبانت الدهشة في وجهه . فادرك سعيد ذلك فالتفت اليه وقال « اظن مولانا امير المؤمنين قادماً »

فاشار الفقيه برأسه ان « نعم »

ثم رأياه مقبلا وقد تزيا بزي الخلفاء فنظر سعيد الى الفقيه كانه يستفهمه فقال له بصوت خافت « لو دخلت على أمير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت لباسه يختلف عنه الآن ولم تر هذا القضيب بيده فانه قضيب الخلافة ولم يكن خليفة الا منذ بضع عشرة سنة . ولذلك رأيته الآن يلبس العمامة المرصعة بالجوهر ويحمل القضيب بيده . وهذه بردته مثل بردة سائر الخلفاء لكنه جعلها بيضاء تشبهاً بلباس أقربائه بني امية بالشام . وترى تحت البردة قباء من الوشي وهو لباس الامويين في أيام دولتهم بالشام »

كان الفقيه يتكلم بصوت منخفض يحاذر أن يسمعه أحد لخلو القاعة من الناس وهدوّ المكان وسعيد شاخص ببصره الى الناصر يتبين ملامحه ويستطلع فراسته فرآه ابيض اللون مشرباً حمرة أزرق العينين وفي محياه هيبة وقوة وقد مشى وبيده قضيب الخلافة والجلال يتجلى في جبينه والذكاء ينبعث من عينيه وقد وخطه الشيب . وشغل سعيد على الخصوص بما على عمامته من الجواهر والتفت نحو الفقيه فرآه يبالغ في الانزواء خوفاً من وقوع بصر الخليفة عليه فقال له « ان امير المؤمنين فوق ما كنت أتصور ويظهر لي مع كون والدته امة نصرانية ان هيبة الخلفاء لم تنقص شيئاً »

الفصل الثالث عشر

استقبال الرسل

فقال الفقيه « لا أظنك تجهل ان أكثر الخلفاء في الدولتين الاموية والعباسية امهاتهم من الآماء وبعضهن من الجواري أما أم مولانا فهي نصرانية جميلة وكان اسمها مرية » (١)

وفي أثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير في صدر البهو فوق عرش مرتفع ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون أوامره وعليهم البسة تأخذ بالبصر لما فيها من الطراز المذهب والالوان الزاهية . وسعيد لا يرفع بصره عن الناصر وقد همه أمره كثيراً

فرآه ينظر الى باب البهو ويبتسم ويشير برأسه مرحباً فالتفت سعيد فرأى الحكم ولي العهد داخلا في لباس فاخر ونضارة الشباب تتجلى في وجهه وقد فاحت منه رائحة المسك ومن يره يعرف انه ولي العهد لانه كان يلبس القلنسوة الخاصة بذلك . فلما اقترب من أبيه ناداه اليه وأجلسه الى يمينه وهو يبتسم له

ثم دخل ابنه الثاني الامير عبد الله وكان البهو قد تكاثر فيه الناس فلم يعد الفقيه يخشى أن يسمع صوته فلما دخل الامير عبد الله استلفت نظر سعيد اليه وقال « هذا مولانا الامير عبد الله كيف تراه ؟ »

قال سعيد « أراه أحسنهم جميعاً . . . اني أرى التقوى ظاهرة في وجهه وأظنهم لو خيروه في اللباس لاختار الجبة والعمامة الساذجة وكان في غنى عن هذه الملابس الفاخرة بما يزينه من الخلال الحميدة »

فقال الفقيه « لقد أصبت بفراستك كبد الحقيقة ان الامير عبد الله يفعل ذلك في منزله فانه من الزهد والتقوى على جانب عظيم حتى تكاد لا تجد عنده من الخصيان أحداً وهو على غير رأي والده من هذا

(١) كوندي - رواه رومي ج ٤

القبيل ولذلك سموه الزاهد . وله شعر حسن . . [١] »

فقطع سعيد كلامه قائلا « هذا هو الرجل المطلوب . . انه اذا تولى الخلافة أعادها الى رونقها ونقاها من الادران الخارجية »

فهمس الفقيه في اذنه « دعنا من هذا الآن »

وجاء بعد عبد الله اخوته عبد العزيز فالاصبغ فمروان . ثم أشار الخليفة الى الخصيان الاكابر الموكلين باستقبال الناس وادخالهم الى مجالسهم وفي جملتهم ياسر أن يدخلوا سائر بني مروان فدخل المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان فجلسوا عن يسار الخليفة . ثم دخل الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا . وأخيراً دخل الفقهاء فاندس ابن عبد البر وسعيد في جملتهم وجلسوا في أماكنهم المعدة لهم

ودخل الشعراء فاقاموا في مصافهم . واصطف الحجاب من أهل الجندية من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم وقوفاً في أطراف البهو وراء جدار قصير يفصل البهو عن شبه الرواق حوله . فكان من ذلك منظر يهيب له الشجاع وقد زاده هيبة سكوت الناس حتى الخليفة وأولاده

وجاء ياسر بعد قليل فوقف بحيث يعلم الخليفة اذا وقف هناك ان عنده أمراً يريد عرضه عليه فاستقدمه فأخبره « ان الرسل في البهو الخارجي هل يأمر بادخالهم » فقال « ادخلهم »

فعاد وقد علم الحضور أن الرسل قادمون فاتجهت الابصار نحو الباب واذا بياسر عاد ثم تنحى فتقدم الرسل خاشعين وهم بضعة عليهم رئيس منهم وقد لبسوا لباس كبار الروم فتقدم الرئيس وكان عليه القلنسوة والبرنس فخلعهما قبل دخوله فتناولها بعض الخدم . وفعل مثل ذلك رفاقه من الرسل

فمشوا أولا بين صفين من الجند في البهو الخارجي حتى انتهوا الى

(١) المقري ج ٢

البهو الداخلي فلما وقع بصرهم على سرير الخليفة خروا سجداً سويعة ثم نهضوا ومشوا بضع خطوات وعادوا الى السجود . ففعلوا ذلك مراراً الا رجلا منهم كان في آخرهم يحمل جبة من الديباج على كفيه باحترام فاكتفى باخفاء رأسه ولما دنوا من سرير الخليفة تنحى الوفد الا رئيسه تقدم وهوى على يد الخليفة يقبلها فامتنع الناصر من ذلك وأشار اليه أن يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج مصوغة بالذهب أعدت لهم على نحو عشرة أذرع من السرير [1] فجلسوا الا حامل الجبة

الفصل الرابع عشر

الهدية

وبعد هنيهة أذن لهم الخليفة بالكلام وكان يخاطبهم على يد التراجمة. فنهض رئيس الوفد وتقدم الى السرير باحترام وقدم للخليفة تلك الجبة بعد أن تناولها من حاملها . فأشار الخليفة الى من يفتحها ففتحها أحد الخصيان فوجد داخلها درجاً من الفضة عليه غطاء من الذهب قد نقشت فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . ففتح الدرج فوجد فيه كتاباً من ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الاغريقي (اليوناني) هو كتاب صاحب القسطنطينية قسطنطين بن ليون اليه . وداخل هذا الكتاب مدرجة (رسالة) مصبوغة أيضاً ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني [2]

فتناول الخليفة الكتابين وأخذ يقلب فيهما فوجد على الكتاب الاول طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وأما المدرجة ففيها وصف هدية قسطنطين للخليفة الناصر التي كان أرسلها مع الوفد وعددها [3]

---

(١) المقري ج ١ (٢) المقري ج ١ (٣) المقري ج ٢

وكانت أنظار الجلوس متجهة الى ما يتضمنه ذلك الكتاب فاشار الخليفة الى من يترجمه فقرأوا العنوان على ظاهره ما ترجمته « قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » في سطر ثم « العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه » في سطر آخر . فامر الخليفة من يتولى الاحتفاظ بالكتاب ويستلم الهدية ولكنه أحب أن يعرف مفردات الهدية فاستوقف انتباهه منها اسم كتاب فرح به أكثر من سائر الهدية . وهو كتاب الحشائش تأليف ديسقوريدس العالم النباتي المشهور . فامر الخليفة باحضار الكتاب لتقليبه والنظر فيه فأتوه به . فاذا هو مكتوب بالخط الاغريقي وقد صورت فيه الحشائش كلها بالتصوير الرومي العجيب . وجاء مع هذا الكتاب أيضاً كتاب هروشيوس صاحب القصص وهو تاريخ للروم فيه أخبار الدهور وقصص الملوك باللغة اللاتينية وكان في جملة ما كتبه اليه [1] « ان كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الادوية فان كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللاتينيين من يقرأه باللسان اللاتيني . وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللاتيني الى اللسان العربي »

فلما اطلع الناصر على ذلك الكتاب انبسطت نفسه وسر سروراً كثيراً بتلك الهدية واعتز بسلطته وجلالة قدره . وكان سعيد في أثناء اشتغال الخليفة بمشاهدة الهدية يحادث جاره الفقيه . ولما كاد الخليفة يفرغ من مشاهدة الهدية آنس سعيد اضطراباً على وجه الفقيه فعلم انه يتهيب من الوقوف للخطابة وهمّ بسؤاله فسبقه الفقيه الى السؤال قائلا « ها نحن في المجلس ولا يلبث الخليفة أن يدعوني للخطاب فما رأيك هل أنجح ؟ استطلع لي الطالع » فاستخرج سعيد الكتاب من جيبه خلسة وفتحه وأخذ يقلب فيه وينظر الى الحضور حوله ويعيد النظر في الكتاب وابن

(١) طبقات الاطباء ج ٢

عبد البر ينتظر ما يقوله . ولما طال سكوته شغل باله وارتبك في أمره مخافة أن يسمع ما يحزنه . وهو في ذلك الاضطراب سمع صوتاً يناديه من صدر البهو عرف أنه صوت الحكم ولي العهد يقول « يسمعنا الفقيه محمد ابن عبد البر الكسيباني كلمة في وصف هذا المجلس الحافل »

وكان الخليفة هو الذي طلب الى ولي العهد أن يختار من يرى من الفقهاء أهلا للخطابة قبل أن يتقدم الشعراء للنشيد فاختار ابن عبد البر لانه كان صنيعته وكان يدعي القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره — فلما سمع ابن عبد البر ذلك النداء اجفل وزاد ارتباكه وذهب الخطاب من خاطره لكنه وقف وقد امتقع لونه وأخذت لحيته ترقص في وجهه وشفتاه ترتجفان وزادته أبهة المقام وجلالاً فارتج عليه ولم يهتد الى كلمة يقولها . فغلبه الخجل والقنوط فأغمي عليه وسقط الى الارض فاشتغل سعيد بايقاظه والاهتمام بأمره حتى أفاق فأجلسه وأخذ يخفف عنه

ونهض في أثناء ذلك اسماعيل القالي صاحب الامالي وكان حاضراً فخطب وخطب أيضاً منذر بن سعيد أحد الفقهاء فأجاد كثيراً وآل ذلك الى توليه القضاء بعد حين . ثم أنشد الشعراء قصائدهم الى أن انقضى الاحتفال وتفرق الناس ومضى كل منهم الى سبيله

الفصل الخامس عشر

تغيير

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه في أسفه الى أن قال له « والله اني كنت خائفاً هذا الفشل من قبل ولذلك رأيتني ارتبكت في الجواب لما سألتني عن الطالع »

فقال « لا أدري ما الذي أنساني الخطاب كأني لم أخط منه حرفاً ولعلّ ذلك من سوء الطالع — أظن وجود القالي أفسد عليّ طالعي »

قال « لا بل هو منذر بن سعيد . . يا لله انما الدنيا حظوظ وطوالع. أيرتج على الفقيه ابن عبد البر ويفلح المنذر بن سعيد ! . . » قال ذلك بنغمة الاسف وهز رأسه وعمد أن يتمم غرضه فأظهر أسفه الشديد على ما اتفق لابن عبد البر وقال « والامر الذي ساءني على الخصوص . . » وسكت

فابتدره الفقيه قائلا « لا بد أن يكون ساءك ارتباكي مع اعتقادك الاكيد أني قادر على الكلام وقد سمعت خطابي وأعجبت به »

فقطع سعيد كلامه قائلا « ان ارتباكك ساءني طبعاً ولكن هناك أمراً آخر كدرني . . دعنا من ذلك الآن »

فازداد الرجل رغبة في الاستطلاع فقال « وما ذلك ؟ . . قل »

قال « ساءني أني سمعت ولي العهد . . . ولكن أخاف أن أكون مخطئاً . . »

فقال « لا لا . . قل ما سمعته . . »

قال « أظنني سمعته يقول لما رآك وقمت مغشياً عليك ووقف منذر ابن سعيد وخطب ما خطبه — سمعت ولي العهد يقول « هذا صاحبها والاولى بها وليس الكسيباني . فلا ادري ماذا يعني »

فقال الفقيه « ألا تدري وأنت تستطلع الغيب ؟ . . أظنك تخاف تكديري . . . قل ولا تخف »

قال « أظنه يعني منصة القضاء »

قال « قد أصبت وسينال هذا المنصب المنذر بورك له فيه . . »

فقال سعيد وهو يضحك قائلا « لك أسوة بالامير عبد الله العالم الزاهد . ألم تكن الخلافة أولى به . . »

فأحس ابن عبد البر من تلك الساعة بنقمة على الحكم رغم ما كان غارقاً فيه من نعمه . فان فشله وفوز زميله منذر بن سعيد هاج حسده وأعماه عن الحقيقة وزاده اغتراراً بنفسه فنسب سقوطه الى تصادم الطوالع وكان لقول سعيد تأثير كبير على اعتقاده فتوهم أنه مظلوم وان الحكم هو

السبب في ظلمه فأحس بالنقمة ضده ولم يكن سعيد غافلا عما جال في خاطر الفقيه وهو الذي أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحسد فيه من منذر والنقمة على الحكم . فلما لمح الى أفضلية عبد الله في نيل الخلافة على أخيه الحكم نظر الى الفقيه فرأى في ملامحه قبولا للاقتناع ولكن الخوف يمنعه من التصريح فابتدره قائلا بصوت ضعيف لئلا يسمعه أحد سواه « لعلي تطوحت في قولي الى أبعد مما يجوز لي . . . ولكنني قلت ذلك مدفوعاً بالانتصار للحق . . . وأنا وراق أبيع الكتب وأعرف ما يقتنيه ولي العهد منها ولكن ما لي وله » قال ذلك وأظهر أنه يريد الافتراق عنه

فتوسم ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئاً يهمه الاطلاع عليه فعمد الى استخراج ذلك السر من سعيد ويزعم أنه يفعل ذلك بمهارة ودهاء فقال « مهما يكن من اطلاعك على ذلك فاني اعلم منك به وأنا كما تعلم قد عاشرت الحكم طويلا »

قال « مهما عاشرته فانك لا تعرف عنه ما أعرفه انا فانه يستحي ان يعرف الناس وخصوصاً الفقهاء انه يطالع الفلسفة فتقل ثقتهم بدينه »

فبغت الفقيه وقال « يطالع كتب الفلاسفة ؟ . نعوذ بالله من خليفة فيلسوف . ان الخلفاء يقاومون الفلاسفة ويضطهدونهم خوفاً على عقائد الناس فكيف يكون الخليفة نفسه من اهلها »

فتجاهل سعيد عن مقدار ما أثره من ذلك الخبر في الفقيه وأظهر انه قد آن له ان يفارقه . وكان الفقيه اكثر رغبة في الافتراق لخاطر خطر له يريد ان يسعى فيه

وكانا قد خرجا من القصر حتى أتيا باب السطح حيث تركا البغلتين فقال الفقيه « سنفترق الآن . . . لا تزعل يا صاحبي ان الزمان يدور وسوف يعلم الحكم وأبوه . . . » وسكت وتظاهر سعيد . بالتجاهل وقال « متى آتي بكتاب العقد الفريد الى الامير عبد الله ؟ »

قال « بعد يومين هل تعرف منزله ؟ »

قال « أين هو »

قال « في قصر مروان خارج قرطبة بالارباض »

قال « أعرفه . . استودعك الله . . لا تزعل يا فقيه . . . »

قال « سنتكلم بعدئذ . . . لا تنس أن تجلب عابدة معك لاني كلمت الامير بشأنها وهو يحب أن يراها »

قال « سمعاً وطاعة » وركب بغلته وذهب يطلب منزله

الفصل السادس عشر

الفقيه في طريقه

فارق الفقيه ابن عبد البر سعيداً وهو يتمنى لو طال الحديث بينهما في مسألة الامير عبد الله لانه رأى في الطعن على الحكم وأبيه شفاء لما تولاه من الخجل في تلك الحفلة . وهو من تربيته الدينية ميال الى التعصب للتقاليد القديمة ورفض كل جديد فرأى في انتقاد الناصر لاقتنائه الخصيان والتوسع في البذخ والترف باباً للنقمة عليه . ولكنه كان غضباً على الحكم فلما سمع ما قاله سعيد من حبه الفلسفة حلل لنفسه الطعن فيه . ولم يشأ أن يثبت الخبر مخافة أن يكون كاذباً فيضعف الباعث على الطعن وهو يبحث عما يقويه

قضى معظم الطريق الى بيته في أمثال هذه الهواجس وهو لا ينتبه للبغلة كيف تسير ولا الى رأسها أين يتجه . ولولا الخادم الذي كان يديرها أو يزجرها أو ينبه المارة لمسيرها امرت أو تاهت . وخصوصاً على الجسر لانه كان غاصاً بالراجين بعد انقضاء الاحتفال . ولما قطع الجسر قل الازدحام . وما زال راكباً حتى اقترب من قصر مروان وهو منزل الامير عبد الله ولم ينتبه الا وهو بالقرب منه فاستوقف الدابة وأشار الى السائس أن يحوّل زمامها نحو منزله لعلمه أن عبد الله لم يعد الى قصره بعد لاشتغاله بالحديث مع أبيه أو أخيه . وهو مع ذلك يخجل أن يقابله

ساق البغلة الى بيته وهو على مقربة من قصر مروان فترجل ودخل غرفة نزع فيها فراجيته واتكأ الاستراحة فجاء الخادم يدعوه الى المائدة فتذكر أنه جائع فنهض فأكل وعاد الى مجلسه وأومأ الى الخادم أن لا يدخل عليه أحداً التماساً للراحة وهو بالحقيقة يطلب الانفراد خجلا من الناس بسبب فشله في الخطاب حتى تصور الناس كلهم عيوناً تتغامز عليه أو تهزأ به لتلجلجه أو تلعثم لسانه . وأصبح اذا رأى الخصي ابطأ بتنفيذ أمره توهم أنه يفعل ذلك احتقاراً له بسبب ذلك الفشل — وما ذلك الا من ضعف النفس أو الجبن . ولو كان قوي النفس لم يبال بفشل قد يصيب كل انسان ولكان له من مظاهره بمواهبه الاخرى ما يذهب بدهشة ذلك الفشل . أما هو فانه أعظم ذلك عند نفسه ولو اطلع الآخرون على ما في ضميره لاستصغروه

تناول الطعام وهو منقبض النفس فسر هضمه فزاده ذلك تلبكا في أفكاره وتعظيما لمصيبته . فلما خلا بنفسه اخذ يفكر في ما يشفي غليله ويبرره بين يدي الامير عبد الله وهو ما انفك منذ انضم اليه يفتخر بفصاحته وقوة عارضته فكيف يظهر منه هذا الضعف ؟ فلم يجد خيراً من ان يجعل السبب ارتباكاً طرأ عليه لشيء شاهده في تلك الجلسة ويشرك عبد الله معه في المصيبة ويجره الى مشاركته في الانتقام . ولما خطر له هذا الفكر انبسطت نفسه . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فنهض ولبس ثيابه وصفق فجاءه الخصي . فأمره ان يسرج البغلة فأسرجها فركب وسار يطلب قصر مروان منزل الامير عبد الله

كان هذا الامير شابا في مقتبل العمر قد تثقف كما تثقف سائر اولاد الناصر وشب على حب العلم والادب مع تقوى وتدين اصم . لم يكن حر الفكر مثل اخيه الحكم ولذلك فانه لم يكن يستدني غير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر في غير علوم الدين ولم يكن يقتني غير كتب الادب والدين . ولو فتشت مكتبته كلها ما وجدت فيها ورقة في الفلسفة او المنطق او الطب او غيرها من كتب الطبيعيات . واما اخوه الحكم فربما وجدت

كتباً في هذه المواضيع لكنه لم يكن يظهرها مجاراة للعامة في اميالهم

وكان الامير عبد الله صادق الطوية بغير دهاء او تعقل . ونظراً لتقواه وتدينه فكل من يأتيه من جهة الدين يغلبه او يتسلط على افكاره . ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقربهم وخصوصاً ابن عبد البر لما سبق الى ذهنه من سعة علمه ومقدرته على حل المشاكل — ليس لدليل محسوس وانما اعتقد بناء على دعوى الفقيه لنفسه

الفصل السابع عشر

الامير عبد الله

ولم يكن قصر مروان بعيداً عن منزل ابن عبد البر وكان يمكنه أن يأتيه ماشياً ولكنه أحب المحافظة على مظاهر الابهة بركوب البغال لئلا يقول قائل ان فشله في ذلك اليوم حط من قدره او اذله . ولولا ذلك الفشل لذهب الى منزل الامير ماشياً ولم يبال لوثوقه باحترام الناس له . وأما فشله اليوم فقد صغر نفسه فاصبح يخاف العار من اقل الامور

وصل ابن عبد البر الى باب حديقة القصر وحالما رآه البواب نهض وفتح له الباب فدخل على بغلته الى الحديقة والسايس يمشي في اثره . حتى اذا اقترب من باب القصر تقدم الحاجب — وهو خصي جميل الصورة أصله من خصيان الزهراء جارية الناصر أهدته الى الامير عبد الله فأعجب به وجعله كالحاجب او المباشر . وقربه لما آنسه من لطفه وخفة روحه . واسمه (ساهر) فلما رأى ابن عبد البر مقبلا أسرع اليه وساعده في الترجل عن بغلته وهو يرحب به . فسأله عن الامير عبد الله

فقال « هو في مكتبته يطالع »

فطلب منه ان ينبئه بقدومه فقال « ليس على الفقيه حجاب »

فاستأنس ابن عبد البر ومشى في أثره حتى دخل القاعة وهي مفروشة بالطنافس والمساند فجلس وخرج ساهر ليعلم مولاه بقدوم الفقيه . ومكث هذا والهواجس تتقاذفه في ما سيراه في وجه الامير من التغير . ولم تمض لحظة حتى أقبل الامير عبد الله وبيده كتاب يظهر من نظافة أطرافه انه كتب من عهد قريب فوقف الفقيه وتأدب في السلام . فلم يجد في وجه الامير تغيراً وانبسطت نفسه وأقبل يتخير عبارات اللطف يغطي بها فشله وعبد الله يساره حتى جلس الى جانبه والكتاب لا يزال في يده

فقال ابن عبد البر « أرى في يد الامير كتاباً جديداً »

قال « نعم هو كتاب جديد ومؤلفه حي يرزق »

فنظر الفقيه في ظاهر الكتاب وقال « لا اذكر اني رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاي قبل الآن »

قال « لانه أتاني في هذه الساعة »

قال « في هذه الساعة من أين ؟ »

قال « بعث به اليّ أخي الحكم ولي العهد . وكان قد خاطبني بشأنه ونحن في البهو اليوم »

فلما سمع اسم الحكم والبهو تذكر أشياء كثيرة وكاد يظهر التأثر في وجهه لكنه تجلد وقال « يقول مولاي ان مؤلفه حي »

قال « نعم وهو الان في قرطبة وقد شاهدته في هذا الصباح وسمعت خطابه »

فانتبه الفقيه وقال « اظنه كتاب الامالي لاسماعيل بن القاسم القالي فقد علمت انه ألف هذا الكتاب لمولانا ولي العهد وطاف البلاد في البحث والتنقيب من اجله . . كتاب نفيس »

قال « نعم هو بعينه وقد قدمه لاخي فذكره لي في صباح هذا اليوم وارسله اليّ لاطالعه واذا اعجبني كلفت احد الوراقين بنسخه »

فاطرق الفقيه حيناً وهو يتأمل ثم قال « ولماذا لم يقدمه القالي للامير عبد الله ؟ وهو يعرف قدر العلم »

فضحك عبد الله وقال « لا أدري . . . وهل تزعم ان اخي لا يعرف قدر العلم ؟ »

فاجاب وهو يهز كتفيه « هو يعرف كل شيء طبعاً ولولا ذلك لم يجعله أبوه ولي العهد » وظهر من ملامح وجهه أنه يضمر شيئاً آخر

فقال عبد الله بسذاجة وصدق نية « ربما كان هذا من أسباب ولاية العهد . ولكن الولاية آلت اليه لانه اكبر اخوته »

فقال الفقيه « ليس الكبر شرطاً من شروط الولاية فان الخليفة يجب ان يلتفت في من يوليه بعده ان يكون اهلاً للحكومة وتكون شروط الخلافة متوفرة فيه . . . ولذلك رأينا كثيرين من الخلفاء عدلوا عن اكبر اولادهم الى من هم دونهم في السن أو بايعوا غير ابنائهم رغبة في مصلحة المسلمين »

الفصل الثامن عشر

الوشاية

فتوسم عبد الله في ذلك الكلام خروجاً عن المألوف سماعه من هذا الفقيه . ولكنه كان حسن الظن فيه فقال « لم يعدل الخلفاء عن اكبر اولادهم الى سواهم الا لاسباب تخالف شروط الخلافة »

قال « هل يذكر مولاي الامير شروط الخلافة ؟ »

قال « اعرف لها عشرة شروط »

قال « هل وجدت بينها ان يكون الخليفة اكبر اخوته ؟ »

قال كلاً . . ولا ان يكون ابن الخليفة السابق . فاذا عملنا بذلك وجب اختيار ولي العهد من جمهور المسلمين . وانما هي قواعد اصطلح

عليها الخلفاء بعد جعل الاسلام ملكا عضوداً »

قال الفقيه « ما لنا ولهذا دعنا منه وقل لي انا شئت ما هي اهم شروط الخلافة واولها »

قال « اولها حفظ الدين على أصوله المستقرة وما اجمع عليه سلف الامة فان ظهر مبتدع او زاغ ذو شبهة عنه اوضح له الحجة وبين له الصواب واخذه بما يلزم من الحقوق (١) »

قال الفقيه « يكفي هـذا الشرط . . فهل هو متوفر في مولانا ولي العهد ؟ »

فاستغرب عبد الله سؤاله وقال « كيف لا . . دعنا من هذا البحث الآن »

قال « دعنا منه اذا شئت وذلك الامر يا سيدي . ولكنني لم يعد يمكنني كتمان ما في نفسي من الغيظ . . بعد ان كتمته اعواماً . . »

فتفرس عبد الله في وجهه فرأى الجد فيه فقال « وما ذاك ؟ »

قال « أقول ما في نفسي ؟ »

قال « قل . . لا بأس عليك »

قال « ما برحت منذ أسندت ولاية العهد الى مولانا الحكم وانا اقول في سرّي لماذا لا تكون لسيدي الامير عبد الله لعلمي ان شروط الخلافة اوفر فيك مما فيه . . ينبغي لسيدي أن يعتقد صدق نيتي في خدمة المسلمين . ولا يخفى عليك اني صنيعة مولاي الحكم وانا اعرف الناس به . وقد خدمت مولاي الامير أيضاً واطلعت على الحقيقة في الاميرين . . فكنت كلما خطر لي هذا الخاطر اشعر بانقباض وانا اكتم ذلك عن مولاى . واما الآن فلا أجد بدّاً من التصريح بعد ان كدت افتضح او افتضحت في ذلك الموقف بالامس . . فلم استطع كلمة اقولها ولا أظن الامير ينسب ذلك الى جهلي فما هـذه اول مرة وقفت فيها خطيباً كما تعلم . ولكنني اعترف لك اني لما شاهدت مجلس امير المؤمنين

(١) الاحكام السلطانية

وابنائه الى جانبيه ورأيت تميز الحكم بالولاية والشارة والمجلس مع علمي بفضل الامير عبد الله وما ترجوه الامة على يده لم املك عن الغضب وانقبضت نفسي وشغل خاطري حتى أضعت رشدي . فلما طلب اليّ الكلام لم استطعه كما رأيت » قال ذلك وقد بدا الاهتمام في محياه وعينيه وتندى جبينه بالعرق

فلما سمع عبد الله كلامه اعتقد اخلاصه لكنه لم يقتنع بانتقاده فقال « اراك تقول ما تقوله من غضبك لنفسك فلا ينبغي لك ان تجعل ذلك ذريعة للطعن على ولي العهد . ولولا اعتقادي صدق طويتك لم اصبر على سماع كلامك ـ ان الحكم اجدر مني بهذا المنصب من كل وجه انه اكبر مني سناً واوسع علماً واكثر دراية

فخاف الفقيه عاقبة تصريحه وكاد يغلب على امره بين يدي عبد الله فعمد الى التخلص فقال « قد اسأت فهم مرادي يا سيدي فما انا طاعن على ولي العهد ولكنني اقول ما اعرفه . ومع ذلك فانت صاحب الرأي وكنت أحسبك تعتبر صدق نيتي في خدمة المسلمين . . انت أعلم مني بما صارت اليه الخلافة من الانغماس بالترف والانحراف عن خطة الخلفاء الراشدين . ألم تر ما يأتيه امير المؤمنين من تقديم الخصيان دون سواهم حتى كادت السلطة تأول الى غير اهلها ـ لا اخاف ان يقع ذلك في زمن الناصر لعقله وتنواه ولكنني أخاف منه في ايام الحكم وهو لا يبالي . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال « دع هذا الحديث ايها الفقيه وحدثنا بما يفيد ـ اني أراك قد تطاولت في طعنك الى والدنا الناصر صاحب هذه الدولة وهو الذي أقام بنيانها وكبت الكفار وغلب الاعداء ونصر الدين »

فابتدرة الفقيه قائلا « حاشا لله أن أنكر ذلك عليه وانما انا اخاف ممن يخلفه ـ ألا تخاف على الاسلام اذا كان خليفته يقرأ كتب الفلسفة ؟ »

فصاح عبد الله « كتب الفلسفة . ؟ تعني ان أخي يقرأ هذه الكتب . . ؟ معاذ الله . . واذا فرض انه يقرأها فما علينا الا النصيحة له ان يتركها »

فابتسم ابتسامة اغتصابية وقال « نتصحه . . . هل تظنه يقبل النصح ؟ فلنتركهُ عساه يهتدي »

وشعر الفقيه انه فشل بوشايته ولم يجد في نفسه قوة على الاقناع . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق واقبل الظلام . ولم يشعر الفقيه بذلك الا لما رأى احد الخدم دخل وبيده مسرجة اضاء مسراجها ووضعها على دكة في بعض جوانب القاعة . فتذكر الفقيه سعيداً الوراق وما سمعه من تعريضه بالامر الذي باحث الامير عبد الله به فاجل الخوض في الموضوع ريثما يأتي وكان على موعد من مجيئه في تلك الليلة

الفصل التاسع عشر

سعيد وعبد الله

وهما في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب يا سيدي ؟ »

فالتفت عبد الله الى الفقيه كأنه يستفهمه عن سبب مجيئه فقال الفقيه « أظنه قادماً بالكتاب الذي أخبرت مولاي عنه »

فقطع عبد الله كلامه قائلا « العقد الفريد . مرحباً بكل قادم علينا بمثل هذه التحف »

فخرج الحاجب ثم عاد ورفع الستارة عن الباب حتى دخل سعيد وقد ابرقت عيناه وتجلت الهيبة في محياه فحيا ووقف . فدعاه عبد الله الى الجلوس فجلس على وسادة وهو لا يحمل شيئاً . . »

فقال عبد الله « انت سعيد الوراق . . أظنني رأيتك قبل الآن . . مرحباً بقدومك . اين العقد الفريد ؟ »

قال « هو خارجاً يا سيدي . هل أدخل به عليك؟ »

قال « كيف لا »

فنهض وعاد والكتاب في يده ملفوفاً بعلامة من الحرير فوضعه على وسادة بين يدي الامير عبد الله فأخذ يقلب فيه ويتأمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابته وسعيد صامت

ثم قال عبد الله « انه خط جميل . . »

فقال الفقيه « ألم أقل لمولاي انه خط فتاة ؟ »

فالتفت عبد الله الى سعيد كأنه يستشهده فقال « نعم يا سيدي وقد رآها الفقيه بعينه وسمع كلامها »

فقطع الفقيه كلامه وقال « ألم أقل لك أن تأتي بها معك الليلة ليراها مولانا الامير . أين هي ؟ »

قال « قد اتيت بها وهي في دار الجواري »

قال عبدالله « سنستقدمها بعد قليل . . . هل جاءك كتب جديدة غير هذا ؟ »

قال « سمعت بكتاب لا يزال صاحبه يعمل في تأليفه وهو أحسن كتب الادب على الاجمال لانه يغني عنها جميعاً »

فتطاول عبد الله عند ذلك وقال « اظنك تعني كتاب الامالي للقالي » وتناوله من جانبه وقدمه اليه ليراه

فأخذه سعيد وفتح أول صفحة منه فوجد عليها علامة الحكم فقال « هذا لمولاي ولي العهد . . قد علمت ان الامام أبا علي اسماعيل القالي ألفه له . . بالحقيقة ان مولانا الحكم يبذل الاموال في اقتناء الكتب ويرغب اهلها في التأليف »

فأحس عبد الله بغيرة من هذا الاطراء وقال « هل هذا هو الكتاب الذي أشرت اليه الآن ؟ »

قال « كلا يا سيدي »

قال « وأي كتاب هو ؟ »

فتظاهر سعيد بالتردد وقال « كتاب آخر اهم من هذا ربما زاد على خمسة اضعافه . . »

قال « وما اسمه او ما اسم مؤلفه ؟ »

فنظر سعيد الى الفقيه كأنه يوسطه في استعفاء الامير من ذكر اسم الكتاب . ولم يكن الفقيه عالماً بشيء من ذلك فظهر الاستغراب فيه . فلمّ عبد الله الانتظار فقال « ما بالك يا صاحب ؟ أعلك ندمت على كلامك ؟ »

فاظهر التلطف والاستعطاف وقال « نعم ندمت وكان ينبغي لي ان احفظ ما اؤتمنت عليه سراً ولكن لساني سبقني »

فازداد عبد الله رغبة في معرفة ذلك السر وقد بان التغير في عينيه فسبقه الفقيه الى الكلام قائلا « تحفظ ذلك سراً عن مولانا الامير . . وممن تخاف افشاءه ؟ »

قال « اخاف ممن لا يفضله في الحكم غير امير المؤمنين »

ففهم عبد الله انه يعني أخاه ولي العهد فقال « اذا كان الامر يتعلق باخينا الحكم ما عليك اذا قلته من باب العلم بالشيء ؟ »

قال « يسمح لي مولاي الامير ان اقول كلمة »

قال « تفضل قل »

قال « ان الكتاب من كتب الادب ويليق بالامير عبد الله اكثر مما يليق باخيه ولي العهد لعلمي بأميال كل منهما الى اي صنف من الكتب . . »

فاستبشر الفقيه انه سيذكر ميله الى كتب الفلسفة فلما رآه سكت اتم كلامه من عند نفسه فقال « اظنك تعني ان الحكم يميل الى اقتناء كتب الفلسفة »

فعض سعيد على شفته السفلى واظهر انه استاء من تصريح الفقيه وتصدى للدفاع عن الحكم فقال « من قال لك ذلك ؟ . ربما اقتنى ولي العهد بعض كتب الفلسفة لكنه ارغب في كتب الادب والشعر واللغة . أليس هو الذي حمل القالي على جمع هذا الكتاب وهو من كتب اللغة . . وهذه مكتبته وفيها الوف من هذه الكتب . . . دعنا من هذا الآن »

فقال الامير عبد الله « لم أعد اصبر على كتمان اسم ذلك الكتاب

واسم مؤلفه بعد ما تقدم . . قل من هو ؟ » قال ذلك بلحن الامر

فاظهر سعيد انه يقول ذلك اذعاناً لامره وقال « ان الكتاب يا سيدي في الغناء واسمه الاغاني »

فقطع الامير كلامه قائلا « الاغاني للموصلي ؟ »

قال « كلا يا سيدي ان مؤلفه ابو الفرج الاصبهاني الاديب المشهور وهو من بني امية . . ان الكتاب لم يخرج للناس بعد ولكنني سمعت عنه شيئاً كثيراً واطلعت على بعض اوراقه في بغداد . . . ولكن لا فائدة لنا من القول فقد علمت ان مولانا ولي العهد بعث من يشتري الكتاب من مؤلفه واوصاه ان يبذل له ما شاء من الدنانير . . »

فالتفت الفقيه الى سعيد وقال « فاذا اراد مولانا الامير عبد الله اقتناءه من يمنعه ؟ »

قال « لا اعلم ولكني اعلم ان ولي العهد بعث من يشتريه ثم انا عرفت ذلك سراً وانما بحت به هنا صدفة واذعاناً للامير »

فتنحنح عبد الله ليشغل نفسه عما جال في خاطره من الغيرة على تقدم أخيه عليه حتى في الامور الادبية كاقتناء الكتب ونحوها وأخذ يقلب صفحات العقد الفريد بين يديه

فابتدره سعيد وهو يظهر انه يستجلب استغرابه فقال « هل رأيت أجمل من هذا الخط يا سيدي » واستأذنه في تناول الكتاب ففتح الفصل الاول منه وهو يبحث في ما يصحب السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال « أظن مولاي انتبه لهذه القاعدة من الخط انها خط ابي علي بن مقلة الكاتب الشهير في بغداد وقد توفي من بضع سنين (٣٢٨ هـ) »

فصاح عبد الله « ابن مقلة ؟ هذا خطه ؟ خطه بيده ؟ »

قال « كلا يا مولاي ولكن الجارية التي نسخته من مولدات بغداد وقد أخذت الخط عن ابن مقلة نفسه . . »

فجعل عبد الله يتفرس في الخط وسعيد يوجه نظره الى فقرة أخرى من ذلك الفصل وفيها حكاية قدوم عمر بن الخطاب الى الشام . وأخذ يظهر انه يقرأ هذه القطعة اعجاباً بخطها فقرأ منها « ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام . قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه . فلما قرب منه نزل اليه فاعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف اتعبت الرجل . فأقبل عليه عمر فقال يامعاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال ولمَ ذاك . قال لانا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان امرتني بذلك اقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت . فقال لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي اريب وان كان باطلاً فانها خدعة أديب » (١)

ثم قرأ بعده ببضعة عشر سطراً حكاية قدوم ابي موسى الاشعري على عمر بن الخطاب وفيها من المبالغة بالزهد والرغبة عن الملذات ما فيها فقرأ منها قول عمر «قل يا ربيع انا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . ثم امر أبا موسى أن يقرني وأن تستبدل بأصحابي

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات في اماكنها بحيث يتضح المعنى المراد . وكان عبد الله يسمع ويعتبر لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ ابيه ولحظ الفقيه ذلك فقال « لله در ابن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين فقد كان احدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية واذا كلم ادنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث به النبي صلوات الله عليه وسلامه (٢) اين هم واين الخلفاء بعدهم ؟ »

(١) العقد الفريد ج ١ (٢) الفخري

فقال سعيد « صدق الفقيه ان الجديرين بالخلافة قليلون وقد تغير الناس وتقلبت احوالهم بعد الراشدين فانغمسوا في الابهة والترف ولم يفعل ذلك احد منهم الا دل على قرب ذهاب دولته كما اصاب العباسيين في بغداد لا واخر دولتهم واخاف ان يتطرق ذلك الى هذه الدولة . والحق يقال لا ارى بين ابناء امير المؤمنين اقرب باخلاقه وتدينه من الراشدين غير مولانا الامير عبد الله فهو التقي الزاهد [1] . . لا اقول ذلك للفتنة وقانا الله منها فان الامر قد استتب الان لمولانا الحكم ولكنني أقول ما يخطر لي . . »

فنظر الفقيه الى عبد الله من طرف خفي واشار بعينيه كانه يستشهد بما قاله سعيد على صحة قوله

الفصل العشرون

عابدة

وخاف سعيد ان يقول الفقيه شيئاً يضجر منه عبد الله لانه كان لحدة ذهنه يكاد يستطلع ضمير مخاطبه فحوّل الحديث وقال « ما لنا ولهذا الآن . هل يأذن الامير بانصرافي ؟ »

فأظهر عبد الله الاستغراب وقال « انصرافك ؟ الى اين ؟ . اين هي الجارية التي ذكرتها ؟ . هل هي جاريتك ؟ »

قال « هي جارية لي ولكنها جارية ادب وشعر ومنادمة وليست لشيء غير ذلك . فانها تثقفت وحفظت الشعر واتقنت الخط والغناء والضرب على الآلات . . هل يأمر مولانا باستقدامها الساعة ؟ »

فصفق عبد الله فأتى ساهر الحاجب فأمره ان يستقدم الفتاة فخرج وعاد فأدخل عابدة وانصرف . فدخلت وهي ساعتئذ في اجمل حالاتها

(١) المقري ج ٢

لانها هيأت نفسها لملاقاة ابن الخليفة الناصر حسب وصية سعيد أو استهوائه . فلبست ثوباً لطيفاً واصلحت شعرها ونظفت اسنانها فضلا عما في وجهها من الهيبة والذكاء

فلما وقع نظر عبد الله عليها شعر بميل اليها واستلطفها واشار اليها أن تقعد فقعدت متأدبة وقد أطرقت حياء فابتدرها الامير قائلا « ما هو اسمك يا حسناء ؟ »

قالت « عابدة ياسيدي »

فاعجبته رخامة صوتها فقال « قد أنبأنا سعيد أنك تحفظين الشعر واخبار العرب فاي الشعر تحفظين ؟ »

قالت « ما شئت يا سيدي . . من شعر الجاهليين أو الاسلاميين أو المحدثين كما تشاء »

قال « هل اطلعت على جمهرة أشعار العرب لابي زيد ؟ »

قالت « نعم وحفظت نوادره وديوان الحماسة للبحتري وطبقات الشعراء لابن قتيبة وقرأت أكثر دواوين المحدثين وكثيراً من كتب الادب وآخرها كتاب العقد الفريد هذا . . انه كتاب جميل »

قال « لقد زدته جمالا بخطك الانيق . . » قال ذلك وتناول كتاب الامالي بيده ولم يكد يفتحه حتى قالت « أليس هذا كتاب الامالي للقالي ؟ »

فاستغرب معرفتها اياه وهو يحسبه لم يتصل بسواه بعد أخيه الحكم فقال « وهل قرأته ؟ »

قالت « تصفحته على عجل فحفظت منه شيئاً علق بذهني أتلو عليك منه اذا شئت ما يتعلق بأخبار أجدادكم بني أمية في الشام »

فأبرقت اسرته اعجاباً وسروراً وقال « هات ما يخطر لك »

قالت « هل أقص عليك حديث عبد الملك بن مروان لما خرج لقتال مصعب بن الزبير ؟ ان عبد الملك كان رجلا شديداً استخلص الخلافة لنفسه وطالبوها كثيرون حاربهم واستقل بها — يعجبني من

حماسه وعلو همته خروجه لمحاربة مصعب من الشام الى العراق وقد أرادت ام يزيد ابنه (امرأته) منعه عن المسير فقالت « يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأي » فقال لها « ما الى ذلك سبيل » فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب فلما يئست منه رجعت فبكت وبكى حشمها معها . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال «وانت ايضاً ممن يبكي ؟ قاتل الله كثيراً كانه يرى يومنا هذا حيث يقول :

اذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصانٌ عليها نظم درٍّ يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج[1] — ان عبد الملك أيها الامير رجل طلاب معال ألم تره لم ينفك عن الخلافة حتى نالها فقال فيه كثير

أحاطت يداه بالخلافة بعد ما أراد رجال آخرون اغتيالها »

وكان الامير عبد الله في أثناء كلامها ينظر الى ما يبدو في وجهها من ملامح الاعجاب بعلو همة عبد الملك وتقع كلماتها في أذنيه وقوع النغم الشجي على قلب الصب المتيم واحس بشيء استفزه للحماس فقال « لقد أحسنت يا عابدة وهل تحفظين لغير بني أمية ؟ »

قالت ويعجبني من الشعر يا مولاي ما يستحث المروءة ويهيج الاريحية كقول زهير بن أبي سلمى من معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يعد حمده ذمًّا عليه ويندم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ولا يعفها يوماً من الدهر يسأم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فلما بلغت الى هنا صاح الفقيه « لله در هذا الجاهلي ما ابلغه ان كلامه يحرك الهمم » أراد استنهاض همة الامير عبد الله . أما عبد الله

(١) أمالي القالي ج ١

فأخذه الطرب من حسن القاء عابدة وتجاهل أمر الحماس . وكان كتاب الامالي في يده فقلبه حتى اتى على أبيات أشار باصبعه عليها وقال « ان احسن مما ذكرت قول علي بن عباس هذا :

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يحلل وان هي اوجزت ودّ المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

فالتفت سعيد الى عابدة وقال « قالي يا عابدة من الحماس »

فقال عبد الله « أظنك تخاف عليّ الخروج . والله لا مطمع لي بشيء من ذلك والفقيه يعلم رأيي »

فقال سعيد « اذا لم يكن هناك باعث فالخروج مظنة سوء »

فقالت عابدة « ويعجبني قول عمرو بن كلثوم من معلقته .

اذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا ان نقرّ الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فطرب الفقيه لهذا المعنى واستخفه السرور حتى ضحك وهو ينظر الى عبد الله . فقال عبد الله وهو يقلد انشادها « فنجهل فوق جهل الجاهلينا . . »

قال ذلك وقد بان الجد في عينيه فرأى سعيد الوقوف عند هذا الحد فقال « ألا يأمر مولاي الامير ان تغني له شيئاً ؟ »

فقال « وهل تحسن الغناء وعلى من تعلمت ؟ »

قال « تعلمت على مغني بغداد خلائف الموصلي وحفظت اغانيه »

قال « غني لنا ما تعرفينه »

قالت « هل اغني غناء ابراهيم بن المهدي الذي شغله الغناء عن طلب الخلافة فقضى عمره كأنه من العامة ؟ انه كان طروباً وله غناء حسن »

فقال الفقيه « غني يا عابدة انه غناء ابن خليفة يسمعه ابن خليفة ولكن شتان بينهما »

فاخذت تغني

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم او تسترون هلالها
او تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبيّ فقالها

الفصل الحادي والعشرون

الانصراف

فطرب عبد الله واخذت عابدة بمجامع قلبه واحس بميل نحوها غير ميل الناس الى الاماء لانه آنس فيها عزة وقوة وادباً ورقة فاحب ادبها وبلاغتها وذكائها فامر بمائدة من الفاكهة والاطعمة والاشربة المنعشة لانه لم يكن يمس الخمر ولا النبيذ ولا يطيقهما

فلما مدت المائدة وليس عليها شيء من الخمور نظر سعيد الى الفقيه كانه يسازّه وقال « هذا اولى بها » واشار الى المائدة وخلوها من الخمور. ففهم عبد الله انه يشير الى الخلافة . ولكنه حسب نفسه فهمها خلسة مع انها مقصودة لكنه تجاهل واستعاد الفتاة صوتاً آخر ففنته وغنت غيره حتى طربوا فقال الامير عبد الله « ألا تعرف عابدة الضرب على العود او غيره »

فالتفت سعيد اليها فمدت يدها الى جيبها فاستخرجت عيداناً واوتاراً واخذت تركبها وتشدها فصارت آلة كالقانون واقبلت تضرب عليها ضرباً متقناً اسكر الامير بلا مدام فقال لسعيد « ما اسم هذه الآلة ؟ »

قال « هذه القانون يا سيدي »

قال « لا اذكر اني رأيتها من قبل »

قال « ان مخترعها لم يزل حياً وهو عالم كبير لكنه من رجال الفلسفة. وقد تعمق بأبحاثها والف فيها كتباً »

فقطع كلامه قائلا « اظنك تعني الفارابي التركي الفارسي الذي نشأ في الشام »

قال « نعم هو بعينه »

فتصدى الفقيه للكلام فقال « أليس هو صاحب القصة مع سيف الدولة يوم حضر مجلس غنائه وهو لا يعرفه وسأله اذا كان يعرف الغناء فاستخرج آلة ضرب بها فبكى من في المجلس ثم فكها وركبها وضرب ضرباً آخر فنام من في المجلس ؟ »

قال سعيد « بلى هو نفسه وهذه هي الآلة التي ضرب عليها وقد تمكنت عابدة من اخذها عنه »

فازداد الامير عبد الله اعجاباً بالفتاة وتعلق بها فقال « ألا تبيع هذه الحسناء ؟ »

قال « اجلها عن وصمة البيع والشراء يا سيدي ولكنني اكون انا وهي في خدمة الامير ايده الله »

قال « اما انت فاود ان تعدل عن الوراقة للناس وتختصني بفضلك فتكون خازن كتبي فتبقى انت وعابدة . هل تستطيع ذلك ؟ »

فاشار سعيد برأسه مطيعاً وقال « اني اعد من اسباب سعادتي ان اكون في خدمة مولاي الامير فابذل جهدي في مصلحته . . وقد كنت اهم بان اقول له ان عابدة لا اتخلى عنها لانها الفتي وانا احفظها اشياء من الادب والشعر لم تعرفها وكان عليّ ان اتردد عليها حيناً بعد آخر . . »

فقطع عبد الله كلامه قائلا « لا حاجة الى التردد انك تقيم في هذا القصر وتتولى ترتيب الكتب في اماكنها وتسعفني في التفتيش عن الكتب في مظانها فاني لا اريد ان تكون في قرطبة مكتبة خيراً من مكتبتي »

فاشار سعيد برأسه مطيعاً وسكت

فصفق الامير عبد الله فجاء ساهر فقال له « اعدوا داراً خاصة لنزيلنا سعيد وادخلوا عابدة دار النساء مكرمة »

فوقف سعيد يريد الانصراف فدعاه الامير عبد الله للبقاء هناك فقال لا بد لي من الانصراف لتدبير اموري والتفرغ لخدمة مولاي »

ونهض الفقيه وهو يقول « وانا انصرف بامر الامير الى منزلي »

اما عابدة فلما احست ببقائها وحدها نظرت الى سعيد وقد توردت وجنتاها من الحياء لبقائها وحدها هناك . فتقدم سعيد اليها وربت على كتفها وقال «لا تخافي يا عابدة انك في حياطة الامير عبد الله وستكونين معززة مكرمة» والتفت الى الامير وقال « يأمر مولاي ان تأتي القهرمانة لمرافقتها الى دار النساء فتأنس بها »

فامر فاتت القهرمانة الى باب القاعة . فخرجت عابدة معها وهي تلتفت الى سعيد وقد شق عليها فراقه

اما سعيد والفقيه فودعا الامير عبد الله وركب كل منهما بغلته وانصرفا . ولما خرجا من الحديقة قال الفقيه « لا نلبث ان نصل الى منزلي . . ألا تتحوّل معي تمكث هنيهة وتبيت عندي الليلة ؟ »

قال « لا بأس من ذلك » وتحوّلا ودخلا وقد سر الفقيه بنزوله لانه عزم على الاستعانة به في اقناع الامير عبد الله بما أراده على الحكم . ولم يعلم ان سعيداً اكثر رغبة منه في ذلك ولكنه اكثر دهاء وأوسع صدراً

دعاه الفقيه الى غرفة واسعة فيها سراج مضيء وقد فرشت ارضها بالحصر والبسط في أبسط ما يكون . وامر الفقيه خصيه ان يمدّ فراشين يفرشهما في تلك الغرفة ففعل . واخذ الفقيه في تخفيف ثيابه ودعا لسعيد بثوب خفيف لتبديله . فبدّلا الثياب وجلس كل منهما على فراشه وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه كأنه في ضميره والفقيه يحسب نفسه يحتال في اغرائه على عبد الله

الفصل الثاني والعشرون

المؤامرة

فلما جلسا قال الفقيه « اننا عملنا اشياء كثيرة في هذا اليوم »

قال سعيد « ولكنه انتهى بالخير . ان الامير عبد الله فاضل عاقل واظنك تتردد عليه كثيراً فياليتك تقيم عندنا فنسكن معاً ونتعاون على الدرس ونتساعد في خدمته اني اشعر بميل شديد اليه ولا اذخر وسعاً في كل ما يرضيه بعد ما آنسته من لطفه وتواضعه »

فقال الفقيه « كثيراً ما دعاني للاقامة في قصره وأنا اتردد واما الان فاني مجيب وسأنتقل » ثم اعتدل في مجلسه والتفت الى سعيد والسراج وراء ظهره فوقع نوره على عيني سعيد فزادهما لمعاناً واشراقاً وتخيل فيهما قوة كادت تغلب عليه فقال « ان من يحب الامير عبد الله يجب ان يعرفه حقيقة مركزه »

فقال سعيد « ظهر لي انه كثير التواضع راغب في العزلة والتقاعد عن السياسة ولولا ذلك ما ظننت أخاه الحكم ينال الخلافة دونه »

فأشرقت أسارير الفقيه فرحاً بهذا التصريح وقال « وقد تعبت وأنا اشرح له ذلك وهو ينكره عليّ فاذا ساعدتني اقنعناه فاني ارى في عينيك الاقناع »

قال « انا لا التمس اقناعه بالقوة ولا اظنه يحتاج الى اقناع في افضليته على اخيه ولكنه يخاف الظهور بذلك فاذا تحقق ووثق بمخاطبه صرّح بما يدور في خلده . ثم هو لا يكفيه ان يفضل نفسه على اخيه بالقول ولا بد من العمل »

قال « نبدأ اولا بالقول . . هل تقنعه انه اولى بالخلافة من اخيه ؟ »

قال « يجب ان تبدأ انت بذلك . . اقنعه اولا ان اخاه الحكم متكبر

يظن نفسه فوق اخوته وسائر اهله وبين له ان في قرطبة وسائر الاندلس احزاباً كبيرة غير راضين عن بذخ الناصر واسرافه في البناء وغيره وانهم ناقمون على الحالة الحاضرة وربما بايعوا واحداً من غير ابناء الناصر فهو اولى بهذه المبايعة . فهذا يهون عليه القبول . . . »

وكان الفقيه مصغياً بكليته الى ما يقوله سعيد وقد ادهشه دهاؤه وشعر بالفرق العظيم بين رأيهما وتحقق انه اذا اتى الامير من هذه الوجهة اقنعه . ولكن كبرياءه منعته من التصريح بفضل سعيد بهذا الرأي فقال « بورك فيك من رجل عاقل وهذا ما خطر لي ان اقوله للامير ولكنني اخاف اذا سألني اين هذه الاحزاب ان اعجز عن الجواب »

فأشار سعيد بسبابته الى صدره وقال « اسألني عند الحاجة فأدلك . واحذر اذا ذكرت ما تقدم للامير ان تشير اليّ او تذكر اسمي الا اذا سألك عن الاحزاب قل له سنسأل سعيد الوراق لعله يعرف لانه كان كثير الاختلاط بالناس . فهمت ؟ »

فسرّه طلب سعيد ان لا يذكر اسمه في ذلك فيحسبه عبد الله هو صاحب تلك الآراء فيعلو في عينيه فقال « فهمت . . انت لا تريد ان اروي شيئاً من ذلك عنك »

قال « نعم . لان الغرض تقديم النصيحة للامير ولا عبرة في من يقدمها »

ففرح الفقيه بذلك واراد ختام الحديث فقال « سأفعل كما امرت . . اظنك في حاجة الى الرقاد الآن . . استودعك الله الى صباح الغد »

وصفق فجاء الخصي فقال له « اخرج هذا السراج من هذه القاعة » فأخرجه وتوسد الرقاد

فنام كلاهما ملء عينيه والآمال ملء صدره واكثرها رجاء الفقيه فانه تصور الفوز طوع ارادته وانه متى هاج عبد الله على اخيه ملك ناصية الدولة ولم يقدّر ما يعترض ذلك من العوائق وما يقتضي تغلب عبد الله من المشقة ولكنه كان من اصحاب الاوهام يقنعهم الخيال ويكتفون

بالقواعد النظرية او التمنيات القلبية وقلما ينظرون في ذلك من الوجهة العلمية فيغلب الفشل على مشاريعهم

الفصل الثالث والعشرون

عبد الله بنفسه

أما الامير عبد الله فلما خلا بنفسه بعد ذهاب سعيد والفقيه مكث برهة وأفكاره تائهة والكتاب في يده يقلبه كانه يتصفحه ولكنه لم يكن يرى شيئاً لاستغراقه فيما كانوا فيه وقد جاش في صدره أمر لم يخطر بباله من قبل — لم يخطر له منذ أسندت ولاية العهد لاخيه ان في الناس من يراه اولى بها منه ولا هو خطر له شيء من ذلك . ولكن الانسان لا يبرح ضعيفاً متقلباً ما دام محباً لنفسه يؤثرها على غيرها ويرى فيها من الفضائل ما ليس في سواها . فهو ضعيف من هذا القبيل فاذا اردت اغراءه او تحريضه على أمر لا تجده راغباً فيه بين له علاقته به وعائدته عليه فلا تلبث ان تراه يهتم به

وعبد الله لم يكن يخطر له مناظرة أخيه الحكم على الخلافة ولذلك فانه استغرب تعريض الفقيه بشيء من هذا الشأن وانتهره . لكنه ما لبث ان اختلى حتى اخذ يناجي نفسه ويحدثها بما لا يمكن ان يكاشف به احداً — وافكار الانسان من حيث مكاشفة الآخرين بها ثلاث طبقات : الاولى اسرار يطلع عليها اصدقاءه ومعارفه والثانية اسرار لا يطلع عليها الا أخص اصدقائه او امرأته ولا يتجاوز بها غيرهم وهو حريص على كتمانها عن سواهم . وهناك خواطر لا يطلع عليها احداً ولو علم انها تتصل بسواه لتنغص عيشه وافتضح أمره . وفي هذه الخواطر حقيقة ضمير الرجل وكنه طبيعته وقد يكون الفرق بينها وبين ما يظهر للناس من افكاره تناقض عجيب . وقد تتقاربان ولا تختلفان الا قليلا واكثر

الناس دهاءً ابعد ما بين ظاهرهم وباطنهم

ولم يكن عبد الله من اهل الدهاء ولكن ما سمعه تلك الليلة هاج في قلبه حسد أخيه على ولاية العهد وبالغ في كتمان ذلك حتى ود لو يكتمه عن نفسه. وفكر في حاله وعجزه عن مناوأة اخيه فاخذ يتعلل بما يغنيه عن ابهة الدولة ويفضل على متاعب الملك فقال في نفسه « ان متاعب الحكومة كثيرة وما الذي يرجوه الانسان من دنياه غير التمتع بالحياة على ألذ الطرق وانفعها وانا لا ينقصني شيء من لوازم الحياة وتوابعها وليس عليّ من واجبات الخليفة ما يشغلني عن مطالعة الكتب والتبحر في العلم ولا ينقصني شيء من الوسائل التي للخلفاء لاقتناء اسباب الراحة والنعم » وخطر بباله حالا ما سمعه تلك الليلة من عابدة فاحس براحة ولذة وقال في نفسه « ان جلوسي مع هذه الجارية أطارحها الاشعار وأحادثها واسمع غناءها خير من الامر والنهي وما يشوبهما من تعب القلب وخوف الفتنة او الحذر من اهل الدسائس وغيرهم »

وكان يفكر في ذلك وهو واقف امام منضدة عليها كتاب العقد الفريد واخذ يقلب صفحاته والحاجب واقف بالباب ينتظر امره في ما يريد من امر الرقاد. ثم انتبه عبد الله لنفسه فالتفت فرأى المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة فتناول تفاحة وقطعها والتقم بعضها وهو غارق في بحار الهواجس ولم يشرح خاطره لانه لم يستقر على رأي يعول عليه فاخذت الخواطر تتقاذفه بين ان يصغي لقول الطاعنين على اخيه او يبقى على ما كان عليه من حسن الظن فيه

وأخيراً رأى حسن الظن ادعى الى السلامة والوفاق فطرد تلك الخواطر من باله وصفى نيته من جهة أخيه وذهب الى فراشه. فعادت الى ذهنه صورة عابدة وتذكر ما سمعه من حديثها فاحس بلذة واصبحت بعد وجودها في منزله من اكبر اسباب التعزية ووعد نفسه بمجالستها والتمتع بأدبها

بات تلك الليلة على عزم الاخلاص لاخيه الحكم والتسليم له بحق ولاية العهد. فلما اصبح دخل مكتبته وهي عبارة عن قاعة كبيرة في

جدرانها رفوف فيها الكتب على غير نظام فوضع كتاب العقد الفريد في صدر كتب الادب بحيث يقرب تناوله عند الحاجة وأخذ يقلب ما بين يديه من كتب الفقه والحديث ويعود الى الادب والشعر فكان يرى مشقة في الوصول في الكتاب فاخذ يعلل نفسه بترتيبها متى عاد سعيد

الفصل الرابع والعشرون

رسول ولي العهد

مضى معظم النهار ولم يعد سعيد ولا الفقيه فلما كان الاصيل مل الانتظار فتذكر عابدة فامر حاجبه ساهراً ان يأمر القهرمانة بارسالها اليه في القاعة للتمتع بحديثها ريثما يأتي الرجلان او احدهما وقد احس باشتياق الى لقياهما ليرجع الى حديث الامس ويظهر لهما ما عول عليه من اغفال أمر ولاية العهد ويتوقع ان يوافقاه على رأيه فيزداد رسوخاً في الامر

وعاد الحاجب وقال « ان جاريتك عابدة آتية » فامره ان يعد مائدة من الفاكهة والحلوى وبعض الاشربة المنعشة فاعدها في غرفة الامس وجلس عبد الله وبيده كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يقلب فيه

وبعد قليل جاءت عابدة وهي في اجمل مما كانت بالامس فتلقاها بالترحاب وأمرها بالجلوس وسألها اذا كانت تحسن الضرب على العود

فاجابت « نعم »

فامر باحضاره فتناولته ولحظ فيها خجلا او انقباضاً فظن ذلك ناتجاً عن استيحاشها لغياب سعيد فابتدرها قائلاً « كيف وجدت نفسك عندنا يا عابدة »

قالت « بخير يا سيدي وكيف لا أكون سعيدة وأنا في ظلك »

قال « لكن يظهر انك استبطأت سعيداً كما استبطأته انا ولكنه لا

يلبث ان يأتي ولا يعود الى الغياب »

فلما سمعت ذكره توارد الدم الى وجهها فظن عبد الله ذلك ناتجاً من الخجل وما درى ما يختلج في قلبها من الهيام بسعيد فقال « لا يلبث سعيد أن يأتينا وقد شعرت بالحاجة اليه في هذه الساعة لما دخلت مكتبتي ووجدت الكتب فيها مبعثرة وسيتولى ترتيبها . . انه رجل حكيم وقد وقع من نفسي موقعاً حسناً . ويكفي من فضله انه كان وسيلة في قربك »

فازداد تورد وجنتيها وعمدت الى التخلص فقالت « لعل هذا السبب الاخير اقل حسناته بالنظر الى مولاي الامير وأما بالنظر الى هذه الجارية فهو فضل كبير »

ففرح عبد الله بلطف أسلوبها وتحقق أنها راضية بالمقام عنده فقال « لا بل الفضل له عليّ بذلك وارجو ان نستطيع مكافأته على هذا الصنيع . . »

فتنهدت وقالت وهي تصلح العود في حجرها « ان سعيداً يستحق ثقة مولاي الامير واذا جربه وجده حكيماً عاقلا صاحب رأي وهمة يتفانى في خدمته . . . »

فقطع عبد الله كلامها بلطف وقال « لا نريده الا سالماً معافى ولنا بجيرته خير مساعد يرتب مكتبتنا ويهدينا الى مظان الكتب النفيسة »

قالت « نعم ولكنه يفيد في كل أمر يقترح عليه » قالت ذلك وهي تتشاغل باصلاح وتر مشوش وأظهرت عند الفراغ من هذه الجملة ان العود قد تمّ اصلاحه وضربت عليه صوتاً من الاصوات المطربة وغنت فطرب عبد الله . وتقدم اليها ببعض الفاكهة والحلوى وأخذ في تقريظ الصوت الذي سمعه واطراء صناعتها فيه وهي تتواضع وتجود في الضرب والغناء وعبد الله متكئ على وسادة لا يزداد في الفتاة الا اعجاباً وطرباً وقد صوب رأيه بالاكتفاء بها عن سائر مطامع الخلافة

وهما في ذلك دخل الحاجب ووقف بحيث يعلم عبد الله انه يريد أن يخاطبه فالتفت اليه وأشار بيده يستفهمه عن غرضه فقال « ان في الباب

رسولا من مولانا ولي العهد يحمل كتاباً الى مولاي الامير »

قال « ولي العهد ؟ » وقد ساءه الرجوع الى شيء من امره

فقال « نعم يا سيدي »

فقال « اين الكتاب ؟ »

فخرج وعاد والكتاب بيده فسلمه الى الامير فتناوله وهو بمجلس وفضه ووجهه نحو نافذة يدخل منها النور وأخذ يقرأه وقد توقفت عابدة عن الغناء وأخذت تراعيه فرأت في وجهه تغيراً وهو يتفرس في الكتاب ويعيد قراءته ثم اعتدل في مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوسادة وأراد التظاهر بعدم الاكتراث ولم يخف على عابدة ما تولاه من الاضطراب ولكنها لم تعرف السبب فرأت من الادب ان تبقى صامتة تنتظر أمره

أما هو فبعد الاطراق هنيهة وقف وتظاهر انه يطلب حاجة في الغرفة الاخرى فمشى الى الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئاً يستدعي رجوعه وقعد في مكانه وعاد فاستخرج الكتاب من تحت الوسادة وأعاد قراءته ثم شعر بما ظهر من قلقه بين يدي عابدة فاراد ان يوهمها غير الواقع فقال « ما بالك لا تغنين يا عابدة ؟ »

فتناولت العود وقالت « خفت ان أشغل مولاي عن قراءة الكتاب ولعل فيه ما يهمه أو يدعو الى اعمال الفكرة فيشوش عليه عودي »

قال « ليس فيه شيء » وبدأ الانقباض في وجهه ثم قال « غني يا عابدة . . غني ما شئت »

فاخذت العود وغنت صوتاً آخر فاوقفها وقال « غني قول عمرو بن كلثوم الذي ذكرته بالامس :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

فادركت من طلبه ان في الامر سرًّا غاظه وكانت قد علمت ان الكتاب جاءه من اخيه ففهمت بعض الشيء فاخذت تغني وتجود وهو يتنسم لها والغضب باد في محياه

الفصل الخامس والعشرون

الجواب

ثم جاء الحاجب ووقف بجانب الستر فتذكر عبد الله انه ينبغي له ان يجيب الرسول على كتابه فقال « ألعل الرسول يتوقع مني جواباً ؟ »

فأشار ساهر برأسه ان « نعم »

فقال « قل له ليس عندي جواب » قال ذلك بلحن التهديد

فخرج ساهر وفعل ما أمر به عبد الله لكنه لطف الاسلوب فبدلا من ان يقول « ليس عند الامير جواب » قال « سيجيب على الكتاب بعد الآن »

فقال الرسول « أمرت ان ارجع بالجواب الساعة »

فاكبر ساهر ان يبلغ الامير كلامه على هذه الصورة فاستمهله وهمّ بالرجوع وكانت الشمس قد قاربت الغروب فسمع وقع حوافر بغلة في الحديقة ثم رأى الفقيه قادماً على بغلته حتى اذا وصل ترجل وهمّ بالدخول فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه فتقدم الرسول وسلم على الفقيه فسأله عن سبب وجوده هناك فقال « جئت برسالة من مولانا ولي العهد وانا واقف التمس الجواب »

فدخل الفقيه وهو يقول في نفسه « ماذا عسى ان تكون تلك الرسالة » حتى اقبل على مجلس الامير وعابدة فاستأذن ودخل فدعاه الامير الى الجلوس والغضب باد في محياه فعلم الفقيه ان سبب غضبه متعلق برسالة الحكم فسره ذلك لانه يساعده على مرامه فقال « مالي ارى مولاي غضباً ؟ »

قال « لا شيء » واحب التظاهر بعدم الاكتراث

فقال الفقيه « رأيت رسول ولي العهد بالباب . . هل بلغك خبر قدومه ؟ »

قال « نعم وقد صرفناه . . . ألم يذهب ؟ »

قال « رأيته لا يزال واقفاً »

فصفق عبد الله فدخل ساهر فابتدره قائلا « ألم تصرف الرسول ؟ »

قال « بلغته امر مولاي فقال انه يريد الجواب الآن »

فلم يتمالك عبد الله عن التحفز للوثوب ثم تراجع وقال « قل له ليس عندي جواب فليمض »

قال « قلت له يا مولاي ولم يمض

فأظهر الفقيه اشتراكه بغضب الامير فقال « عجباً من هؤلاء . . أيقول له الامير امض ولا يمضي ؟ وهل هو الا رسول مأمور ؟ » والتفت الى الامير وقال « هل يأذن مولاي ان اعلم رسالته وانا اصرفه حالا »

فمد الامير عبد الله يده الى الكتاب واستخرجه من تحت الوسادة ودفعه الى الفقيه وقال « هذا هو الكتاب . . اقرأه لنفسك »

فتناوله وقرأه واذا هو :

« من الحكم ولي العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فقد بلغنا ان جارية اديبة تحفظ الشعر وتحسن الغناء جاءتك فاحببنا ان نراها فاذا جاءك كتابي انفذها اليّ مع رسولي وانت في خير وعافية »

ثم رفع الفقيه بصره الى الامير فرآه ينظر اليه ويتوقع رأيه فقال « قد قرأته يا سيدي فما ترى ؟ »

قال « قد علمت رأيي وهل ترى ان اجيبه الى طلبه ؟ »

فرأى الفقيه ان يغتنم تلك الفرصة لاثارة نقمة الامير على اخيه فقال « قد رأيت صواباً . . ولا اظن الحكم يعني بطلبه هذا الا الاستئثار لنفسه كأنه يرى ذلك من حقوق ولاية العهد »

فاغتسب الامير عبد الله ضحكة وقال « نعم من حقوق ولاية العهد . . ألم يكفه سكرتي عن تلك الولاية حتى تعدى الى هذا »

فقال الفقيه « ومع ذلك فان هذا الامر يتعلق بسعيد وله فيه الرأي الاول بعد امر مولاي »

قال « مهما يكن من ذلك فلبس لرسالة اخي جواب »

قال « لا ارى بأساً من ان تجيبه على كتابه بما تراه »

قال « ماذا اكتب اليه ؟ »

قال « اكتب ما شئت . . اعتذر له انك لا تقدر ان تجيبه على طلبه لاسباب عندك لا تستطيع بيانها »

فنادى الامير عبد الله « ساهر »

فدخل الحاجب فقال « اليّ بدواة وقرطاس »

فجاءه بهما فتناول القلم وكتب :

« الى الحكم ولي العهد من اخيه عبد الله

« اما بعد فقد جاءني كتابك فتأملته مليّاً فلم اجدني قادراً على اجابة طلبك فيه فاعذرني والسلام »

وختم الكتاب ودفعه الى ساهر وقال له « سلمه الى الرسول »

فخرج وسلمه اليه

وعاد الامير عبد الله الى ما كان فيه واشار الى مايدة ان تغني وكانت قد لحظت شيئاً مهمها لما سمعته من ذكر سعيد في اثناء الحديث فطفقت تغني :

ستعلم في الحساب اذا التقينا ... غداً يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن اناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
الى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغني وعبد الله مطرق يهز رأسه وقد جاشت به عاطفة الاعتبار ولما فرغت من البيت الاخير ردد قولها « وعند الله تجتمع الخصوم » ثم قال « رحم الله ابا العتاهية »

واغتنم الفقيه تلك الفرصة وجعل يطري عابدة وصوتها وهي تجود في الغناء وأحس عبد الله بحاجة الى سعيد فقال « ألا تظن سعيداً يأتي الليلة ؟ » ثم صاح « ساهر »

فتقدم الحاجب فقال « انيروا السراج »

فخرج ثم جاء بعض الخدم بالسراج وفي اثناء ذلك اجاب الفقيه على سؤال الامير قائلا « اظن سعيداً لا يلبث ان يأتي وقد اصبح مجيئه ضرورياً الآن على ما اظن »

قال « لا بد من حضوره فانه صاحب رأي »

الفصل السادس والعشرون

المائدة

وهم في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب »

قال الامير « يدخل »

فدخل سعيد ووجهه يتدفق هيبة وذكاء فتلقاه الامير مرحباً

وكان اكثرهم سروراً عابدة فانها لم تتمالك عند دخوله عن الابتسام ونظرت اليه وهي تزعم انها تغازله فابتسم لها وجلس وهو يحيي الامير ثم الفقيه

فقال الامير « مرحباً بصاحبنا سعيد لقد ابطأت علينا »

قال « كنت مشتغلا بتدبير شؤون منزلي حتى اتفرغ بخدمة مولاي » ثم اشار الى عابدة وقال « كيف رأيت عابدة اليوم ؟ »

قال « انها تأتينا كل يوم بطرب جديد بارك الله فيها » ثم نادى ساهراً وأمره ان يهتم بتهيئة الطعام

وبعد هنيهة حضرت المائدة فقاموا اليها واغتنم الفقيه غفلة من عبد الله وقص على سعيد امر الكتاب الذي جاء من الحكم وما اجاب

عليه . فلما جلسوا الى المائدة قال سعيد « هذه اول مرة اتناول بها الطعام مع الامير عبد الله بن امير المؤمنين الناصر وهو شرف عظيم لي والفضل في وصولي اليه يرجع الى هـذه الفتاة الاديبة » واشار الى عابدة

فاجابت عابدة وعيناها تلمعان وقالت « بل الفضل لك يا مولاي بوجودي هنا فلولاك لم أنل هذه النعمة بمخادمة الامير »

فقطع الامير كلامها قائلا « والحق يقال انكما صاحبا فضل عليّ فاني اعدُّ هذا الاجتماع طالع عيش جديد لم اذق مثله من قبل »

وكان الفقيه ساكتاً فالتفت الى الامير وبيده صدر دجاجة يهيئه لقمة لنفسه وقال « كلكم اصحاب فضل الا ابن عبد البر المسكين وهو اول من فتح باب التعارف » قال ذلك ووضع اللقمة في فيه ونظر الى سعيد من طرف خفي وغمزه فأجابه باشارة لطيفة

فضحك عبد الله وقد سري عنه وقال مازحاً « ليس الفضل لأحد منا وانما الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فان كتابه دلنا على هذا الكنز الثمين » وأومأ الى عابدة بيد وسعيد بيد اخرى

فتناول سعيد سكباجة بين يديه وناولها الى عابدة وهو يقول « ما بالك لا تأكلين يا عابدة خذي كلي من طعام الامير واشكري الله على نعمه . . انك لا ترجين نعمة فوق هذه . . . »

فمدت يدها لتتناولها

وقطع الفقيه كلامه وهو يمد يده لتناول قدح الماء من الخادم الواقف في خدمتهم وقال « ولو كانت عند ولي العهد ؟ » . جعل هذه الفقرة تتمة لما قاله سعيد

فاجابه سعيد « ما اظن ولي العهد اذا بلغه خبر عابدة ولو في العراق انه يتركها تفلت من يديه . لكننا لا نرضى عن مولانا الامير بدلا »

فلما سمع عبد الله ذلك الحديث انشرح صدره لانه توسم في سعيد مساعداً له على رد طلب الحكم وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب

الحكم فنظر اليه وقال « ما قولك اذا جاءنا كتاب اخي ولي العهد الآن يطلب عابدة ؟ »

قال « لا اظنه يفعل بعد ان علم بدخولها منزلك فان ما ناله من شرف ولاية العهد يشغله عن ان يسلبك جارية تتمتع بحديثها . . اني اجلُّ حكمة ولي العهد عن ان يبلغ به الطمع الى هذا الحد فهو يدرك انه نال بولاية العهد حقه وزيادة أفلا يترك لاخيه فتاة يسر بحديثها ؟ »

فنظر عبد الله الى الفقيه وابتسم يزعم انه يفعل ذلك خلسة من سعيد يذكره بما اطلعا عليه من كتاب الحكم في ذلك المساء فتجاهل سعيد واتم كلامه قائلا « وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد في الاسلام ان يوسعوا لاخوتهم واعمامهم ابواب الرزق ويهدوهم الجواري والسراري ويقطعوهم الاقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ويهدوا اليهم الهدايا الثمينة تعويضاً لهم عما خسروه من حق الملك وخوفاً من نقمتهم ومولانا ولي العهد يعلم ذلك فكيف يعقل انه بدلا من ان يهدي اخاه عشرات من امثال هذه الجارية يطمع ان يسلبه اياها ؟ »

وكان سعيد يتكلم والفقيه يعجب بدهائه وحسن اسلوبه في تمكين عبد الله من حقه في رفض طلب اخيه وعبد الله يعتقد ان سعيداً يقول ما يقوله وهو لا يعلم بما جرى وكان يشعر عند سماع كلام سعيد ان الحق مجسم في كل كلمة من كلامه واقتنع باقواله اقتناعاً تاماً فأصبح يعدّ طلب اخيه تعدياً تجاوز الحد وسرّه انه رفض الطلب وتأسف لانه لم يغلظ لاخيه بالعتاب

الفصل السابع والعشرون

كتاب آخر

ولما فرغوا من الطعام قاموا الى قاعة الاستراحة وعادوا الى السماع وسعيد يبالغ في اطراء عابدة . وعبد الله يزداد طرباً بصوتها واعجاباً بأدبها وجمالها حتى انتصف الليل وكادوا ينصرفون واذا بساعٍ دخل وبيده كتاب فوقف حيث يعلم الامير انه يريد مخاطبته فناداه وقال « وما ذاك ؟ »

قال « كتاب يا سيدي »

قال « ممن ؟ »

فتقدم به اليه وهو يقول « من مولانا ولي العهد »

فمد عبد الله يده وتناول الكتاب فعلم من عنوانه انه من اخيه الحكم فاختلج قلبه في صدره تطلعاً لما عساه ان يكون فيه وقد حمل اليه في تلك الساعة وكانت يداه ترتعشان وهو يفضه . وتطاول الجميع بأعناقهم وهم يتكهنون في ما يحويه الا سعيداً فانه كان عالماً بما هنالك ولم يفته خبر الكتاب الاول لانه هو الذي بعث ولي العهد على كتابته بغير ان يشاهده ولكنه استخدم في الوصول الى ذلك دهاءه وحسن تدبيره

ففض عبد الله الكتاب وقرأه ولم يتمالك ان رمى به الى سعيد وقال له « ما اسرع ما صدق ظنك بولي العهد . . هذا هو كتابه اقرأه »

فتناوله سعيد وهو يقول « هل اقرأه جهاراً ؟ »

قال « اقرأ وليس فينا من يحسن الاحتراس منه »

فأخذ يقرأ والجميع منصتون :

« من الحكم ولي العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فاني استبعدت ان تكتب اليّ بما كتبت وكدت انكره لو لم يكن بخطك وعليه خاتمك . . اطلب منك جارية فتغضن بها عليّ وانت رعاك الله لا تجهل منزلة ولي العهد لدى امير المؤمنين فاذا قرأت كتابي هذا ارسل الجارية مع رسولي الليلة وعهدي بفطنتك وحسن نظرك انك فاعلٌ ان شاء الله »

وكان سعيد يقرأ ويقف عند كل فقرة ويهزّ رأسه استفراباً حتى اتى على آخر الكتاب فدفعه الى الامير عبد الله وأطرق . وكان الامير وهو يسمع الكتاب ينظر الى عابدة فرآها قد تركت العود من يدها وبدت الدهشة في محياها وتاملت كأنها تتحفز للنهوض فعظم ذلك على الامير . فلما اعاد سعيد الكتاب اليه تناوله وقال « أرأيت ما بلغ من طمع اخي فيّ ؟ اصانعه واجامله والتمس رضاه وهو يهددني ويلح في طلبه ؟ »

فقال سعيد وهو يظهر الاستغراب « لم يكن ذلك ليخطر ببالي او اصدقه لو لم اقرأ هذا الكتاب بنفسي »

فقال الفقيه بلهجة الفائز الظافر « اما انا فلم اكن استبعده وقد اشرت الى مولانا بمثل ذلك لاني كنت اتوقعه . وهو حفظه الله يحسن الظن بأخيه وربما اساء الظن فيّ وحسبني اقول ما قلته لغرض لي فهذا كتابه جاء شاهداً يؤيد قولي . فما عليك يا مولاي الا الطاعة او الخروج . . فان الرفض يجر الى البلاء »

فكبر عبد الله تهديد الفقيه واستخفافه بعزمه بين يدي الفتاة فقال « الطاعة ؟ وهل لولي العهد طاعة عليّ في مثل ذلك ؟ . لم يبق الا ان يطلب نسائي واولادي اليه او لعله يريد ان اقوم في خدمته ايضاً » قال ذلك وهو يهز رأسه

فقطعت عابدة كلامه وهي تهمّ بالنهوض قائلة « لا احب ان اكون سبباً للخلاف بين الامير واخيه فالاولى ان اخرج انا من هذه الدار

واعود الى خبائي او ارجع الى بلدي . وما انا مما يستحق التنازع عليه — عهدنا ابناء الخلفاء يتنازعون على الخلافة ويتهادون الجواري والمغنيات والمقاطعات »

فمد عبد الله يده اليها وأمسكها بثوبها واجلسها وقد هاجت فيه الاريحية وقال « ألا تعلمين ان خروجك من منزلي اهانة لي كأني عاجز عن صيانتك فيه . . . متى بلغ من اخي ان يأخذك مني قسراً وان تأتي له ذلك فأنا اخرج من هذا المنزل قبلك » قال ذلك وبان الغضب في عينيه وقد نسي موقفه

فجاست وهي تظهر الانكسار والاذعان وتنظر الى سعيد كأنها تستنجده

فنظر سعيد الى الامير عبد الله وقال « تمهل يا مولاي . اعرني سمعك لحظة »

فسكت الامير وقال « قل اني سامع »

فتلفت سعيد في اطراف القاعة كأنه يحاذر ان يسمعه احد وقال « هل نحن في مكان مصون لا بأس علينا اذا تكلمنا من واش او رقيب ؟ »

قال عبد الله « تمهل » وصفق فجاء الحاجب فقال له « لا نحب ان يدنو من مجلسنا احدٌ »

قال « سمعاً وطاعة يا سيدي » وخرج وأغلق الباب وراءه

فقال عبد الله لسعيد « تكلم »

فارسل سعيد نظرة في عيني عبد الله خرقتهما الى داخل احشائه فأحس انه طوع ارادته فقال سعيد « لا ينبغي للامير عبد الله ان يخرج عن رشده ويطعن على اخيه ولي العهد ويرد طلبه الا وهو على يقين مما يجر اليه ذلك من العواقب الخطرة . . فعليك ان تتبصر في العواقب ثم تقول ما تريد . وقد ظهر لي من تلاوة هذا الكتاب ان

ولي العهد كتب اليك كتاباً مثله يطلب فيه عابدة فرددت طلبه فاعاد الطلب مشفوعاً بالتهديد والوعيد فعليك اذا ازمعت الرفض ان تثبت فيه ولو مهما كلفك ذلك من الامور . والا فاذعن وأطع واجعل انك لم ترَ عابدة ولا اتت منزلك . . . »

فقطعت عابدة كلامه قائلة « اسمح لي يا سيدي ان انبهك الى امر لعله لم يغرب عن فطنتك . . اني لا ارى من الحكمة ان تحمل الامير على مغاضبة اخيه وهو صاحب القول اليوم ولا اراه قادراً على رد طلبه ولا احب ان اكون وسيلة لهذا التغاضب فالاولى ان اخرج انا من هذا المكان قبلا فيكون عذره اني غير موجودة هنا . واخاف اذا رد مولانا الامير طلبه وانا باقية هنا ان يعمد ولي العهد الى أخذي بالقوة وانا اعترف لك اني لا اريد بدلاً من سيدي الامير عبد الله فلا ابرح هذا المكان الا قتيلة »

فاعظم الامير عبد الله تملق عابدة به مع ما يتخلل قولها من التوبيخ اللطيف وأخذته الحمية وقال « قلت لك يا عابدة انك في جواري ولا يستطيع احد ان يأخذك قهراً »

فقال سعيد « اذا كان مولاي الامير مصمماً على الرفض فليتمهل ولعله اذا تبصر في عاقبة ذلك يكون قد خدم مصلحته ومصلحة المسلمين »

فاطرق عبد الله وهو يفكر في مغزى كلام سعيد

فتصدى الفقيه للكلام قائلاً « ارجو ان يكون سيدي الامير قد فهم مغزى هذا القول . . وانا ازيده بياناً » قال ذلك وزحف حتى لاصقت ركبته ركبة الامير وقال بصوت منخفض « اتذكر يا سيدي ما قلته لك بالامس عن ولاية العهد وما يقوله الناس عن امير المؤمنين واسناده اياها الى الحكم دون سواه ؟ . قلت لك يا مولاي ان الحكم لا يرى الناس كفاءته لهذا المنصب لاسباب ذكرتها لك . وهم غير راضين عنه لكنهم لا يجسرون على الكلام اذ لم يجدوا من يطالب بها

سواه وهم يرون الامير عبد الله اولى بها من الجميع . فاذا طلبها وجد انصاراً كثيراً فاذا وافقتني وقمت بهذا الامر فما عليك الا ان تقول »

الفصل الثامن والعشرون

الجواب

وكان عبد الله في أثناء ذلك مطرقاً يفكر وقد رجع اليه صوابه وأحس بثقل الامر الذي يعرضونه عليه وندم على ما فرط منه لعلمه بعجزه عن القيام به لكنه استثقل الرجوع عن كلامه حالا فرأى ان يحتال في التخلص فقال « أرى كلام صاحبنا سعيد أقرب الى الصواب فاننا ينبغي لنا قبل الاقدام على هذا الامر ان نتدبر وننظر فيه قبل ان نشعل ناراً لا نقوى على اطفائها . لا سيما وان امير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم فقيامي بما تدعوني اليه يعد خروجاً عليه وهو لم يتعرض لي في شيء ولا أرى عمل اخي الحكم الا من عند نفسه قد ارتكبه عن طيش ولعل والدي امير المؤمنين اذا عرف به أرجعه عنه »

فقال سعيد « لقد نطقت بالصواب ورأيت رأي أهل الحزم والدهاء فما الذي تتوقعه هل تطيع أخاك في ما طلبه »

قال « كلا بل أرده فاذا اصرّ نرفع الامر الى امير المؤمنين »

فقال الفقيه « لا أرى من سداد الرأي ان تضيع هذه الفرصة التي سنحت لك . . انها فرصة ثمينة يا سيدي ولا تخف . . ان في قرطبة ألوفاً ينتظرون كلمة من الامير عبد الله ليبايعوه . . واذا أطعتني وعملت برأيي أدلك على الطريق . . والا فافعل ما بدا لك »

فنظر عبد الله الى سعيد كأنه يستشيره فقال سعيد « ان ما يقوله الفقيه قرين الصواب وأنا أعلم الناس بدخائل هذا الامر وأزيد على ما قاله ان في قرطبة عصابات قوية تجتمع سراً وهي ناقمة على امير المؤمنين

نفسه لخروجه في سيرته عن مثال الخلفاء الراشدين وتقريبه الخصيان والصقالبة والعبيد دون اصحاب هذه الدولة ورافعي علم الدين الحنيف وهم يرون الدولة صائرة بذلك الى غير اهلها . وكانت الآمال عالقة بمن سيخلفه لعله ينهج طريقاً غير طريقه ويرجع الى الصواب وكانت افكارهم متجهة الى مولاي الامير يظنون الخلافة تصير اليه فلما رأوا اباه بايع الحكم ولم يلتفت الى الامير عبد الله قطع حبل آمالهم ويئسوا من الاصلاح فاذا طلبها مولانا الامير رأى من يشد ازره والا فاذا ظللت على بيعة الحكم فانا مبايعه معك وليس من الحكمة التسرع في نقض البيعة فانا لا أشير عليك بان تفعل او لا تفعل ولكنني اقول ما أعلمه وأنت صاحب الرأي »

فأعجب عبد الله بما في كلام سعيد من النزاهة والحزم وصدق النصيحة لانه ما زال يعد نصيحة ابن عبد البر مشوبة بالغرض لانه ناقم على الحكم وهو الذي حرمه من القضاء فقال « لله درك من حكيم عاقل وقد فهمت مقالك فهل ترى سرعة النهوض ؟ »

فأجاب وهو يظهر الجد « لا ... بل انا ادعوك الى التبصر في العواقب فان ظهورك بمنازعة اخيك على ولاية العهد امر عظيم يجر الى فتن وحروب اذ لا يسهل على الحكم التنازل عن شرف قلده اياه ابوه ولا يصح للامير عبد الله بعد ان يطلب ذلك المنصب ان يرجع عنه صاغراً . واذا رجع هو فأنصاره الذين سيقومون بنصرته لا يرجعون حتى يسندوا الخلافة الى اهلها الذين يعرفون قدرها ويقومون بشروطها لان قيام هؤلاء ليس حباً بشخص الامير عبد الله ولكنهم أحبوا فضائله اللائقة بالخلافة رغبة في مصلحة انفسهم . فاذا طالب بها هو ثم رجع عنها طلبوها لسواه ... أرانا قد خرجنا عن الموضوع ونحن في مسألة طمع ولي العهد بعابدة فاذا رجع عن طلبه لم يبق داع مستعجل لمناوأته والا فنرى ما يكون »

وكان عبد الله والفقيه وعابدة شاخصين الى سعيد يسمعون كلامه

ويعجبون لما فيه من الحماس ولا سيما عبد الله فانه فهم اشياء لم تكن تخطر بباله . فهم وجود عصابات واحزاب تنكر مبايعة اخيه وتحب مبايعته . ولو كان من أهل المطامع لأخذ طلب اخيه ذريعة للنهوض عليه لكنه كان ضعيف العزيمة وانما سيق الى الامر بالاغراء وظل مع ذلك من مناهضة اخيه ويخاف سطوة ابيه فعمد الى المسالمة وساعده على ذلك ما سمعه من سعيد فقال « قد علمت اشياء لم اكن اعلمها .. »

فقطع الفقيه كلامه قائلا « والذي علمته اقل من الواقع وستكشف لك الايام قدر نفسك وتعلم انك رجاء الالوف وألوف الالوف »

فأومأ سعيد بيده الى الفقيه وقال « لا ينبغي ان تحرض مولانا الامير تحريضاً فان الصبر اولى والتأني لا بد منه . فالآن ما الذي يراه مولانا ؟ »

قال الامير « اني أرى الفقيه متسرعاً وأوافقك على التأني وطول الاناة ولذلك فأنا مرجئ هذا الامر الى فرصة أخرى لاني لا ازال أرى امير المؤمنين ينصرني ويقف في طريق اخي فيرده عن هذا التعدي فاذا لم يفعل ذلك فالايام بيننا »

فقطع سعيد كلامه قائلا « نعم الرأي رأيك وربما ادرك امير المؤمنين عند اطلاعه على عمل ولي العهد انه أساء الاختيار في ما عهده اليه فيرجع الى الصواب وينقل ولاية العهد اليك . . . »

فزاد عبد الله تمكناً من رأيه فقال « فاذاً نؤجل ذلك الى فرصة أخرى ونبحث الآن في طلب اخي »

فقالت عابدة « مهما يكن من رأي الامير في طلب اخيه فأنا خارجة بأمره من هذا القصر » قالت ذلك ونهضت وهي تجمع خمارها الى صدرها وقد القت العود من يدها

فأمسك عبد الله بطرف ثوبها وأقعدها وقال « كيف تخرجين ؟ »

قالت « اخرج بأمر مولاي لاني رأيتني سبباً للنزاع مع اخيه و . . . و . . . »

فقطع الامير كلامها قائلا « اما بأمري فلا تخرجين . وقد قلت لك انه لن ينال قلامة من ظفرك وها انا كاتب اليه الجواب الساعة » والتفت الى سعيد كأنه يستشيره في ما يكتب

فقال سعيد « اكتب اليه بما أرى ولا تشدد الوطأة فان الحكمة تقضي حسن الاسلوب لئلا تتغير القلوب . واذا أذنت ان اكتب عنك كتبت فاذا استحسنت ما اكتبه وقعت عليه والا رددته »

قال « افعل »

وكانت الدواة والقرطاس لا يزالان هناك فتناول سعيد القلم وكتب:

« الى الحكم ولي العهد من اخيه عبد الله

« اما بعد فقد اخذت كتابك وعجبت لالحاحك في طلب تلك الجارية بعد ان اعتذرت اليك عن نوالها وأنت مع ذلك تهددني وتعرض بما لك من المنزلة عند امير المؤمنين حفظه الله ولأمير المؤمنين اجلّ من ان يجاريك في طلبك او لملك بحسب ذلك من حقوق ولاية العهد — على رسلك ليس هذا من الصواب في شيء وقد رأينا الخلفاء في الدولتين الاموية بالشام والعباسية في العراق وفي دولة آل مروان هنا اذا اكرموا أحد ابنائهم بولاية العهد عوضوا على سائر الابناء والاعمام بالاعطية الجزيلة ووسعوا لهم في ارزاقهم ووالوهم بالهدايا من الجواري والسراري والقصور والاقطاعات . فاذا علمت ذلك رجوت ان تعدل عن رأيك الى ما هو جدير بك في مراعاة حرمة أخيك بعد ان هنأك بما نلته من حق الخلافة . وأنت اعقل من ان تغير قلبه عليك — ونحن احوج الى التكاتف على عدونا من الانقسام فيما بيننا والسلام »

فلما فرغ سعيد من الكتابة دفع الكتاب الى الامير فقرأه فأعجبه اسلوبه ولم يدرك ما فيه من التهديد فوقع عليه وختمه ونادى الحاجب وامره ان يدفعه للرسول ففعل

الفصل التاسع والعشرون

ختام الجلسة

أما سعيد فأراد أن يشغل الامير عبد الله عن ذلك الشأن فقال « هل يأمر مولانا أن يسمع صوتاً من عابدة قبل الذهاب الى الرقاد أم يفضل سماع الاحاديث والاشعار ؟ »

قال « نسمع شيئاً من أخبار العرب »

فالتفت الى عابدة وقال « قصي علينا ما تعرفينه يا عابدة »

قالت « وما عساي أن أقول بعد ما سببته من الخلاف بين الامير وأخيه أود لو أني لم أخلق أو اني لم أخرج من بغداد ولا أكون سبباً لهذا الخلاف »

فقطع الامير كلامها قائلا « انت تقدمين على وجودك ونحن شاكرون له لانك ريحانة مجلسنا واذا وقع خلاف بيني وبين أخي أعلمه أول خلاف وقع بين أخوين ولو استطعت الصبر على الضيم لم أرض بالخلاف . . ولكن أخي تجاوز حده . ما لنا ولذلك قصي علينا ما يسلينا ساعة ثم انصرف »

فقصت بعض الاخبار وأنشدت بعض الاشعار بعبارة فصيحة معربة زادت الامير تعلقاً بها وأخيراً ذهب كل منهم الى فراشه ولكل منهم هاجس وأشد تلك الهواجس عند الامير عبد الله

فانه لما توسد الفراش أخذ يراجع عبارة كتابه الى أخيه فتذكر عبارات لا تخلو من الشدة ولكنه استسلم للقضاء وقال في نفسه « لعلها فرصة يعود خيرها عليّ » واستسهل العمل بمشورة الفقيه في المطالبة بولاية العهد وعلل نفسه أن أباه لا يدع الخلاف يتمكن بين الاخوين الى هذا الحد

بات تلك الليلة قلقاً تقلب في أثنائها كثيراً وما صدق أن طلع الفجر حتى بكر الى المكتبة وبعث الى سعيد فجاء وقد تأهب لترتيب الكتب فطلب الى الامير أن يسعفه ببعض الخدم يساعدونه في حمل الكتب من أماكنها الى مكان يفرق فيه بينها حسب المواضيع . فجمع كتب الادب على حدة وكتب الفقه وحدها وكذلك فعل بكتب الحديث والتفسير والشعر ولم يجد بينها كتاب في الفلسفة أو الطبيعيات أو نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية لانهم كانوا يعدون اقتنائها من قبيل الزندقة وكان الامير عبد الله مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد [1] وقد رأيت في ما تقدم انكاره امر هذه الكتب على أخيه لما قيل له أن أخاه يقتنيها - وكان ذلك الاعتقاد شائعاً في العالم الاسلامي عملا بما يريده الخلفاء وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء في ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون أقوال الفقهاء احتفاظاً بنفوذهم لدى العامة لان هؤلاء لم يكونوا يحكمون بمثل الدين على ما يفسره رجاله

فكان للفقهاء في الدول الاسلامية يومئذ نفوذ عظيم وقد يكون الخليفة أو السلطان المسلم لا ينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها الدين ولكنه يضطهد اصحابها مراعاة لشعور العامة

على أن الفلسفة لم يكن لها وجود في الاندلس الا بعد زمن الناصر أي بعد أن دخلتها رسائل اخوان الصفا في أواسط القرن الرابع فنبغ فيها ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل في القرن السادس للهجرة . اما ايام الناصر الذي نحن في أثنائها فكان قراء الفلسفة فيها قليلين وكان قد دخل بعض كتبها في أيام عبد الرحمن الاوسط فأخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات ولم ينبغ من العلماء في هذه الفنون الا بضعة قليلة . وانما كان رجال الدين يحرمون هذه المواضيع اقتداء

(١) المقري ج ٢

بالدولة العباسية فانها كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر من أوائل التمدن الاسلامي

الفصل الثلاثون

الحمى الغضبية

كان عبد الله يراقب حركات سعيد في انتقاء الكتب حسب المواضيع وربما ساعده في فرزها وهو في شاغل من نفسه بامر أخيه وعابدة . ونحو الظهيرة أحس بانحراف في صحته وتعب فاخبر سعيداً انه ذاهب للراحة . وبقي سعيد ثم جاء الفقيه فلما قيل له ان عبد الله في فراشه أتى سعيداً واخذ يساعده ويحادثه ويتكهن كل منهما بما عساه أن يكون جواب الحكم على كتاب عبد الله الاخير مع ما فيه من المغامز . فكان الفقيه يزعم انه يتنبأ بما سيكون حتى قال « كأني أرى جند الحكم واعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدة »

فهز سعيد كتفيه كأنه يقول « لا اعلم » ثم قال « لا أحسب ولي العهد يفعل ذلك . . ما لنا وله فليفعل ما شاء ان عابدة لا تذهب اليه ولو رضي الامير عبد الله »

فضحك الفقيه واقترب من سعيد وفي يده كتاب ينفض عنه الغبار ويقدمه اليه ليضعه في مكانه وقال « وزبدة القول ان النفور قد وقع بين الاخوين ولا يلبث اميرنا ان يوافقنا على القيام وانت ترشدنا الى الاحزاب فلا يمضي العام الا وقد انتقلت ولاية العهد او الخلافة الى صاحبنا »

فنظر سعيد في عيني الفقيه وقد استغرب تسرعه في الحكم كيف انه تصور بلوغه الى اقصى المراد وهم لا يزالون في اول الطريق بل هم لم يخطوا خطوة واحدة بعد ـ ومن الناس من تراه سريع التمسك بحبل

الامل حسن الظن بالدهر اذا تصور عملا يعود عليه بالنفع فبمجرد التصور او الظن يحسب الامر قضي وانه نائل ما يريد . فهذا وأمثاله لا يرون الدنيا الا من وجهها الابيض ويعبر عنهم بالمفائلين لانهم لا يتوقعون دائماً الا الخير وكان الفقيه منهم . خلافاً للفئة الاخرى التي لا يتوقع أصحابها في اعمالهم الا الفشل وهم المتشائمون

وكان سعيد لامن هؤلاء ولا من هؤلاء وانما كان يقيس المستقبل على ما يراه في الحاضر . فكان رأيه في عاقبة تلك المخابرة يختلف عن رأي الفقيه ولكنه كان لدهائه يتظاهر بالجهل والسذاجة حتى يدس ما يريد دسه من الاغراض . وكان ينظر الى الفقيه نظره الى طفل لا يعرف من احوال الدنيا شيئاً فيديره كما يشاء

قضوا ذلك النهار في المكتبة والامير عبد الله لم يخرج من فراشه . ولما امسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عن الامير فقيل له انه محموم وعنده ساهر الحاجب فاستأذن في الدخول عليه فاذن له وسأله عن حاله فرأى الحمى قد أخذته فقال له « ألا تأمر بالطبيب يراك ؟ »

قال « واي طبيب ؟ »

قال « الاطباء كثيرون في قصر امير المؤمنين واذا شئت استحضرنا لك سلمان بن ناج طبيب امير المؤمنين نفسه او احمد بن جابر طبيب ولي العهد [1] او غيرهما ان الاطباء كثيرون »

فهز رأسه وقال « لا هذا وذاك . . »

فقال الفقيه « او اذا شئت استشرت سعيداً صاحبنا فانه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم . . انه رجل عجيب »

فلما ذكر سعيداً احسّ الامير عبد الله بارتياح وقال « ان هذا الرجل من نوادر الزمان . وأشكر الله لاني وفقت للوصول اليه . ولك فضل في ذلك »

فاطرق الفقيه تأدباً وقال « بالحقيقة ان سعيداً نادر المثال . . »

(١) طبقات الاطباء ٤٦ ج ٢

فقال الامير « وعابدة ؟ أليست نادرة المثال ايضاً ؟ . . هل رأيت مثلها فتاة أديبة تعرف الشعر والغناء ؟ » وكانه تذكر حديث الامس فانقبضت نفسه فابتدره الفقيه قائلا « هل يأذن سيدي في استقدام سعيد لعله يصف لك علاجاً ؟ »

قال « ادعه ان لم يكن للعلاج بدوائه فللا برؤيته »

فاشار الى ساهر فخرج وعاد وسعيد معه ن الليل قد ضرب سرادقه وانيرت المصابيح ولحظ سعيد من احمرار عيني الامير ان الحمى شديدة عليه فاخذ يده فجس نبضه واطرق كانه يتأمل حركة النبض ثم قال « ألم يجمع مولانا الامير ماءه (البول) »[1]

قال « قد جمعته في هذه القارورة » وأشار الى الغلام فاتاه بقارورة قد جمع فيها البول . فتناولها سعيد ونظر في الماء هنيهة ثم قال « ان مولانا مصاب بحمى غضبية وهذا النوع من الحمى لا خوف منه وان اشتدّ »

فاعجب عبد الله بسرعة حكمه ووافق ذلك ما في نفسه لانه يعتقد ذلك . وكانت هذه الحمى معروفة عندهم بهذا الاسم يومئذ في اصطلاحهم فقال « اظنك عرفت الحقيقة لاني اصبت بها مرة قبل هذه وشفيت منها . يظهر انك طبيب ماهر »

قال « ان معرفة هذه الحمى سهلة »

قال « كيف عرفتها . وعلى من قرأت الطب »

قال تعلمته بالمزاولة بمشورة امام الاطباء الشيخ محمد بن زكريا الرازي رئيس بيت الشفاء في بغداد وهو الذي دبر مارستان الري والف كتاب الحاوي الذي عليه معوّل الاطباء اليوم في دار السلام »

قال « صدقت ان الرازي امام اهل الطب ولكنني احسبه مات »

---

(١) كانت العادة في ذلك العصر ان الانسان حالما يشعر بانحراف في صحته يبادر الى جمع البول في قارورة يحملها الى طبيبه يتساعد بها على تشخيص المرض وقد يكتفي بارسال القارورة

قال « نعم انه مات منذ بضع عشرة سنة وقد جاء في كتابه المشار اليه وصف كاف عن هذه الحمى »

قال « ما هو العلاج؟ »

قال « انه يعالجها بالمفرحات من الحكايات ولسماع الطيب واللعب ودخول الحمام بالماء الفاتر والتمرخ بدهن كثير والتغذية بما يبرد ويرطب »(١)

فقال الفقيه « لله درك من طبيب نطاسي . . ان العلاج سهل . اما المفرحات فهذه عابدة قريبة وعودها رخيم والحمام الفاتر سهل المنال »

فاشار عبد الله الى الغلام ان يعدّوا له حماماً فاتراً والتفت الى سعيد وقال « سأدخل الحمام بعد قليل ومتى خرجت منه تأمر عابدة ان تغنينا صوتاً مفرحاً »

فنهض سعيد وهو يقول « سأعود الى الامير بعد قليل ومعي عابدة . . رعياً لها من فتاة لها نفع كثير »

وخرج ومعه الفقيه ثم احضر له المروخ ليتمرخ به عند الخروج من الحمام . وبعد ساعة بعث الامير اليه انه خرج وتمرخ فجاء سعيد ومعه عابدة تحمل عودها وجاء الفقيه ودخلوا على الامير في غرفته واخذت عابدة تضرب على عودها وتغني وكان الامير قد احس براحة منذ خرج من الحمام فانشرح صدره لسماع الغناء واستأنس بالفتاة وزاد تمسكا بها وشعر براحة تامة كانه لم يكن به بأس . فلما انقضى بعض الليل اشار سعيد عليه بالرقاد باكراً التماساً للراحة فاطاعه وخرجوا على ان يبكروا في الغد وذهب كل الى منزله في قصر مروان

وفي صباح اليوم التالي خلا سعيد بعابدة يعلمها شيئاً من الشعر . وهي انما كانت تلذ بمجالسته شغفاً بحديثه وتمتعاً برؤيته لما علمته من تعلقها به فانها كانت تعشقه وتتفانى في حبه لا تبالي بما تتجشمه في سبيل طاعته

(١) القانون

الفصل الحادي والثلاثون

طارق

وهو في ذلك جاءه رسول الامير يستقدمه اليه فاسرع وقبل وصوله الى باب القصر لحظ ان بالباب رسولا صقلبياً من صقالبة الناصر وتأكد ذلك لما أقبل على الباب فرأى الرسول واقفاً هناك وقد ترجل عن جواده وبجانب الجواد هودج عليه الاستار مرخية كأن فيه امرأة

فلما أقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله وأشار اليه ان يدخل على الامير فدخل فرآه لا يزال في فراشه وقد نزع عمامته ولبس قبعة النوم . ورأى الفقيه بين يديه وكلاهما ساكت وفي يد الامير رق عرف من العلامة التي على ظهره انه كتاب من امير المؤمنين . فتجاهل وحيّا وهو يبتسم وينظر الى الامير نظرة مستفهم عما هو فيه وابتدره قائلا « كيف أصبح مولانا ؟ »

قال « اصبحت بخير من فضل الله وقد فارقتني الحمى لكنني لا أظنها الا عائدة اليّ قريباً »

قال « لا تخف يا سيدي . . انها لا تعود بعد ذهابها . وماذا أرى؟ » وأشار الى الرق

فاشار عبد الله الى الفقيه ان يغلق الباب ومد يده وناول الرق الى سعيد

فتناوله وقرأه وأعاد قراءته ثم نظر الى الفقيه فرآه ينظر اليه وينتظر ما يبدو منه فتلفت سعيد حوله ثم وجه كلامه الى الامير عبد الله وقال « هذا شأن آخر ؟ لم يخطر لي حدوثه . . »

قال الفقيه « لم يخطر لك ولا لمولاي ولكنه خطر لي . . وقلته ولم تصدقوني »

قال سعيد « لم يخطر لي ان امير المؤمنين يعاديّ ولي العهد على طلبه »

فقال الفقيه « استغرب كيف لم يخطر لك ذلك وأنت الحكيم العاقل الذي لا يفوته شيء . . ألا تعلم ان الرجل اذا انغمس في الترف والقصف طلب الزيادة منهما ؟ واذا تعود الاستبداد هان عليه الظلم ؟ »

وكان عبد الله مطرقاً يفكر فرفع رأسه وقال « يهون عليه ان يظلم ابنه ايضاً ؟ »

فقال الفقيه « هو لم يظلم ابنه ولكنه ظلم الامير عبد الله التقي الزاهد انتصاراً لابنه العامل على رأيه في كل شيء . . انتصر لولي عهده »

فقطع سعيد كلامه قائلا « انه لم ينصر ولي العهد وانما يطلب عابدة الى قصره »

قال عبد الله « يطلبها اليه ليعطيها لولي عهده . . » قال ذلك وحرق اسنانه واستلقى على الفراش وتنهد

فقال سعيد « لا تغضب يا سيدي كن على يقين ان ولي العهد لا ينالها وقد سمعت من عابدة نفسها في الامس انها لا تذهب اليه ولو قطعوها اربا »

قال « ولكن هل نعصي امر والدي في ارسالها ؟ ألا ترى انه يطلب انفاذها اليه في هودج القصر ؟ ألم ترَ الهودج في الحديقة ؟ »

قال « نعم رأيته واذا ذهبت الى القصر فهو قصر الزهراء لا يقيم فيه ولي العهد كما تعلم »

قال الفقيه « ولكنه يحتال هذه الحيلة علينا لعلمه ان الامير عبد الله لا يمكن ان يعصى امر والده فيرسل الفتاة حالا ومتى صارت في قصر الخليفة سلمها الخليفة الى ولي عهده »

فأطرق سعيد هنيهة وهو يعمل فكرته ثم أعاد النظر الى الرق وقرأه ثانية وقال « لا يمكن ان يفعل ما تقول فانه يطلب ارسال عابدة ليراها بعد ان سمع بأدبها ورخامة صوتها . نعم هو يقول انه سمع ذلك من ولي العهد ولكنه اذا رآها لا يعطيه اياها »

قال الفقيه « وهل تظن ولي العهد يسكت عنها ولا يطلبها من

ابيه ؟ واذا طلبها منه هل تظن امير المؤمنين يغضبه ويمنعها عنه ؟ »

قال سعيد « أظنه يغضبه ولا يعطيه اياها »

فقال الفقيه « وهل يرضى الحكم بذلك ؟ ويرضخ كما يرضخ مولانا الامير ؟ »

فقطع الامير كلامه قائلا « ان طاعة والدي فرض عليّ وعليه فاذا لم يرض او اذا آثره والدي عليّ بهذه الجارية . . . » ولما وصل الى هنا اعتدل في مجلسه وقد اخذه الغضب وجعل يحك عثنونه ويهز رأسه يتشاغل عما جال في خاطره

فقال الفقيه « اسمع يا مولاي . . اذا امتنع امير المؤمنين عن تسليمها لاخيك وغضب هذا وتنافرا كان ذلك غاية ما ترجوه لان الخليفة يرجع عند ذلك الى حسن النظر ويجعل ولاية العهد اليك . ولكن ما قولك اذا لم يتغاضبا عليها ؟ »

وكان الامير عبد الله قد اشتد حنقه حتى عجز عن الكظم وخصوصاً في انحراف مزاجه — والرجل في حال مرضه تظهر له الامور غير ما تظهر له في حال صحته . فربما هان عليه وهو في اعتدال مزاجه وتمام صحته امور لا تهون عليه وهو مريض وذلك امر مشاهد لا ريب فيه . حتى التوعك البسيط فانه يبعث صاحبه على حدة الطبع والخروج عن الاعتدال فيخونه الصبر ويعصاه الكظم فيقول ما لا يرضاه لنفسه وهو في صحته — فالامير عبد الله كان يحمل نفسه مخض الكظم خوفاً من الفشل وكان يرجو نصرة ابيه فلما رأى اباه يطلب نفس ما طلبه اخوه غضب وهان عليه الخروج . فلما سمع سؤال الفقيه « واذا لم يتغاضبا » صاح « اذا لم يتغاضبا فأغضب أنا »

فقال الفقيه « وهل تعرف الغضب يا سيدي ؟ »

فنظر سعيد الى الفقيه شزراً وقال « أراك لا تحسن التعبير يا فقيه — ان العاقل لا يغضب الا قليلاً واذا غضب كان غضبه عظيما . ألا تذكر ما كان من صبر مولانا وطول أناته وكم اردت اغضابه ولم يغضب لانه كان

يتوسم باباً للفرج محافظة على كرامة امير المؤمنين ومراعاة لحقوق أخيه فلما لم يجده الصبر غضب وليس غضب مثله يجوز في كل حال لانه لا يغضب ويرضى في كل ساعة كالاطفال وانما يصبر ويكظم حتى اذا يئس من المسالمة غضب فتغضب لغضبه الامة برمتها ولا يرضيه عند ذلك كلمة لطيفة . وانما يرضيه حقه ان يعود اليه بعد ضياعه » وكان يتكلم بلهجة الجد فلما وصل الى هنا تراجع وأظهر انه صرح بما لم يكن يريد التصريح به

الفصل الثاني والثلاثون

الى امير المؤمنين

فأُسر قوله في الامير عبد الله ورأى الحق في جانبه وحاول مع ذلك ان يمسك نفسه فلم يجد له مسوغاً بعد ان رأى أباه ضافر اخاه على سلبه تلك الجارية فلاح له عند ذلك ان يتثبت من المساعدة التي يرجو ان ينالها اذا ناهض اباه لكنه تهيب ان يطالب ذلك من تلقاء نفسه . ونظر سعيد في عينيه نظرة اكتشف بها مكنونات قلبه وأدرك ما يجول في خاطره فعلم ان الطبخة اوشكت ان تنضج فاراد ان يتسجل نضجها فدنا من مجلس الامير ونظر اليه نظر الجد والاهتمام وقال «اعلم يا مولاي انك لم تدخر وسعاً في مجاملة اخيك وانت الآن ينبغي لك ان تجامل اباك على شرط ان لا يقلل من منزلتك ولا يميز اخاك عنك فاذا انصفك فهو امير المؤمنين . والا . . فلا يعدم الحق انصاراً »

قال الامير « ترى اذن ان ارسل اليه عابدة ؟ »

قال « ألا يقول في كتابه انه يجب ان يراها ثم يعيدها . . وانا سأكون معها كما انا معها هنا لاعلمها وافقهها فلا تخف ان يضيع شيء من حقك »

فتصدى الفقيه قائلا « اذا دخلت عابدة قصر الزهراء لا تعود الينا . . اعلم هذا من الآن »

فقال عبد الله « فاذن لا أخرجها من منزلي الا بالقوة »

فقال سعيد « ليس هذا من حسن السياسة في شيء . . سنذهب الآن واذا مضى يومان ولم يؤذن برجوعنا حق لك كل ما تريد »

وكان الفقيه يفكر في الامر ولا يرى هذه الطريقة تنيله مطلوبه فربما حبس سعيد هناك ولا يبقى له من يعوّل عليه في نصرة الامير للقيام على ابيه فقال « لا نأمن اذا دخلت قصر الزهراء ان يحجر عليك »

فقطع كلامه قائلا « لا تخف »

وهم في ذلك جاء ساهر وقال « ان الرسول يطلب الجواب حالا »

فالتفت سعيد الى الامير فرآه ينظر اليه فقال « اكتب الى ابيك أنك اطعت امره وارسلت الجارية مع استاذها واطلب اليه ان يعيدها اليك بعد يومين . . . هل اكتب عنك لانك تعب من الحمى ؟ »

قال « افعل »

فتناول قرطاساً وقلماً وكتب :

« الى امير المؤمنين الناصر من ولده عبد الله

« اما بعد فقد اخذت كتاب سيدي الوالد يطلب به الجارية الاديبة التي كان اخي الحكم طلبها لنفسه فدفعته بالحسنى على ان يكتفي بما منح من نعم الله وفضل امير المؤمنين ويترك لي هذه الجارية أتمتع بأدبها وغنائها في وحدتي وانقطاعي . ثم جاءني كتاب مولاي بتوجيهها اليه ليراها ثم يعيدها فأطعت وفعلت وقد أنفذتها مع أستاذها سعيد الوراق . وهو الذي جاءني بها واشترط ان يكون في صحبتها ليقرئها الآداب ويحفظها الشعر وهو أهل لثقة امير المؤمنين وعهدي بالمولى حفظه الله ان يعمل بما قال وعنده ألوف من الجواري الحسان على اختلاف الاصناف فلا يبخل عليّ بهذه وقد استأنست بأدبها . . . وهو فاعل ان شاء الله »

ودفع الكتاب الى الامير عبد الله وقرأه ووقع عليه اسمه ودفعه الى ساهر ليعطيه الى الرسول . واستأذن سعيد بالذهاب الى عابدة وكانت في غرفتها تنتظر امر عبد الله في الخروج اليه . فلما رأت سعيداً قادماً عليها خفق قلبها فرحاً برؤيته فهش لها وسلم عليها ومد يده لمصافحتها فصافحته وقلبها يرقص فرحاً ولبثت تنتظر ما يقوله

فاجلسها وجلس الي جانبها وهو ينظر في عينيها فلم تمالك عن الاطراق فقال « قد وفقت الى ما يسرك »

فاجفلت وقالت « هل آن لنا ان نجتمع ؟ »

قال « نعم »

فضحكت فرحاً وقالت « اين ؟ »

قال « في قصر الزهراء »

فدهشت ولم تفهم مراده وبان الاستغراب في وجهها وقالت « مالي ولذلك القصر ؟ »

قال « ان المهمة التي جئت من اجلها لا تتم الا هناك »

قالت « اني لا اطلب القصور »

فقال « ألا يسرُّك ان نكون معاً هناك ؟ »

قالت « كلا . لاني لا اكون لك »

قال « لا يتم لنا ما نريده الا بعد الذهاب الى ذلك القصر وستكونين هناك جارية منادمة وادب الى اجل مسمى . . »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا اريد القصور . افضل ان اكون معك في كوخ حقير على ان اكون . . »

فقطع كلامها وقال وهو قابض على يدها ينظر في عينيها « اريد ان نكون معاً هناك وقد وعدت ان تساعديني على الغرض الذي قمنا من أجله »

فأحست بقشعريرة ذهبت بارادتها وشعرت انها طوع ارادته ولم تتمالك ان قالت « افعل ما تريد اذا كان ذلك يسرك »

قال « لا يسرني فقط ولكنه واجب لا بد من قضائه فاذا فرغنا من هذه المهمة تفرغنا للحياة معاً . . هل انت على وعدك بان تفعلي ما أوصيك به ؟ »

قالت « نعم »

فمد يده الى جيبه واستخرج حقاً فيه مصوغ وقال « احتفظي بهذا العقار لانبئك بما يلزم ان تعملي به »

فتناولت الحق وجعلت تنظر فيه فقال « لا تنظري فيه طويلا سوف تعلمين ماذا تفعلين به . خبئيه بين ثيابك وانهضي لنذهب معاً ان الهودج في انتظارك خارجاً »

فنهضت وأصلحت من شأنها وهي مسرورة بانها تفعل ما امرت به ونسيت ارادتها وتغاضت عن أمنيتها كأنها اخذت بالاستهواء

خرجت وركبت في الهودج وتوجه هو الى الامير عبد الله فودعه وودع الفقيه وطمأنهما وركب بغلته وسار في اثر الهودج يطلبون قصر الزهراء

ولم يكن لهم بدٌّ من المرور على القنطرة فوق الوادي الكبير فتجاوزوها والرسول يتقدمهم وهم يسيرون في اثره وسعيد يهيء ما يقوله وعابدة داخل الهودج تسترق النظر اليه من خلال السجف كلما سنحت لها الفرصة وكلما رأته تتنهد وتقول كأنها تخاطبه « ما لنا والملوك والدول دعنا من هذه المطامع ولنعش معاً في رغد وهناء . ليس في صحبة الملوك غير العناء . ولكن ابت مطامعك الا ان تشقى وأشقى انا معك ولا ندري مصيرنا اين يكون »

الفصل الثالث والثلاثون

قصر الزهراء

وبعد ان قطعوا الجسر عرجوا غرباً بجوار القصر الكبير ثم ساروا شمالاً يطلبون الزهراء وهي سفح جبل اسود على اربعة اميال من قرطبة والطريق بينها وبين قرطبة صحراء رملية

أقبلوا على الزهراء عن بعد قبيل الظهر وكان يوماً صاحياً صفا جوه فبانت ابنية الزهراء كالجبال الراسخة تتخللها الاغراس من الشجر والرياحين وتنعكس الاشعة عن جدرانها الملونة بانواع الرخام او الاصباغ وبينها القباب والمآذن والقناطر والعقود والاساطين وعليها النقوش والتصاوير . غير الاحواض فوقها التماثيل من المرمر المصفح بالذهب . فدهش سعيد لتلك المناظر ولم تكن اول مرة رأى بها الزهراء ولكنه لم يكن تبين تفاصيلها فرأى ان يلهو بقية الطريق بالاستفهام عنها فنادى الرسول الصقلبي فوقف ولباه فقال سعيد « اني ارى الزهراء اعجب ما صنعه الادميون »

قال « نعم يا سيدي . قد اجمع الذين شاهدوها انها اعظم ما صنعه الانس وقد دخل فيها من النفقة الطائلة ما لا يقدر — فان امير المؤمنين اخذ في بنائها منذ بضع عشرة سنة ولا يزال العمل جارياً ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنين »

قال سعيد « أتعرف كم بلغ مقدار النفقة ؟ »

قال « لا اعرف مقدارها تماماً ولكنني اعلم ان عدد العملة فيها ١٠٠٠٠ عامل وعدد الدواب ١٥٠٠ دابة . وقدروا ما ينفق فيها من الصخور المنحوتة كل يوم بستة آلاف صخرة سوى الاجر . واما الرخام فهو كثير في هذا القصر كما ترى ومع ذلك فان امير المؤمنين يثيب عن كل رخامة صغيرة او كبيرة عشرة دنانير ولم يدع بلداً فيه رخام

الا بحث في اشتراء رخامه حسب الاجناس . فجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من اسفاقس وقرطاجنة . وفي بعض هذه القصور حوض من الرخام منقوش بالذهب قد استجلبه من القسنطينية فانظر الى هـذه الهمة العالية هل سمعت بمثلها في الملوك ؟ »

فاحب سعيد ان يستزيده شرحاً عما في تلك القصور من أدلة البذخ والاسراف فقال « لم اسمع بمثله ولـكنني سمعت بعض الملوك لا يكتفون بالرخام في ابنيتهم فيدخلون فيها الذهب والفضة . . . »

فقطع الصقلبي كلامه وقال وهو يضحك ويشير بيده الى قصر نحو الشرق « أرأيت هذا القصر الشاهق هناك ؟ انك لا ترى منه الا ما يكاد يخطف البصر من الاشعة اللامعة المنعكسة عن الجدران والنوافذ . ولو اقتربت منه لرأيت عجباً . ان هذا القصر يعرف بالمؤنس ويسمى ايضاً المجلس الشرقي وفيه بيت المنام . وفي هـذا البيت ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس من صنع دار الصناعة في هذه المدينة بينها صورة اسد الى جانبه غزال فتمساح وغيرها من اصناف الحيوان منصوعة من الذهب المرصع . ويخرج الماء من افواهها الى حوض كبير — ان بناء هذا القصر كلف امير المؤمنين ما لا يقدر . ولم يعول في مناظرة بنائه على غير ابنه ولي العهد ولا يزال العمل جاريا فيه . فاذا اعتبرت ما يقتضيه ذلك من الاموال علمت مقدار ما دخل فيه من الدنانير على اني سمعت صديقا لي من خصيان هـذا القصر يقول ان امير المؤمنين ينفق ثلث جباية المملكة في بناء هذه القصور »

فصاح سعيد « ثلث الجباية ! ان ذلك كثير . . أتعرف مقدار الجباية يا صاحب ؟ »

قال « اعرف انها نحو ستة آلاف الف الف دينار هكذا يقولون[1] »

(١) المقري ٢٧٠ ج ١

فقال سعيد « فاعتبركم هو ثلثها واجمع ذلك مراراً . . لا يخلو هذا القول من مبالغة »

قال الحصي « لا . لا اظنك تجد فيه مبالغة اذا عرفت كيف بني قصر الخلافة ايضا وهو البناء الذي تراه في اواسط هذه القصور . ان قصر الخلافة هذا سمكه من الذهب والرخام الغليظ وفي وسطه اليتيمة التي جاءتنا هدية من اليون ملك القسطنطينية . ويكفي ان تعلم ان قراميد هذا القصر من الذهب والفضة [1] غير الصهريج القائم في وسطه مملوء بالزئبق ولمجلس هذا القصر ابواب عقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . ولا حاجة بي الى زيادة التفصيل اذ لا تلبث ان ترى ذلك رأي العين فلا تستغرب عند ذلك مهما قدرت النفقة »

فقال سعيد « لا تستهن بمقدار الجباية ولكنني سمعت من بعضهم ان مقدار النفقة تبلغ كل عام ٣٠٠ ٠٠٠ دينار فانظركم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء في اربعين سنة »

وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب وتاقت نفسها الى رؤية ما هنالك من التحف وذهبت وحشتها من ذلك الانتقال

وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً حتى أقبلوا على باب الزهراء الاول ويعرف بباب الاقباء قد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم . فلما رأوا الصقلبي عرفوا انه رسول الخليفة فتنحوا له حتى دخل بالهودج وسعيد معه يتفرس في وجوه الناس هناك فرأى اكثرهم من العبيد . فمشى مسافة حتى أقبلوا على الباب الثاني من ابواب الزهراء ويعرف بباب السدة . وهو عظيم قائم على اساطين وعليه البوابون واعوانهم بالالبسة الخاصة بهم . وبعد ان دخلوا هذا الباب جعلوا يمرون بين الاشجار وبينها طرقات مرصفة بالحصى الملونة . وقد تزينت جوانبها الرياحين والازهار . ونظر سعيد الى ما حوله فوجد نفسه محاطاً

(١) المقري ٢٥٠ ج ١

بالقصور من كل ناحية . واول ما استقبله القصر الممرد وفيه السطح الممرد يجلس فيه الخليفة في الاحتفالات الكبرى . والى يساره قصر الخلافة يجلس فيه الخليفة للعمل والى اليمين قصر المؤنس وفيه بيت المنام وغرف الجواري

الفصل الرابع والثلاثون

ياسر

وشغل سعيد بمشاهدة السارحين في تلك الحدائق من الغلمان الوصفاء عليهم الالبسة الملونة تزيدهم جمالا وقد تقلدوا السيوف الحالية . غير كبار الخصيان وذوي الاسنان . ولم يلتفت احد منهم الى الهودج وأصحابه لانهم كثيراً ما يرون الجواري تحمل به الى هناك

وكان سعيد يبحث بنظره بين هؤلاء لعله يجد ياسراً صاحبه ثم انتبه انه لابد من ان يراه ليسلم اليه عابدة لتكون في عهدته حتى يطلبها الخليفة فنادى الرسول فوقف فقال له « اين هو ياسر رئيس الخصيان »

فاشار بيده نحو قصر المؤنس وقال « نحن ذاهبون اليه »

فمشى سعيد معه حتى اذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول يترجل بسرعة فادرك انه يفعل ذلك لانه رأى أحداً ممن يحتشم منهم قادماً . فالتفت فاذا هو بياسر قادم وحوله الغلمان كانه ملك بين الاتباع والاعوان . فاسرع الرسول اليه وقبل يده ووقف متأدباً فسأله عن خبره فدفع اليه كتاب الامير عبد الله وأشار الى سعيد . فالتفت ياسر اليه وحالما وقع نظره عليه عرفه وتقدم نحوه فاسرع سعيد اليه وحياه فابتسم ياسر له وتفاهما . ثم اشار ياسر الى الغلام ان يأخذ عابدة الى غرفة خصوصية وان يحسن وفادتها حتى يأمره باستقدامها ففعل

ومشى وسعيد الى جانبه بين اساطين قائمة هناك وفوقها عريش قد تسلقت عليه الاعشاب فلما خلوا قال ياسر اني مسرور بقدومك »

فقال سعيد « لو لا علمي ان قدومي يسرك لم آت . . كيف انت وكيف مولانا ؟ »

قال « مولانا كما تعهده لايهمه الا الانفاق وأنتم تعيبون عليه مسايرته لغير العرب ونحن لا نراه يحسن مسايرتنا فلا العرب راضون ولا غيرهم — انت تعلم منزلتي وبلائي في خدمته فاني اراه يقدم تماماً عني ولا يخفى عليك من هو تمام هذا وانا قدمته حتى بلغ هذه المنزلة — دعنا من ذلك ما الذي جئت به اليوم ؟ »

قال « لا تغير الموضوع - انت تستغرب حال تمام معك وتعجب كيف يريد ان يحط من قدرك ألا تعلم السبب . . ؟ »

قال « لا » قال « السبب انك أحسنت اليه ولعلك احسنت الى شخص آخر فساعده عليك »

فاطرق ياسر لحظة وقال « صدقت صدقت انك رجل حكيم . . قد اصبت الحقيقة عرفت الآن سبب هذا التغيير »

قال « لا اعجب اذا عرفته انت الآن وأنا عرفته منذ أيام »

قال « ما هو »

قال « السبب أصله من الشخص الذي انت سبب نعمته . . . نسي الآن فضلك عليه فضافر اعداءك

قال « انت تعني الزهراء صاحبة المقام الاول عند امير المؤمنين وهي ليست بريئة من هذه التهمة لكنها اطاعت تماماً الخبيث فذكرتني ذكراً بارداً عند الخليفة ففترت رغبته فيّ وان كان لا يزال يظهر رضاءه عني .. ولكنني اعلم كيف أنال منهما . . دعنا الآن من ذلك واخبرني عما جئت من اجله

قال « ألم تأخذ الكتاب »

قال « نعم لكنه كتاب الى امير المؤمنين لم افتحه »

قال « هو من الامير عبد الله ارسله مع هذه الجارية الى ابيه »

قال « ارسلها هدية له ؟ »

قال « بل برغم ارادته وكانت هذه الجارية عندي وهي جارية منادمة وأدب فرغب الامير اليّ أن اتركها له وأكون معها في قصره أرتب خزائن كتبه فاطمته . فلما سمع ولي العهد بخبرها كتب الى اخيه أن يرسلها فلم يرض فشكاه الى ابيه فبعث الناصر يطلبها لنفسه فلم يسع الامير عبدالله الا الطاعة ولكنه كتب اليه هذا الكتاب يرجوه فيه أن يعيدها اليه بعد ان يراها ولا اظنه يفعل »

فقال ياسر « واذا لم يفعل ما ظنك بعبد الله »

قال « أتحسبه لا يزال على سذاجته وسهولته ؟ ان الامير قد تغير »

قال « قد تغير ؟ بشرك الله بالخير . . هل انتبه لنفسه وما آلت اليه حال الدولة »

قال « لحظت منه أنه لا يسكت على الضيم اذا سامه اياه أبوه »

وكانا يتحادثان وهما يمشيان في ذلك الطريق يسمعان تغريد البلابل واصوات السكراكي وسعيد قد بهره كلما رآه هناك . لكنه لم يصل بعد الى الموضوع الذي يهمه حقيقة ولكنه استبشر بقرب الوصول اليه وهو على قاب قوسين منه . ورأى انه ابطأ في ايصال الكتاب الى الناصر فقال « ألا تأخذ الكتاب الى صاحبه ؟ »

قال « بلى . هل تأتي معي ؟ »

قال « ارافقك الى قصر الخلافة وبعد تقديم الكتاب فاذا أمر الخليفة بادخالي دخلت »

الفصل الخامس والثلاثون

مجلس الخليفة

قال « حسناً » ومشى وسعيد يمشي الى جانبه واتجهت انظار الخدم نحوه هذه المرة لانه مع ياسر رئيس الخصيان وهو صاحب النفوذ الاكبر في قصر الناصر والناس لا يعرفون ما حدث في خاطره كما عرف القارئ .

ولكن سعيداً شغل عن كل ذلك بفخامة قصر الخلافة فما أطل على بابه حتى بهره ما نزل فيه من الذهب وما على عتبته من بديع النقش فوقف الحجاب تنظيما لياسر فحياهم ثم سألهم « هل عند امير المؤمنين أحد ؟ »

فاجابه رئيس الحجاب « ليس عنده سوى القاضي منذر بن سعيد »

فتذكر سعيد هذا الرجل وقد حضر خطبته يوم الاحتفال برسل ملك الروم وأدرك انه انما نال القضاء بسبب ذلك

أما ياسر فدخل وسعيد معه فادهشه داخل ذلك القصر أضعاف ما ادهشه خارجه لان جدرانه مبطنة بالرخام الفليظ الملون على اختلاف اجناسه بصنع عجيب . وسقفه قد نزل فيه الذهب فشيا في دهليز حتى انتهيا الى باحة كالبهو سقفها مزين بأنواع الاصبغة المذهبة والصقالبة وقوف بالحراب والسيوف وكان سعيد يمشي ولا يتكلم وقد أخذ بذلك البذخ الباهر ولحظ ياسر دهشته فقال « اراك قد دهشت لما تراه ونحن لم ندخل مجلس الخليفة بعد فاذا دخلته فهناك الدهشة »

فقال « وهل في الامكان افخم من ذلك ؟ قد شاهدت قصور الخلفاء في بغداد ودمشق فلم أر مثل هذه »

قال « ان اولئك كانوا يستنكفون من استخدام الذهب في ابنيتهم. امكث هنا حتى ادخل وأعود اليك »

فوقف وشغل بمشاهدة ما على رخام الجدران من الرسوم الجميلة المنزلة بالذهب وما في الارض من الطنافس المزركشة . وهو في ذلك رأى الحجاب الصقالبة في حركة كانهم يتأهبون للسلام على قادم . فالتفت فرأى منذر بن سعيد خارجاً من مجلس الخليفة فاصبح يتوقع سرعة استدعائه اليه لكنه مكث طويلا ولم يطلب فشغل خاطره . ثم جاءه احد الخصيان يسأله الدخول على امير المؤمنين فدخل متأدباً وكان قد شاهد الناصر في قصره بقرطبة يوم استقبال رسل ملك الروم وكان ابناؤه الى جانبيه . أما في ذلك اليوم فلم يكن في مجلسه سواه بعد أن صرف قاضيه منذر بن سعيد

فلما دخل سعيد على الخليفة رآه في صدر المجلس قاعداً على سرير من الذهب الخالص . والمجلس المذكور قاعة كبيرة جداً في وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر لانها مملوءة بالزئبق تقع عليه أشعة النور من نوافذ في جدران المجلس يغشاها زجاج ملون فيتلون سطح الزئبق ألواناً جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالا

والمجلس اربعة جدران في كل جدار منه ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي . وقد دخلت الشمس من تلك الابواب فضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فتولد من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحضور أن المجلس قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك (١)

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتمالك عن الدهشة من فخامة ذلك المجلس . ولو نظر الى السقف لرأى قرميده من الذهب والفضة مرتباً في هندسة جميلة ولكنه اشتغل بالمثول بين يدي الخليفة فوقف عن بعد وحنا رأسه ثم حيا الناصر بتحية الخلافة فقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وظل واقفاً فوقع صوته في أذني الناصر موقعاً جميلا فاشار اليه الناصر ان يتقدم فدار حتى وقف بين يديه فأومأ اليه ان يقعد فقعد وياسر لا يزال واقفاً . ثم انصرف ياسر ولم يبق في ذلك المجلس الكبير الا الخليفة وسعيد

وتأدب سعيد في قعوده وأطرق فوقع بصره على الزئبق فشغله لمعانه الباهر ولكنه مكث صامتاً ينتظر أمر الخليفة وكان قد لاحظ في وجه الناصر انقباضاً وكأنه شاهد في عينيه دمعاً فافتتح الخليفة الكلام فقال « أين الجارية التي بعث بها ولدنا »

(١) المقري ٢٥٠ ج ١

قال « هي في قصر امير المؤمنين استلمها عبده ياسر رئيس الخصيان »

قال « من اين اتيت بها ؟ بلغني من كتاب ولدي هذا انك صاحبها تعلمها وتهذبها »

قال « هي يا امير المؤمنين جارية ادب ومنادمة من مولدات بغداد »

قال « بلغني أنها تحسن الغناء أيضاً »

قال « نعم يا سيدي انها كذلك »

فقال الناصر وهو يغمط لحيته بأنامله « بارك الله في بغداد انها لا تزال تأتينا بالتحف والذخائر . وهل انت من بغداد ايضاً ؟ »

قال « ان عبد امير المؤمنين من هذه الديار ولكنني رحلت الى بغداد والشام في طلب الكتب وجمع نوادر الادب »

قال « بلغني انك من نوابغ الرجال »

فوقف سعيد تأدباً وحياء وقال « لست شيئاً ولكنني أكون كما يشاء امير المؤمنين »

فقال الناصر وهو يشير اليه ان يقعد « اقعد ولا ينبغي أن تهيب من مجلسنا فقد علمت من خادمنا ياسر انك من اهل العلم الواسع ونحن نحب العلم ونكرم العلماء »

فتحفز سعيد للوقوف ثانية فاقعده الخليفة وقال « قلت لك لا تهيب ان العلماء ملوك العقول ولا يستغني ملوك الرقاب عنهم . كن مطمئناً ولازيدك اطمئناناً أقول لك انظر الى عينيّ »

فرفع سعيد بصره ونظر في عيني الخليفة فرأى الدمع فيهما وأحس الخليفة عند وقوع بصره على بصر سعيد بقوة أثرت فيه كأن سعيداً ارسل من عينيه أشعة نفذت في احشاء الناصر . ولكنه أتم حديثه فقال « أرأيت الدمع في عينيّ ؟ انه من احترامنا لاقوال اهل العلم . أرأيت قاضينا خارجاً الآن ؟ »

قال « نعم يامولاي »

قال « قد كان عندي الساعة ولعلك تعلم اني وليته القضاء بالامس فما

عمّ ان خطب في المسجد وجعل موضوع كلامه ذم تشييد البنيان والاسترسال في الزخرفة والاسراف في الانفاق وأغرق في ذلك فعرفت انه ينتقد ما اخذت به من هذه الابنية فما ملكت أن بكيت ثم استقدمته اليّ اليوم لاسأله عما أراده فاكتفى قصده وأتاني بآيات من القرآن الكريم تقبيح عملي فاشفقت على نفسي وبكيت . وانما اتيتك بهذا القول ليسكن ما بك وتخلص لي الخدمة »

فحنا رأسه وقال « اني عبد امير المؤمنين وطوع ارادته »

قال « اني أعرفك قبل الآن يا سعيد وقد طالما قرأت اسمك على الكتب التي أحضرت لنا على يدك . . فهل عندك كتب جديدة ؟ »

قال « لا يخلو الامر من كتب سأعرضها على امير المؤمنين ولكنني أتيته بكتاب حي ناطق لا يسأل عن أدب او شعر الا نطق به »

فشخص الناصر فيه كأنه يستفهمه . فقال « اعني الجارية عابدة التي صارت في قصر الزهراء الآن فهي تغني عن الكتب وقد انقطعت عن سائر الاعمال في سبيل تعليمها »

قال « سنحضرها ونشنف أسماعنا بحديثها . . واما الآن فاصدقني . قد بلغني انك بارع في فن التنجيم »

فقال ذلك شيء تعلمناه من الصغر ولا يزال بعضه عالقاً بالذهن »

قال « ان خير العلم ما أخذ في الصغر لانه يكون كالنقش في الحجر »

الفصل السادس والثلاثون

التنجيم

ولم يبرح الملوك في عصر الاستبداد يشعرون بحاجتهم الى المنجمين لكثرة من يحدق بهم من أهل الدسائس والمتملقين فهم لا يثقون بهم ولا يرون لهم بدًّا عنهم . فاذا كانوا يعتقدون النجامة استعانوا بها على استطلاع الاسرار وكشف المؤامرات . وكان الناصر قد سمع عن سعيد الوراق

من قبل وعن مهارته في كل فن ولما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيداً بالخير وأطرى علمه وبراعته في النجامة فوقع من نفسه موقعاً حسناً . ولم يكن الناصر ساذجاً فلم يشأ ان يستسلم لسعيد قبل ان يتدبر أمره فسأله عن قبيلته فقال له ياسر « انه غريب لا اهل له ولا يهمه غير الاشتغال بالكتب وبيعها » فسبق الى ذهنه حسن الظن به وفتح له قلبه من اول جلسة ولما كلمه شعر بقوة فيه ارتاح لها وتوقع أن يكون له عون في اضاءة طريقه

أما سعيد فلم يفته شيء مما خال في خاطر الناصر فاخذ يستعد لتدبير ما جاء من اجله فقال « لا ينبغي لمولاي حفظه الله أن يستسلم لحقير مثلي ولا يركن الى النجامة كثيراً فانها قد تخطئ »

فاعجب الناصر بتواضعه وزاد وثوقاً به فقال « ان تنصلك من المعرفة التامة يزيدني ثقة بعلمك فاني لم ار بين المنجمين الكثيرين في قصري من يعترف بالقصور مثلك »

فرفع سعيد بصره الى الناصر وحدق في عينيه وقال « ولكنني لا احب ان ادعى منجماً . . اذا شاء مولاي ان ينتفع بشيء من علمي فارغب اليه ان يكتم خبري عن خاصته ولا يعدني في جملة المنجمين بل يجعلني في جملة الخدم ويجعل اني معلماً لتلك الجارية وأنا لا ادخر وسعاً في بذل روحي في خدمته من كل وجه »

فاستحسن الناصر رأيه وقال « سأفعل ذلك اما الآن وقد فتح الحديث فاخبرني بما يدلك عليه علمك من حالنا . قل لا تخف »

قال « اني لا أخاف شيئاً ولكني اطلب الى مولاي ان يخلص النية في ما أقوله وربما كان في بعضه ما يخالف اعتقاده . . »

فاستبشر الناصر بشيء يطلع عليه فقال « قلت لك قل ولا تخف . أخرج كتابك وانظر اليّ وقل ما يدلك عليه علمك »

فمد سعيد يده الى جيبه واستخرج كتاب التنجيم ففتحه وأخذ يقلب فيه وينظر الى الناصر ويعيد النظر الى الكتاب ويعد على أصابعه

ويلتفت الى أشعة القمر تارة والى بركة الزئبق تارة أخرى . ثم اظهر الارتباك وقال « اعفني يا سيدي من القول اليوم »

قال « لست تاركك حتى تقول »

فاعتدل في مقعده وأعاد النظر في الكتاب ثم قال « اني ارى الخوف يأتي أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده . . » وسكت وهو يقلب في صفحات الكتاب ويراقب ما يبدو من الناصر

أما الناصر فكان لكلام سعيد وقع شديد على سمعه وقد نبه افكاراً كانت كامنة في قلبه ولكنه غالط نفسه وتظاهر بالاصغاء كأنه يسمع بقية الحديث

فلم يفت سعيداً ما جال في خاطر الخليفة فاستأنف الكلام قائلا « اخشى ان يكون مولاي امير المؤمنين قد ندم على سؤاله والحاحه »

فقال « كلا بل بالعكس فاني مصغ لما تقول . ولكن نصف الخطاب ليس له جواب . قل . صرّح »

قال « يظهر ان مولاي يظن المنجم يستطيع تعيين الاشخاص فاذا كان قد قيل له ذلك من قبل فان القائل ليس من المنجمين أو انه يزعم للتنجيم قوة فوق قوته — ان هذه الصناعة تقبل التدجيل والايهام مما لم أألفه — وأنا لا اقول الا ما تدلني عليه الصناعة تماماً وهي انما تشير الى الاوصاف والاحوال . . وقد قلت لسيدي ان الطالع داني ان الخوف في دار امير المؤمنين من اكثر الناس ثقة عنده واقربهم مودة اليه ولو سألني عن اسم ذلك الرجل او تلك المرأة فلا يكون جوابي الا من قبيل الرجم بالغيب »

فاعجب الناصر بما رآه من صدق لهجة الرجل وعزة نفسه ولكنه توهم انه يشير الى الناس لا يريد الناصر ان يرتاب بهم ولا هو يرتاب بصدق المنجم فاصبح في حيرة وندم على تعريض قلبه للشك لانه شديد الحرص على ذلك الحبيب محل ثقته — وهي الزهراء اذ لم يكن اعز منها على قلبه ولا يريد ان يجعل سبيلا لسوء الظن بينه وبينها نظراً لولعه بها وشدة

تعلقه بحبها وقد انفق الاموال في تشييد تلك القصور لاجلها فكيف يجلب التعاسة لنفسه بالشكوك وهو لا يرى له غنى عنها بوجه من الوجوه — وقد امتلكت فؤاده وغلبته على امره . فلم ير خيراً من قطع الحديث او تحويله فقال « لله درك من حكيم خبير قد فهمت مرادك وسنعود الى اتمام المقال . اما الآن فاري ان نشاهد تلك الجارية الاديبة »

فاسرع سعيد الى طي الكتاب وجعله في جيبه وقال « هي في دار مولاي بقصر المؤنس في حياطة عبدك ياسر » قال ذلك وقد سره اكتفاء الخليفة بما قاله

قال سنبعث اليه ان يهيء لنا الجارية ويحضرها الليلة الى بيت المنام في المجلس الشرقي (المؤنس) »

فادرك سعيد انه قد آن الانصراف فتحفز للنهوض وهو يقول « هل يأذن سيدي ان أمرّنها على شيء تقوله في حضرته ؟ »

قال « لا بأس بذلك . . افعل »

الفصل السابع والثلاثون

عابدة

فخرج سعيد بعد ان حيا وتأدب على جاري العادة ومشى في الايوان والخصيان وقوف باسلحتهم وملابسهم

ولم يكد يخرج من الباب حتى لقيه ياسر ومعه رجل عرف سعيد من لباسه وقلنسوته انه سليمان ابو بكر بن تاج طبيب الناصر . وكان سعيد يعرفه ويعرف مهارته في الطب ومنزلته عند الناصر بعد ان شفاه من رمد [1] عرض له فجاء فابتدره ياسر قائلا « ألم تعرف هذا الطبيب ؟ »

قال « كيف لا ؟ أليس هو ابا بكر بن تاج الحكيم النبيل ؟ »

(١) طبقات الاطباء ج ٢

فهش له الطبيب وصافحه وقال « لله درك صدق الاستاذ ياسر . . انك لا تجهل شيئاً وقد سرني أن لقيتك الساعة وأنا أعلم مهارتك في معرفة الكتب وقد سمعت بكتاب في الطب قيل لي انه أحوى الكتب وأحسنها »

فقطع سعيد كلامه قائلا « لعلك تعني كتاب الحاوي لمحمد بن زكريا الرازي »

فبدا الاستغراب في وجه الطبيب لسرعة خاطر سعيد وتفطنه وقال « اياه أعني »

قال « انه كتاب نفيس وهو أحسن كتب الرازي وأعظمها في هذه الصناعة لانه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله »(١)

قال الطبيب « هذا هو الكتاب . وقد سمعت اطراءً كثيراً فيه فهل من سبيل اليه ؟ »

قال « لا أعرف منه نسخاً في قرطبة ولكنني أبعث من يستنسخه لك في بغداد . وقد درسته وحفظت أهم مواده » قال ذلك وهو يمشي والطبيب بجانبه وياسر الى الجانب الآخر والحرس ينظرون الى ذلك الضيف ويعجبون بما لاقاه من الحفاوة لدى أمير المؤمنين

قال ابن تاج « اذا أذنت الفرصة في استنساخ هذا الكتاب لي عددت ذلك فضلا كبيراً لك »

قال « سأفعل ان شاء الله » والتفت الى ياسر وقال « أخبرني أمير المؤمنين انه سيكلفك تحضير عابدة الليلة في بيت المنام ليسمع غناءها وأنا ذاهب الآن لتعليمها بعض ما تقوله في حضرته »

فعلم الطبيب انه آن له أن يستأذن بالانصراف فانصرف وهو يثني على سعيد وسار سعيد وياسر الى جانبه وهو يقول له همساً « كيف وجدت الرجل (يعني الناصر) ؟ »

(١) طبقات الاطباء ج ١

قال « انه كما ينبغي ولكل أجل كتاب »

ثم سمع ياسر صوتاً يستوقفه فنظر فاذا ببعض الصقالبة يقول له « ان أمير المؤمنين يدعوك اليه » فقال « اني آت الساعة » ثم التفت الى سعيد وقال « اني منصرف الى أمير المؤمنين واذهب أنت مع هذا الصقلبي وهو يدلك على مكان عابدة »

ومشى سعيد والصقلبي بين يديه حتى أتى قصر المؤنس فتحول به الى غرفة من غرف الاضياف وقال له « سأرسل اليك عابدة الساعة » ومضى

ومكث سعيد وهو يعمل فكرته في ما يدبره لاتمام غرضه . وبعد قليل جاءت عابدة وقد تزينت باحسن الملابس وأتقنت هندامها فرأى فيها جمالا لم يعهده بها من قبل فعلم انها تتوقع احتفاءه بها فهش لها ورحب بها وأجلسها الى جانبه فجلست وهي تبتسم وقلبها يخفق وقد تبادر الى ذهنها أن حسن هندامها يزيده رغبة فيها لانها ما برحت الى تلك الساعة تخاف صدوده . ورغم ما كان يبديه لها من الانعطاف ما زالت تخاف أن يؤخذ منها . أما هو فرحب بها وبالغ في اظهار اعجابه بها فجلست وهي مطرقة تنتظر ما يبدو منه فقال لها « كيف تجدين نفسك هنا ؟ »

فتنهدت وقالت « أجدني تعسة »

قال « أتقولين الحق ؟ »

قالت « نعم وحياتك » قالت ذلك وصوتها يرتجف

فقال « وهل يمكن أن تكوني في حال أحسن من هذا ؟ وأنت الآن جليسة الخليفة وموضوع اعجابه ؟ »

فتنهدت وهي تنظر اليه وتحاذر أن ينظر هو اليها لئلا يدفع نظره نظرها وقالت « ألم أقل لك اني لا أطمع بشيء من هذه السفاسف وانما منيتي وغاية مطلبي هي أن . . . » وسكتت

فقال « فهمت مرادك وقد قلت لك ان ذلك ميسور لنا متى شئنا ولكن لا بد من اتمام الامر الذي جئنا به .. أين هو ذلك الحق ؟ »

قالت « هو عندي في مكان أمين »

قال « احتفظي به . . واعلمي ان أمير المؤمنين سيدعوك الليلة ليسمع حديثك ويتمتع بغنائك فابذلي الجهد في ارضائه

قالت « سأفعل ذلك جهد طاقتي »

قال « غنيه مما حفظته من كتاب الاغاني »

قالت « حسناً . . سأفعل »

قال « هل عرفت أحداً من أهل هذا القصر ؟ »

فاجفلت لعلمها أن ذلك القصر ليس فيه أحد غير الجواري والسراري وهي تغار من مجرد سماع ذلك من حبيبها ولكنها لم تستطع السكوت عن الجواب فقالت « عرفت بعض نسائه »

قال « من عرفت منهن ؟ »

قالت « أنت تريد أن أخبرك عن الزهراء زينة هذه القصور كلها » قالت ذلك وهي تنظر اليه وعيناها تبرقان وتراقب ما يبدو منه

فاظهر عدم الاكتراث بما ظهر منها وقال « الزهراء ؟ قد بلغني انها ربة هذه القصور لشدة تعلق الخليفة بها . . هل هي تستحق هذا الاكرام يا ترى ؟ »

قالت « أما أنا فلا أراها بالعين التي يراها بها الناصر ولعلي أظلمها اذا قلت أنها قلما تمتاز عن كثيرات من نساء هذه القصور . . »

فقال « لا شك أن حب الخليفة لها يرفع مقامها . فأرجو أن تنالي من الخليفة الليلة ما يجعلك في منزلة أعلى من منزلتها »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا أريد ذلك . . وان كنت أراه بعيداً عني إذ ليس فيَّ ما يبعث على الاعجاب وأنا فتاة مسكينة أحفظ الابيات من الشعر وأتلوها وهذا لا يعجب الا القليلين . . وهب اني كما قلت فانا لا أريد أن استقر في قلب أحد سواك . . آه يا سعيد » وتلعثم لسانها وكاد الدمع يتناثر من عينيها

فضحك سعيد باستخفاف وقال « كم يجب أن أكون سعيداً بهذه المحبة ! »

قالت « انك سعيد يا سعيد وأنا الشقية » وغصت بريقها

فابتدرها قائلا « لا أزال أراك تستسلمين للشك . . »

قالت « كلا . . ولكن قلبي يداني . . لا لا . لا شك انك تحبني ولو على سبيل الشفقة عليّ . . ألا تشفق على قلبي ؟ . طبعاً أنت ترى ما أنا فيه من الهيام بك وترى أني مستهلكة في سبيل مرضاتك . . فكيف لا تحبني أو لا تشفق عليّ . . » ومسحت عينيها بكمها

فنظر اليها وحدق فيها وقال « أراك عدت الى الشك »

فقطعت كلامه مسرعة وقالت « لا لا . أنا واثقة بك فافعل ما تريد »

قال « سترين صدق قولي . . والآن افعلي ما قلت لك . . ولكن أخاف أن تغار الزهراء منك »

قالت « ولماذا ؟ أنا لا أسابقها على شيء الا اذا كانت تسابقني هي . . » وعضت على كمها باسنانها كأنها تلهو بذلك عن التصريح بما كادت تنطق به

فوقف وهو يمد يده الى يدها ليصرفها فاحست أنه يريد الذهاب فجذبت يدها من يده وقالت « هل أنت ذاهب ؟ »

قال نعم « ولكننا سنكون معاً الليلة في حضرة الخليفة »

فتنهدت وقالت « نعم سنلتقي ولكن . . »

فامسك يدها وودعها وهو يقول « ابعدي عنك البلابل والمخاوف فان الوقت قد دنا اذهبي الآن الى غرفتك » قال ذلك وخرج

فظلت هي واقفة لحظة تنظر اليه ثم تحولت نحو القصر تمشي الهوينا وقد استغرقت في أفكارها وتحيرت في أمرها

الفصل الثامن والثلاثون

جوهر

وسار سعيد الى حيث علم انه يرى ياسراً فلما التقيا دعاه ياسر الى الطعام معه . وهما يأكلان قال ياسر « ما الذي فعلته بالخليفة »

قال « لم أفعل شيئاً ولماذا ؟ »

قال « رأيت الخليفة قد تغير كثيراً وامتلأ اعجاباً بك »

قال « لم أفعل شيئاً يوجب اعجابه وما هو التغيير الذي أصابه ؟ »

قال ياسر « لا أقدر أن أعين التغيير الذي حصل ولكنني فهمت ذلك من نسق حديثه في بعض الشؤون المتعلقة بالزهراء »

فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ولكن رباطة جأشه اخفت ذلك عن جليسه فقال « لماذا تغير عليها — لا أظنك مصيباً لاني لم أذكر هذه الجارية في حديثي معه مطلقاً

قال « لا أعلم ما الذي قلته له ولكنني أعلم أني رأيته تغير — وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت في الاستبداد وآن لها أن تعرف ما لها وما عليها » قال ذلك بلحن التهديد

فجعل سعيد انه لم يهمه الامر كثيراً وقال « ربما كان السبب في تغيره عليها ما لحظه من استبدادها فقد علمت أنها أصبحت لفرط دلالها تتطلب أموراً ليس من شأنها حتى أسمعها الناصر ما تكره وظل غاضباً عليها يوماً وليلة »

فبغت ياسر ونظر الى سعيد فرآه مستغرقاً في تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئاً فقال ياسر « ومن أبلغك هذا الامر ؟ ليس في هذا القصر احد يعلم ذلك غيري لان الناصر اسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ولم يدع أحداً يشعر خوفاً من الشماتة لان كل نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلها . قل لي كيف عرفته ؟ »

قال « عرفته » وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر الى السقف تجاهلا فقال « بالحقيقة انك ماهر بالتنجيم كانك تطلع على الغيب . . . لله درك من عالم حكيم »

فضحك سعيد وقال « ان الامر لا يحتاج الى معرفة الغيب . . دعنا من ذلك الآن وقل لي هل أوصاك الخليفة باعداد عابدة الليلة ؟ »

قال « نعم »

قال « وهل طلب اليك ان تكون الزهراء حاضرة »

قال « نعم »

قال سعيد « فاذاً سنراها الليلة . . . أني طالما سمعت بجمالها . . . »

فقطع ياسر كلامه قائلا « ولكنه أمرني ان نجالسكم من وراء الستار وكثيراً ما يفعل ذلك في مثل هذه الحال لانه شديد الغيرة عليها »

فقال سعيد « من وراء الستار ؟ وما هي لذته بمجالستها على هذه الصورة ؟ »

قال « هو لا يحجبها الا اذا حضر مجلسه احد من الرجال غيرة عليها والليلة ستكون أنت حاضراً . . أين أجدك لاذهب بك الى ذلك المجلس ؟ »

قال « اني ذاهب للاستراحة قليلا وربما نمت ساعة استعداداً للسهر »

قال « سأمر بك العشاء ونذهب معاً الى بيت المنام أو أرسل اليك من يأتي بك اليّ » ووقف سعيد فوقف ياسر وودعه وخرج الى غرفته ولم يكن يطلب الرقاد وانما أراد أن يخلو بنفسه للتفكير بما يكون تلك الليلة

وهو متوسد هناك وقد دنا الغروب سمع جلبة وقهقهة في ساحة القصر فاصغى فاذا بجماعة من الخصيان يداعبون خصياً منهم وهو يصيح فيهم . فلما سمع سعيد صوته استبشر وعلم انه قادم اليه وقال في نفسه « أتى جوهر الخبيث »

ثم سكتت الجلبة وبعد قليل دخل على سعيد خصي قصير القامة غريب الهيأة قصير الساقين كبير الرأس واسع الوجه بارز الجبهة قبيح الخلقة عليه لباس ثمين لكنه يضحك الثكلى لغرابته على رأسه قبعة طويلة مخروطية الشكل في رأسها شرابة وعليه جبة من خز مطرزة تحتها قفطان من حرير أحمر لامع ـ دخل على سعيد ولم يحيّ فنهض سعيد وقال له « ما الذي جاء بك يا جوهر »

فتقدم الغلام وقبل يد سعيد وقال « أتيت أعرض عليك خدمة أقوم بها »

قال « ومن أنبأك اني هنا ؟ »

قال « هل تفوتني حركة من حركاتك يا سيدي ؟ كيف تأتي هنا ولا أعلم ؟ »

قال « كيف هي ؟ »

قال « هي كما تعهدها لا تزال خالية الذهن ـ صلبة القلب »

قال « هل علمت اني في قرطبة ؟ »

قال « لا تعلم شيئاً من ذلك »

قال سعيد « ألم تتغير محبتها لذلك الرجل ؟ »

قال « ان ذلك الرجل لم يترك لها سبيلا للتفكير بسواه اذا غضبت استرضاها واذا أمرت أنفذ أمرها مهما يكن كما قلت لك قبل الآن »

فاطرق سعيد وقال « هل يعلم أحد انك جئت هذا المكان ؟ »

قال « من يعلم ذلك ؟ . قد أتيت بحجة اللعب في ساحة القصر مع بعض الرفاق الصقالبة وفررت من بينهم كأني أطلب حاجة لنفسي »

قال « نحن الليلة ضيوفكم في بيت المنام »

قال « أعلم ذلك وانما أتيت لاخبرك انها ستحضر المجلس وتسمع الغناء وهي شديدة الولع بالصوت الرخيم ولها صناعة في الموسيقى تضرب على العود وقد حفظت كثيراً من الشعر ولما علمت اليوم بمجيء عابدة رأيت الغيرة دبت في عروقها وأظنها تحب أن تزداد توسعاً في هذه الصناعة »

قال « تحب أن تتعلم الاشعار والغناء ؟ »

قال « أظنها تميل الى ذلك »

قال « فاذاً أنت تعرف كيف يجب أن تجعلها تطلب من مولاها أن أعلمها الشعر . . فهمت ؟ »

قال « نعم يا سيدي . . سمعاً وطاعة . . اني لا أنسى فضلك »

فقطع سعيد كلامه قائلا « هل أنت منقطع لخدمتها الآن ؟ »

قال « أنا منذ بضعة أسابيع في خدمتها وأراها ترتاح اليَّ وتطرب لمنظري وحديثي لكنني أحسبها هذين اليومين في شاغل اذ يندر أن تطلبني اليها ولا أعلم السبب »

قال « ألعلها غضبة أم عاتبة أم خائفة »

قال « لا أعلم وربما كشفت السبب بعدئذ ـ هل تأذن بانصرافي الآن

فاني اخاف ان يستبطئوني ويطلعوا على خبري معك

قال « اذهب »

فانحنى وحيا ومضى

الفصل التاسع والثلاثون

بيت المنام

مكث سعيد وهو يهيء نفسه ويصلح من شأنه استعداداً للذهاب مع ياسر اذا أتاه أو بعث في طلبه

وبعد العشاء أتاه بعض الصقالبة يدعوه الى قصر المؤنس فخرج ولما أطل على الحديقة بهره ما رآه فيها من المصابيح المعلقة باغصان الاشجار أو على الجدران أو القوائم حتى أصبحت الحديقة تتلألأ بالانوار . ومشى الخصي بين يديه حتى وصل الى باحة القصر المذكور فرأى الحرس وقوفاً باسلحتهم عليهم الالبسة الفاخرة . ولم يكد يطل على باب القصر حتى رأى ياسراً بين يديه فاستقبله وحياه ومشى امامه حتى دخل به الباب الى دهليز مضيء بالشموع العنبرية وقد فت المسك في الارض وفاحت رائحته فعطرت الارجاء . ولم يعجب سعيد من شيء شاهده هناك لم يشاهد مثله في قصر الخلافة ذلك النهار لكنه ما زال ماشياً وهو يسمع خرير المياه وصوت وقع الرشاش من مرتفع حتى أطل على قاعة أدهشه ما فيها مما لم ير في زمانه مثله

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يستلفت انتباهه حيناً بعد آخر الى بعض النقوش البديعة فلما أطلا على تلك القاعة وقف سعيد من نفسه وقال « ماذا أرى ؟ »

قال « هل أدهشك ما رأيته من التماثيل على هذا الحوض ؟ »

قال « نعم . أعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنون التماثيل »

قال وهو يهمس في أذنه « أرأيت هذا الحوض في وسط هذه القاعة ؟ انه جاء الى أمير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع ربيع الاسقف

وهو لا قيمة له لجماله وفرط غرابته وقد كلف مالا كثيراً وتعباً جزيلا قبل وصوله الى هذا المكان مخافة أن ينكسر ما عليه من تماثيل الآدميين »

فقال سعيد « ولكن هل يجوز في الاسلام اقتناء التماثيل ؟ »

فقال ياسر « ذلك ما نقمه بعضهم على أمير المؤمنين ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم وهو لا يرى ضرراً من اقتنائه أو لعل الترف والانغماس في الحضارة سهلا عليه ذلك . فان منظر هذا الحوض مدهش . . ايه ؟ »

قال « نعم . . ولكنني أرى فوق الحوض تماثيل أخرى هل أتت أيضاً مع الحوض من القسطنطينية »

قال « ان التماثيل الذهب التي تراها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم »

قال « وأين صنعت ؟ »

« قال صنعت في هذه المدينة وهي كما تراها جميلة وثمينة »

قال سعيد « كأني أراها مرصعة . . بماذا ؟ »

قال « انها مرصعة بالدر الغالي النفيس »

فدهش سعيد وشغل بذلك المنظر عما كان قادماً من أجله وقال « أرى هذه التماثيل كثيرة وكأنها تمثل بعض اصناف الحيوان »

فامسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض بحيث يتبين التماثيل من وجوهها فاذا هي ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مفرقة في أربعة مجاميع على جوانب الحوض . مجموع منها يمثل أسداً الى جانبه غزال الى جانبه عساح . يقابله من الجهة الاخرى مجموع آخر هو ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبين مجموعان آخران هما عبارة عن حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس يخرج الماء من افواهها [1] ويصب في الحوض . فوقف سعيد لحظة مبهوتاً ثم قال « وهذه التماثيل مصنوعة في قرطبة ؟ »

(١) المقري ج ١

قال « نعم انها مصنوعة في دار الصناعة هنا »

قال « لم أكن أظن مثل هذا الاتقان ميسوراً في قرطبة لاننا لا نعهد مثله في غير القسطنطينية أو رومية »

قال « ان في قرطبة من الصنائع الجميلة ما يضارع أحسن ما يصنع في تينك المدينتين ولولا ضيق الوقت لذكرت لك شيئاً كثيراً منها . ولكنني أحسب مولانا الناصر قد استبطأنا »

قال « أين هو الآن ؟ »

قال « هو في مجلس يتصل اليه من هذه الدار ويشرف عليها بحيث يتمتع الجلوس هناك بمنظر هذا الحوض ويسمعون خرير الماء فيه »

الفصل الاربعون

المجلس

فمشي سعيد بجانب ياسر وعيناه في ذلك الحوض وما يتألق حوله من المصابيح أو الشموع بالوانها المختلفة فتنكسر أشعتها في رشاش الماء المتساقط فتبهر النظر بجمالها . شغل ذلك المنظر ذهن سعيد حيناً ثم عاد الى هواجسه وخصوصاً لما وصل الى باب المجلس والخصيان وقوف عنده بالحراب وعلى العتبة ستر عليه هذه الابيات :

صل من هويت ودع مقالة حاسد ... ليس الحسود على الهوى بمساعد

لم يخلق الرحمن أحسن منظراً ... من عاشقين على فراش واحد

متعانقين عليهما ازر الهوى ... متوسدين بمعصم وبساعد

يا من يلوم على الهوى أهل الهوى ... هل تستطيع صلاح قلب فاسد

فتذكر انه قرأ هذه الابيات وهو في بغداد في صدر مجلس المأمون[1] وتقدم فوسعوا لياسر فازاح الستارة ودعا سعيداً للدخول

فاطل سعيد على مجلس مرتفع لا جدار له من جهة الحوض بحيث يقع

(١) الموشى

نظر الجلوس هناك على ذلك المنظر البديع . ورأى الناصر في صدر المجلس قاعداً الاربعاء على وسادة من الخز وعلى رأسه عمامة وشي صغيرة يتخفف بها في المساء وعليه جبة وشي خفيفة تشبهاً ببني أمية في الشام . وأول شيء استلفت انتباه سعيد رائحة الطيب ففد كانت مالئة المكان ورأى بين يدي الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها يتجه خلسة الى ذلك الباب حيناً بعد آخر وهي تتوقع مجيء حبيبها سعيد . وقد مدت مائدة الشراب والفاكهة ووقف بعض الجواري في أجمل ما يكون من الوجوه والقامات كلهن فتيات تمنطقن بالمناطق الحرير الملون وقد طرزت عليها أبيات من الشعر هذا مثال منها يقرأ على احدى تلك المناطق

زنارها في خصرها يطرب وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها ولونها من لونها أعجب

وقد أرسلن أطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلاليب تبرق ألوانها الزاهية وعلى ذيل بعضها هذان البيتان تطريزاً بالفضة

أغيب عنك بود لا يغيره نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وعلى رؤوسهن أكاليل من زهر مضفور وقد أرسلت شعورهن الى الظهور ووقفن متأدبات ينتظرن الامر لصب الشراب أو تقديم الفاكهة . ومنظر المجلس على الاجمال يبهر النظر لما في أرضه من الطنافس المزركشة بابيات الشعر في نحو ما تقدم . وعلى جدرانه من الستائر الموشاة بأبيات من الشعر هذا بعضها :

هجرتني كي أجاريكم بفعلكم لا تهجريني فاني لا أجاريك
قلبي محب لكم راض بفعلكم استرزق الله قلب لا يجانيك
أصبحت عبداً لادنى أهل داركم وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان أسلافهم في دمشق يفضلون الوشي على سائر الانسجة فقلدهم الناصر بذلك في فرش هذه الحجرة وفي لباسه الليلي

والظاهر أنه قلد العباسيين بتطريز الاشعار على الرياش والاثاث فقد

كانت الطنافس والستائر مزينة بابيات جميلة فضلا عن ألبسة الجواري

حالما أطل سعيد على المجلس وقف بعيداً و نظر في جوانب الغرفة بخفة لعله يرى مكاناً لجلوس الزهراء اذا حضرت فتذكر أنها تجلس وراء الستارة فرأى الى اليسار ستراً من الديباج الثمين يقطع الحجرة في عرضها وعليه طراز الذهب المزدان بالاشعار على نحو ما تقدم . وتنحنح خفيفاً وتمتمة فعلم أن الزهراء هناك فتجلد — وفي أثناء ذلك تقدمه ياسر فاخبر الناصر بقدومه فقال الناصر « يدخل سعيد الوراق معلم جاريتنا عابدة »

فدخل وتنحى ياسر فاشار الخليفة الى سعيد أن يجلس فبادرت احدى الجواري الى وسادة قدمتها له بجانب عابدة فجلس فقال له الناصر « لم نسمع شيئاً من عابدة بعد »

قال « أنها جارية مطيعة ما الذي يأمر به أمير المؤمنين ؟ . هل يلذ له الحديث أو الغناء ؟ »

قال « أن الحديث يلذ لنا هل تحدثنا بشيء لا نعرفه »

قال « أنها تحفظ الشعر والادب والاخبار من كل نوع فما على أمير المؤمنين الا أن يعين الموضوع الذي يختاره »

فاطرق الناصر هنيهة ثم قال « اخبرتني أنها من مولدات بغداد ؟ »

قال « نعم »

قال « ان لبغداد نوادر غريبة . . نحن نحب أن نسمع عن أصحابنا البغداديين وان كانوا لا يحبون أن يسمعوا عنا » وضحك

فادرك سعيد تعريضه وقال « طبعاً هم لا يحبون سماع ما يسوءهم لان أخبار مولانا أمير المؤمنين وما بلغ من سلطانه وسطوته وما أتاه من الفتح والنصر كل ذلك يسوء أهل بغداد سماعها لانها تهيج غضبهم وحسدهم وهم الآن في منتهى الاضطراب وقد ذهبت هيبة الخلافة منهم واستولى الاتراك على الدولة ووضعوا أيديهم على الحكومة وأصبح الخليفة عندهم أسماً بلا مسمى . . أين هم من أمير المؤمنين صاحب السيادة جامع كلمة المسلمين

والمنكل بالكافرين لم يمر بالمسلمين أيام كأيامه ولا رأى الاسلام عزًّا مثل عزه . . »

وكان الناصر يسمع اطراء سعيد وهو مسرور فلما أكثر من الاطراء قطع حديثه قائلا « نعم ولكن للبغداديين عصراً لا مثيل له — عصر الرشيد والمأمون . ولا يسعنا انكار ما لهذين من الفضل في نقل كتب العلم ونحن الآن انما نجني ثمار ما غرساه — واني كلف بسماع أخبارهما وكثيراً ما أتقدم الى المحدثين أن يقصوا عليّ حديثهما »

فقال سعيد « فأمير المؤمنين اذاً في غنى عن سماع شيء من أخبار تلك الدولة . . »

قال « بل أنا أحب ذلك ويعجبني منه ما كان يعقد من مجالس الادب والشعر وما كان يدور من الابحاث الجميلة »

الفصل الحادي والاربعون

العباسيون والامويون

فتصدت عابدة للكلام قائلة « ان مجالس الادب كانت تعقد في البصرة والكوفة على الاكثر وللكوفيين والبصريين مناظرات ومناقشات كثيرة فيها اللطيف والمفيد »

فاستحسن الناصر غنة صوت عابدة ولم يكن سمع صوتها بعد فاستلفت ذلك انتباهه فوجه كلامه نحوها وقال « اذكرتني يا عابدة مناقشة طار ذكرها في الآفاق وقد حضرها الرشيد نفسه »

قالت « أظن مولاي يعني مسألة الزنبور والنحلة »

فضحك الناصر وقال « نعم اياها أعني »

قالت « انها من أغرب الحوادث وهي تظهر لاول وهلة مسألة لغوية أو نحوية ولكن خلفاء بغداد كانوا يخلطون السياسة في كل شيء حتى في النحو والحديث والتفسير »

فاعجب الناصر بحكمها الذي يدل على سعة في العلم وثقة في النفس وقال « ماذا تعنين بالسياسة يا عابدة ؟ »

قالت « اعني انهم منذ قبضوا على أزمة الدولة لم يدخروا وسعاً في تأييدها ولو خالفوا فيه الشرع أو العقل حتى العلم »

فاستغرب الناصر هذا الحكم وأحب ان يطلع على حقيقته لانه يساعده في الدفاع عن خلافته وكان الى ذلك الحين يعدها مقلقلة فقال « ماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت « أعني انهم لما قاموا يطلبون الخلافة من أجدادكم في الشام تظاهروا بالتقوى والعمل بالكتاب والسنة وطعنوا في خلفاء بني أمية لانهم طلبوا الملك العضود وزعموا أنهم اتخذوا الفتك في سبيل الحكم . فلما ملكوا ارتكبوا أضعاف ما ارتكبه بعض أجدادكم من الفتك والقتل على التهمة . وكانوا يظهرون أنهم يفعلون ذلك رغبة في العلم أو الدين . ولو تدبرت الحقيقة لرأيتهم انما كانوا ينظرون من وراء ذلك الى مصالحهم ـ نصر أبو جعفر المنصور فقهاء العراق أصحاب الرأي والقياس على فقهاء المدينة أصحاب الحديث ولماذا ؟ هل فعل ذلك لانه يعتقد الحق في جانب أبي حنيفة رئيس أصحاب الرأي ؟ لا أظنه فعل ذلك الا نكاية في مالك رئيس أصحاب الحديث فيها لانه أفتى بخلع المنصور . ولو لم يخلعه أو لو رأى في نصرته فائدة له لنصره »

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بلذة وشوق لما حواه من الآراء الفلسفية التي لم يسمعها من أحد قبلها وخصوصاً لان الطعن في العباسيين يوافق سياسته وارتفعت في عينيه فاراد أن يستزيدها فقال « بورك فيك من فقيهة عاقلة . . لكنني رأيتك تشددين النكير على أصحابنا العباسيين وما أدرانا ان المنصور لم يكن ينصر أبا حنيفة لاعتقاده صحة رأيه

قالت « دعنا من الفقه والحديث والتفت الى ما كان من الرشيد وأبنائه في مسألة الزنبور والنحلة وهي من المسائل النحوية »

قال « هل ترين في هذه أيضاً وجهاً سياسياً ؟ »

قالت « نعم يا مولاي . . لان العباسيين كانوا يرغبون في نصرة أهل الكوفة لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة فقدموهم على أهل البصرة وقربوهم اليهم فطمع الكوفيون بمسابقة أهل البصرة وصاروا يجادلونهم في المسائل النحوية وفي الادب والشعر حتى قامت مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه من أهل البصرة والكسائي من أهل الكوفة وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد وكان الامين ينصره باعتبار ان انتصاره انتصار أهل الكوفة جميعاً وهم أنصار الخلفاء . . . »

فقطع الناصر كلامها قائلا « صدقت صدقت ولولا ذلك لم يتخذ الامين كل وسيلة لقهر سيبويه فانه بعد ان ظهر للملأ أن الحق في جانبه أغرى ذلك البدوي على تخطئته والحكم للكسائي فخرج سيبويه من بغداد وقصد بلاد فارس . لا شك أنهم ظلموه كما قلت تحزباً لانصارهم الكوفيين . . . لله درك من حكيمة »

الفصل الثاني والاربعون

الغناء

وكان سعيد في أثناء ذلك يوجه انتباهه الى ما وراء ذلك الستر لعله يسمع شيئاً يهمه فشعر بحركة فادرك ان الزهراء لا بد انها ملت سماع ذلك الحديث من فلسفة التاريخ وانها صارت شديدة الميل الى سماع الغناء فنظر الى عابدة وأومأ الى جيبها يشير الى القانون الذي كانت تركبه وتدق عليه والتفت الى الخليفة وقال « ان الحكمة لا تحلو من فم المرأة يا أمير المؤمنين كما يحلو الغناء . . »

فضحك الناصر وأشار الى السقاة فصبوا الاشربة من أباريق الفضة في أقداح الذهب وقدموا للناصر ولسعيد وأمر الجارية أن تشرب فاستأذنته في اعفائها من الشرب »

فقال « اشربي يا عابدة . . ليس هذا مسكراً وانما هو نبيذ التفاح اشربي »

فمدت يدها وتناولت القدح فرأت عليه نقشاً يحيط به هو بيتان من الشعر هذا نصها :

وما لبس العشاق ثوباً من الهوى ولا أخلقوا الا بقيـة ما أبلي
ولا شربوا الـكأس من الحب حلوة ولا مرة الا وشربهم فضـلي

فشربت وشرب سعيد فقال الناصر « هل تسمعيننا شيئاً من الغناء »

قالت « كما تشاء يا أمير المؤمنين »

فقال سعيد « هل يأمر أمير المؤمنين أن تغني غناء أهل الاندلس أم غناء أهل العراق أم أهل المدينة ؟ »

فقال « أما غناءنا فانا نسمعه وعندنا من يحسنه ولـكننا نحب سماع غناء أهل بغداد . أما غناء أهل المدينة فهو الغناء القديم ولا بأس به »

فتذكر سعيد انه يشير الى الزهراء وهي التي تحسن غناء أهل الاندلس وهو يعلم انها وراء ذلك الستر فاحب أن يسمع غناءها فقال « اذا استحسن مولانا أن يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء على طريقة أهل الاندلس وعابدة تغني على طريقة أهل بغداد كان ذلك مجاوبة جميلة

فقال الناصر « صدقت » وأومأ الى احدى الجواري الواقفات في خدمتهم فتقدمت نحوه فاشار اشارة فهمتها فمضت الى وراء الستر ففهم سعيد انه أمر الزهراء بالغناء وقال الناصر « سنسمع غناءً أندلسياً على العود فأين عود عابدة »

قال سعيد « انها تضرب على عود لا مثيل له ولا أظنكم سمعتم به لانه حديث العهد في الصناعة ومخترعه لا يزال حياً »

فشخص الناصر ببصره الى عابدة فلم يجد معها عوداً والتفت الى جانبها وهمّ أن يستفهم سعيداً عما يعنيه فرأى عابدة تمد يدها الى جيبها ثم استخرجت منه الخريطة وأخذت تركب عيدانها حتى صارت آلة قد شدت أوتارها فقال الناصر « هذا عود ؟ »

قالت « كلا يا سيدي انه القانون »

فقال « أظنه الآلة التي ركبها الفارابي في حضرة سيف الدولة ؟ »

قالت « نعم يا سيدي هي »

قال « سمعت انها أدهشت الحضور فأبكتهم ثم أضحكتهم . . فهل تعرفين الضرب عليها ومن أين تعلمت ؟ »

فأجاب سعيد عنها قائلا « أدركت الرجل في مكان وأخذت عنه مثال قانونه ومبادئ صناعته وعلمت ذلك لعابدة »

فقال الناصر مستغرباً « وانت علمتها الموسيقى أيضاً ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فقال « بورك فيك . . انك تصلح لكل شيء » . والتفت الى عابدة وقال « اسمعينا . أو تمهلي لنسمع صوتاً من غناء أهل الاندلس . . »

وصفق وأصغى الجميع فخرج من وراء الستر صوت عود بصناعة جيدة . وكان أكثر الناس اصغاء سعيد ثم سمعوا الغناء فطرب الناصر طرباً شديداً حتى اذا فرغ الغناء وراء الستار نظر الناصر الى عابدة كانه يستطلع رأيها في ما سمعته فقالت « انه صوت مطرب سمعت مثله ممن يحفظ غناء زرياب المغني . . »

فقطع الناصر كلامها قائلا « غناء زرياب ؟ . صدقت أن هذا المغني هو الذي حمل هذه الصناعة الى الاندلس . وقد قال الذي نقل هذا الصوت الينا انه من أصوات زرياب فاسمعينا ما عندك من غناء بغداد »

وكانت قد أصلحت القانون فتناولته واعتدلت في مجلسها وجعلت تضرب عليه ضرباً لم يسمع الناصر مثله وكان قد استخفه الطرب وهاجه الشراب فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سريره فاغتنمت عابدة تلك الفرصة وغنت صوتاً لابراهيم بن المهدي أحسنت توقيعه واعرابه فلم يتمالك الناصر أن صاح من الطرب « لله درك من مطربة معربة . زيدينا زادك الله جمالا وصنعة »

ففنته صوتاً آخر على لحن زاده طرباً . وأشار الى الجواري ان

يسقينه فدارت الاقداح وسعيد يظهر أنه يشرب ولا يشرب وكذلك عابدة فلما أحس سعيد ان الشرب أخذ من الناصر أشار الى عابدة فأصلحت العود على اصلاح الفارابي كما فعل في حضرة سيف الدولة ففعلت فغلب على الناصر الضحك وأغرب فيه وسعيد يراقب ما يبدو وراء الستار فسمع همساً وضحكا فادرك ان ضحك الناصر وشدة طربه من غناء عابدة يهيجان حسد الزهراء

الفصل الثالث والاربعون

النحنحة

وهم في ذلك سمعوا نحنحة من وراء الستر لم يفطن لها الا سعيد وراقب مايبدو من الناصر بعدها فرآه انتبه لنفسه بغتة وأمسك عن الضحك وقال لعابدة « لقد اطربتنا بارك الله فيك »

فادرك سعيد أنه يريد فض الجلسة فأومأ الى عابدة فتحفزت للنهوض فلم يدعها الناصر للبقاء لكنه أشار الى قيمة الجواري الواقفات للخدمة ان تزيد عابدة حفاوة فمشت بين يديها الى غرفتها

وتحفز سعيد للنهوض والاستئذان فاومأ اليه الناصر أن يمكث فمكث ونهض الناصر ودخل من باب يؤدي الى غرفة أخرى وأشار الى احدى الجواري فدخلت وراء الستر . فشعر سعيد أنه بعث الى الزهراء لتمضي اليه . فلبث وهو يعمل فكرته فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة ولم يبق في تلك القاعة سواه

وهو في ذلك رأى الستر يتحرك واذا بجوهر خارج من ورائه فلما رآه سعيد فرح بمجيئه وتوقع ان يسمع منه شيئاً جديداً فسأله بالاشارة فتقدم اليه وهمس في أذنه « ان الغيرة كادت تقتلها »

ففهم انه يعني الزهراء فقال « ماذا فعلت ؟ »

قال « لم تملك ان تنحنحت للناصر لتزجره عما أظهره من الاعجاب والخفة »

فضحك سعيد وقال « لا بد انك ساعدت في ايقاد تلك الغيرة . . طبعاً . . وأخيراً ماذا ترى ؟ »

قال « اني أثرت غيرتها وجعلتها تفهم ان اتقان غناء عابدة سيقدمها عليها لدى الخليفة وأشرت عليها أن تتقن الغناء »

قال « على مَن ؟ »

قال وهو يتطاول ليهمس في أذن سعيد « ستطلب من الخليفة أن يكلفك في تعليمها غناء بغداد . . »

فبان البشر في وجه سعيد وقال « وهل تظنه يقبل ؟ »

قال « اذا طلبت ذلك اليه لا يخالفه لانه طوع ارادتها . ألم ترَ مبلغ تأثير تلك النحنحة فيه وهو في ابان طربه ؟ »

قال سعيد « لقد أحسنت يا جوهر بورك فيك . طالما توقعت منك المهارة والذكاء . . اني أسمع قلقلة مفتاح في باب . . واسمع وقع خطوات لعل الخليفة قادم . . امض »

قال « لا أظن الخليفة يعود اليك بنفسه ولكنه يبعث رسولا بما يريد . هذا الرسول قادم . استأذنك اني منصرف » قال ذلك وعاد الى وراء الستارة

ولبث سعيد صامتاً يشغل نظره بما هنالك من الانوار والزخارف واذا هو بياسر قد دخل فهش له ونهض لاستقباله فتوسم في وجهه خيراً فقال « خيراً ان شاء الله »

فابتسم ياسر وقال « جئتك برسالة من أمير المؤمنين . . . فهو يثني على علمك وقد أمر لك بجائزة سنية . . هذا أولا . . وثانياً يطلب منك أن تمكث في هذا القصر بضعة أيام لانه يحتاج اليك في أمر »

قال « ألم يقل لك ما هو ذلك الامر ؟ »

قال « كلا »

فاطرق كأنه يفكر ثم قال « انا أقول لك »

قال « هل تعرف ما يجول في ذهن الخليفة ؟ »

قال « وما الفرق بيني وبينك اذن ؟ » وضحك مماجنة

فجاراه في الضحك وقال « قد تعودنا منك معرفة الغيب . قل ما الذي يريد منك ؟ »

قال « يريد ان أعلم جاريته الزهراء الغناء ما قولك ؟ »

فربت ياسر على كتف سعيد توداً واعجاباً وقال « قد لاحظت ذلك منه ولم يقله لي . . »

قال « أنا أقوله »

قال « وهل يسوءك ذلك ؟ »

قال سعيد « كلا . . ولكنني جئت من منزل الأمير عبد الله على أن أعود اليه مع عابدة بعد يوم أو يومين وكيف امكث هنا أياماً . . أخاف ان . . »

فقطع ياسر كلامه قائلا « مهما يكن من الخوف ان قول أمير المؤمنين لا يرد »

قال « نعم أعرف ذلك وانا باق كما أمر ولكن هل علمت ان عابدة باقية معي أم هي ذاهبة ؟ »

قال « لم يقل لي شيئاً من ذلك ولكنني استدل من قرائن الاحوال انها باقية لانه امر أن نعد لها غرفة خاصة ونقدم لها كل ما تحتاج اليه »

قال « لكنه لا يلبث ان يأمر باخراجها لأن الزهراء . . »

ففهم ياسر مراده فابتدره قائلا « لا لا ان الزهراء اذا أظهرت الغيرة من عابدة لصناعتها في الغناء فهي لا تخاف ان تتقدم عليها لعلمها أنها جارية ادب ومنادمة . وقد فهمت ذلك من يوم مجيئها . . وزد على ذلك ان الزهراء ذات دهاء وتعقل وانما غلبت على الناصر بتعقلها أكثر مما بجمالها . . ما لنا ولهذا امض الآن الى حجرة في هذا القصر اعددناها لك ريما يبعث الناصر في طلبك »

قال « حسناً » ومشى مع ياسر حتى خرج من ذلك القصر الى بناء

بجانبه فادخله ياسر الى غرفة هناك بابها خصي امره ان يكون في خدمته وانصرف

دخل سعيد تلك الغرفة فوجد فيها كل ما يحتاج اليه لتبديل ثيابه فقعد هنيهة اطلق لنفسه عنان الفكر فاخذ يتدبر ما سمعه وما يتوقع ان يكون . ثم بدل ثيابه ونام

الفصل الرابع والاربعون

التعليم

وفي صباح اليوم التالي استيقظ وجلس ينتظر امر الخليفة فلما أبطأ عليه لبس ثيابهُ وخرج يتمشى في الحديقة وامر الخصي الواقف لخدمته اذا طلبه الخليفة فانه يجده في الحديقة . وعين له المكان

وخرج حتى نزل حديقة بجوار ذلك القصر فيها بركة يتدفق الماء فيها من أنابيب الرصاص . فوقف عندها وأخذ يتأمل حركات الماء وأفكاره تائهة في ما هو فيه فلاحت منه التفاتة فرأى شبحاً خارجاً من جانب القصر من باب لم يعرفه فحول نظره اليه فرآه رجلا في لباس الخصيان من طبقة الوصفاء الذين يلبسون الدروع السابغة . لكنه رآه يمتاز عنهم بمنطقة حمراء مطرزة بالذهب تدل على تقدمه بين الاقران بالنصب أو الخدمة . وتبين في وجهه شيئاً يعرفه فحدق فيه فاذا هو ساهر غلام الامير عبد الله . ولحظ من حركاته أنه يحاول الخروج خلسة لا يريد أن يختلط بخصيان القصر فقال في نفسه « لا يخلو ان يكون مجيء ساهر هذا لامر ما » وانزوى في ظل دفلة وجعل انه يتأمل أزهارها . فمر ساهر مرور اللص وهو يحسب سعيداً لم ينتبه له . فلما تجاوز الدفلة أعاد سعيد النظر اليه فتحقق أنه ساهر بعينه . ولو لم يره يحاول اخفاء أمره لم يسيء الظن به . فحفظ ذلك في ذاكرته وظل يتمشى في الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكشف شيئاً جديداً فرأى الخصي الموكل بخدمته مسرعاً نحوه فعلم ان الخليفة يطلبه فتجاهل

وظل ماشياً فادركه الخصي وناداه فالتفت سعيد اليه وسأله عن غرضه
فقال « ان أمير المؤمنين بعث في طلبك »
قال « هلم اليه » ومشى نحو الباب الذي خرج منه ساهر
فاعترضه الخصي قائلا « من هنا يا سيدي » وأشار نحو الباب الآخر
فقال سعيد « لكن هذا أقرب . أليس مولانا أمير المؤمنين في هذا القصر ؟ »
قال « بلى . . ولكن المرور من هذا الباب محظور »
فاطاعه ومشى وهو يقول « لماذا »
قال « لانه يؤدي الى مقام السيدة الزهراء »
فحفظ ذلك في خاطره وسكت
وبعد ذلك دخل قصر المؤنس الى بيت المنام فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدت البغتة في وجهه وقال « أين كنت ؟ »
قال « كنت أتمشى في الحديقة »
قال « بعث أمير المؤمنين في طلبك »
قال « ها أنا ذا »
قال « انتظر ريثما استأذن لك »
فوقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد وأشار اليه أن يتقدم فمشى حتى دخل غرفة في صدرها سرير عليه فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الاحمر الزاهي وقد جلس فيه الناصر وهو لا يزال بلباس النوم وعلى رأسه قبعة (طاقية) من الحرير الموشى بالذهب وقد تعلق بالسقف مراوح من ريش النعام تتحرك بتدبير خاص . ووقفت الوصائف بالالبسة الفاخرة كما تقدم. فلما دخل سعيد أشار الخليفة الى الجميع بالخروج واستدناه فمشى حتى وقف بين يديه فقال له « لا أظنك تجهل منزلتك عندنا بعد أن دعوناك للدخول علينا ونحن في الفراش . . فان رفع الكلفة تدل على الرضاء والصفاء . . تفضل اجلس »
فانحنى سعيد وظل واقفاً فامره ثانية أن يقترب منه ويجلس فمشى حتى

صار بجانب السرير وجلس جاثياً على وسادة هناك وهو مطرق تأدباً فقال له الناصر « يحسن بالعقلاء التأدب بين يدي الملوك ولكنني ذكرت لك منزلتك عندي بالامس لما آنسته من علمك وصدق لهجتك فدع التهيب »

قال « ان تنازل أمير المؤمنين مع مملوكه الى هذا الحد يحملني على زيادة الشعور بحقارتي ويزداد المولى حفظه الله رفعة في عيني »

قال « ان مقام أهل العلم محفوظ عندنا . . انهم عيون الملك ونبراسه وقد رأيت انك من خيرة العلماء المخلصين »

فاشار بالانحناء وسكت فقال الناصر « لا تظننا نطلب اليك التنجيم الآن فقد أجلنا ذلك الى فرصة اخرى ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناء تلميذتك عابدة فاحبت أن تتقن الغناء على يدك فهل تفعل ؟ »

فنهض سعيد وهو يتألم من التأدب وقال « ان العبد لا يخير بما يريده مولاه واني سعيد لان في شيئاً أقدر ان أخدم أمير المؤمنين ببذله . . »

فقطع الناصر كلامه قائلاً « أنت سعيد على كل حال . . انك سعيد بعلمك وأدبك . ولا تظنني نسيت ما طلبته من كتمان حقيقة منصبك واظهار انك تعلم عابدة . وفي هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فتذهب الى غرفتها لتلقينها بعض ألحان بغداد »

فاشار بيده على رأسه مطيعاً

فقال الناصر « أنت تعلم منزلة الزهراء عندنا »

فكرر سعيد انحاء رأسه كأنه يقول « نعم أعلم جيداً

فقال الخليفة « فاعدد لها ألحاناً جميلة مما صنعه ابراهيم بن المهدي فانا نحب صنعة ابناء الخلفاء . ولا بأس من تعليمها بعض أصوات اسحاق الموصلي »

قال « سيرى أمير المؤمنين ما يسره فان عبده لا يحتاج ايضاح »

فقال له « وقد أمرنا لك بجائزة هي دون ما تستحقه وسنوالي ذلك عليك ما دمت على حسن ظننا فيك »

فوقف سعيد وقد أحس انه ينبغي له أن ينصرف . فاستأذن وخرج

فلقيه ياسر في الدهليز فاخبره بما أمر له به الخليفة من العطاء وقال « يظهر انك حظيت عند أمير المؤمنين »

قال « انا لا استحق هذه الحظوى ولكن لكل أجل كتاب »

فاكتفى ياسر بذلك ومشى مع سعيد الى باب غرفته وتركه خوفاً من الرقباء

الفصل الخامس والاربعون

اين الزهراء

أما سعيد فدخل الغرفة فرأى الخادم قد أعد له الطعام فتناوله ثم جلس واستغرق في التفكير بما سيكون عند اجتماعه بالزهراء وهو يعلم أنه سيجتمع بها وهي وراء الستر . وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه ـ قضى ذلك اليوم على أحر من الجمر بين الجلوس في الغرفة والتمشي في الحديقة وقد طال عليه الوقت فلما غربت الشمس عاد الى الغرفة ولبث في انتظار الرسول

ولما دنا العشاء ولم يأت الرسول شغل خاطره ثم رأى جوهراً قادماً فهش له وهو يتوقع أن يدعوه للذهاب الى الزهراء فرآه يمشي نحوه ولا يتكلم فابتدره قائلا « ما وراءك »

قال « ما ورائي شيء »

قال « وكيف ذلك ؟ ألم تبعثك الزهراء في طلبي »

قال وهو يهز كتفيه « كلا . . وقد كنت انتظر أمرها بذلك »

فقال سعيد « هل عدلت عن تعلم الغناء ؟ »

قال « لا . . ولكنني لا أعلم أين هي »

قال « كيف ذلك اليست في غرفتها ؟ »

قال « ليست هناك »

قال « لعلها عند الخليفة »

قال « كلا »

قال « اين هي اذا ؟ »

قال « لا أدري يا سيدي وانما أعلم ان وصيفاً جاءها في أصيل هذا اليوم ومعه امرأة قال انها ماشطة فخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد »

فاستغرب سعيد قوله وقال « أليس في القصر مواشط ؟ »

قال « في القصر مواشط كثيرات ولكن يظهر ان هذه الماشطة لها صناعة خاصة في اصلاح الشعر »

قال « ألم تفتش عنها في القصر ؟ »

قال « فتشت عنها في كل مكان أعهدها تقيم فيه فلم أجدها »

فدهش سعيد وأطرق لحظة ثم قال « ألا تعرف ذلك الوصيف ؟ »

قال « اعرفه وقد كان في هذا الصباح عندها »

فانتبه سعيد وقال « الله صاحب المنطقة الحمراء »

قال « نعم هو هو بعينه . كيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته . . وهو نفسه الذي أتاها بالماشطة ؟ »

قال « نعم هو بعينه »

قال « هل رأيت الماشطة ؟ »

قال « لم أر وجهها . . لانها مبرقعة »

فتوسم سعيد في الامر دسيسة وقال « الآن وقتك يا جوهر »

قال « لبيك يا سيدي »

قال تبحث عن الزهراء في كل غرفة ودهليز حتى في السراديب وعلى السطوح . . ابحث عنها الآن وأتني بالخبر . لا بد من وجودها هنا »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ومكث سعيد وقد أخذته الدهشة وجعل يفكر في ما سمعه وهو لا يكاد يصدقه لولا اعتقاده صدق ذلك القزم . وبعد قليل جاءه جوهر والبغتة بادية في وجهه وقال « تعال يا سيدي »

فمشى معه حتى أتى دهليزاً من دهاليز القصر يؤدي الى باب يستطرق الى حديقة خصوصية لا يدخلها أحد الا بامر الزهراء . فلما وصلا الباب

أشار جوهر بأصبعه الى نور ضعيف يظهر من خلال الاغصان وقال « انظر »

فنظر فرأى الزهراء والى جانبها شبح بلباس النساء وتفرس في وجهه فاذا هو عبد الله بن الناصر فخفق قلبه وارتعدت ركباه من شدة التأثر . ولولا رباطة جأشه ما تمالك عن أن يثب عليهما . ولكنه تجلد وأعاد النظر فلم ير وجه الزهراء ولكنه عرفها من ثيابها على شهادة جوهر . أما عبد الله فرأى وجهه وتنصت فسمعهما يتحادثان همساً وهمّ أن يدنو لسماع الحديث فسمع وقع خطوات في الدهليز فخاف ان يأخذ بالتلبس ويعود الذنب عليه . فتحوّل وجوهر معه نحو الدهليز فرأيا ياسر قادماً يتمشى فلما رآى سعيد سلم عليه وسأله عما يريده فقال « أنا في انتظار السيدة الزهراء لاعلمها القناء حسب أمر الخليفة »

قال « اذهب الى غرفتها . . . ألا تعرفها ؟ »

قال « هذا خادمها يعرف الغرفة ولكنه يقول انها ليست هناك »

قال « لعلها في الحمام »

قال جوهر « ليست في الحمام يا سيدي ولا في محل آخر أعرفه وقد جئت للتفتيش عنها . . ورأيت في الحديقة نوراً فهل تظنها هناك ؟ »

قال « اين ؟ تعال » ومشى جوهر معه . أما سعيد فرجع الى غرفته . فلما وصلا الى الباب رآها ياسر مع عبد الله فدهش وقال « هي هنا . ماذا تعمل ؟ »

قال جوهر « لا أعلم وأخاف اذا رأتني أن تقتلني . . اني ذاهب يا سيدي الى غرفتها أنتظرها فيها »

قال « اذهب . . واحذر أن تذكر ذلك لاحد »

قال سأكتمه عن كل انسان » ومضى

الفصل السادس والاربعون

الوشاية

أما ياسر فلم يشأ أن يضيع هذه الفرصة للانتقام من تلك المتكبرة فأسرع الى الناصر وكان قد عاد الى غرفة في ذلك القصر تعوّد أن يجلس فيها لمراجعة بعض ما يعرض عليه من الاعمال فدخل عليه بلا استئذان — وتلك كانت عادة رؤساء الخصيان مع الناصر . ووقف بحيث يعلم الناصر أنه يريد مخاطبته فأشار اليه فدنا فقال « ما وراءك ؟ »

قال « قد أمر مولاي أمير المؤمنين سعيداً الوراق أن يعلم الزهراء ألحاناً جديدة »

فقطع الناصر كلامه قائلا « ألم يعلمها »

قال « انه لا يزال في انتظارها »

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسرعه وهو يعلم أن في نفسه شيئاً عليها فقال « لا تلبث أن تأتيه . . وما الذي يدعو الى هذه العجلة منك ؟ »

قال « تعجلت في نقل الخبر الى مولاي لان أحد خدمتها أخبرني أنها غير موجودة في القصر ولا هي عند المعلم »

فبغت الناصر وأقطب حاجبيه وقال أين هي اذاً ؟ لعلها في الحمام أو في الحجلة »

قال « ليست في القصر كله يا سيدي »

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر لالقائه الشك في ذهنه وهو يقول « اين هي ؟ لا بد أن تكون في غرفتها أو . . . » وسكت ومشى يتبع ياسراً والخدم تختبئ من طريقهما فقاده ياسر الى مكان يشرف منه على تلك الحديقة . فرأى الزهراء واقفة وبجانبها شبح لم يعرفه حتى نبهه ياسر الى سحنته فعرف أنه ابنه عبد الله فهاج الدم في عروقه وأوشك أن يصرخ فيه لو لم يمسك نفسه خوف الفضيحة وأكبر أن يظهر شكه أمام

ياسر فتجلد وقال « يظهر أنها في شاغل مع ولدنا عبد الله حفظه الله ولا بد من سبب فيه خير لنا . . ولكن كان ينبغي لها أن تلقاه في غرفة من غرف القصر »

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعاً في الحديقة وعادت هي الى القصر فأظهر الخليفة أن الامر لا أهمية له وصرف ياسر وذهب هو الى غرفته وقلبه يتقد غيرة وحنقاً وحدثته نفسه مراراً أن يدعو الزهراء اليه في تلك الساعة فيقهرها ويوبخها ويستطلع خبرها لكنه لم يشأ أن يمكن ياسر من الشماتة بها — فلما صرفه وأوصاه أن يكتم ذلك أخذ يفكر في ما رآه فعظم عليه ولم يستطع صبراً عن معاتبتها في الحال فبعث وصيفة تستقدمها . فعادت الوصيفة وقالت « انها في الفراش لا تستطيع النهوض »

وقد تعوّد الناصر أن يحتمل هذا الدلال منها فلا يغضبها — أو هي عادة المحبين في مثل هذه الحال انما يغلب منهم السابق الى الدلال وقد يكون في نفس المحب عتب على حبيبه فاذا رأى منه غضباً أو تجنياً شغل بمراضاته عن عتابه — فصبر الناصر نفسه وذهب اليها وهو يكظم غيظه حتى اذا دخل غرفتها تنحى كل من كان هناك من الخدم أو الوصائف وظلت هي وحدها

وكانت حالما وصلت غرفتها قد نزعت ثيابها وتردت بثوب تعودت لبسه في ملاقاة الناصر يزيدها جمالا ورونقاً . وكان جمالها جذاباً يأخذ بالعقول — يكفي دليلا على ذلك استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل من في قصوره من السراري والجواري وأصبح لا يصدر إلا عن رأيها أو هو لا يرد لها طلباً وقد بنى قصور الزهراء رغبة في مرضاتها وإجابة لاسمها كما علمت

الفصل السابع والاربعون

الزهراء

كانت الزهراء اذا جالستها فأول ما يخاطبك عيناها ثم لسانها ثم يستولي عليك عقلها وظرفها . فلا تملك دفعاً لما ترميك به من السهام النافذة تخترق الاحشاء . وكان في عينيها نور لا يعبر عنه بغير السحر ولها قامة كالرمح مع بعدها عن الخلاعة والتبرج . وكانت فصيحة اللهجة ذكية الفؤاد سديدة الرأي مع تعقل ورزانة يتهيب جليسها من حديثها ويشعر بقوة حجتها وصحة برهانها

وكان الناصر يأنس بمجلسها ويعجب بكل شيء تأتيه . فيرتاح الى رؤيتها ويطرب من حديثها أو غنائها . اذا جالسها شغل بها عن كل شاغل — لكنه كان يلحظ فيها في بعض الاحيان انقباضاً لم يكن يعرف سببه . وقد تكون في مجلس طرب والخليفة الى جانبها يطربها ويدلها وهي في إبان فرحها فتتغير سحنتها بغتة ويتولاها الانقباض رغم ما تحاول من إخفائه عن الجلوس وكثيراً ما سألها الناصر عن سبب ذلك التغير وهي تنكره أو تتعلل له سبباً لا يقتنع به الناصر ولكنه يجاريها

فلما شاهد ما أتته في تلك الليلة أخذ يراجع تاريخ معاملته هذه المرأة لعله يرى موجباً لهذا التصرف فلم يجد سبباً يوجبه . فخطر له ما كان يلحظه فيها من الانقباض فقال في نفسه « لعل لهذا علاقة بذاك » ثم عزم على ملاقاتها فبعث اليها كما تقدم فأدركت لنباهتها أن الخليفة لم يبعث اليها إلا وفي نفسه شيء من العتب لانها لحظت في القصر حركة دلتها على أن الخليفة مشى نحو الحديقة . فلم ترد الذهاب اليه لعلمها أنه سيأتيها واتخذت القاعدة التي أشرنا اليها وهي مصادمة العتاب بالغضب أو الدلال . وجعلت من أسباب مرضاته لبس ذلك الرداء الذي تعودت ان تلبسه والخليفة طوع ارادتها لبست ذلك الثوب وهو بلون السماء وعليه تطريز من الفضة بأشكال

النجوم وبينها القمر وقد طرز على حاشية الثوب من الاسفل هذان البيتان :

وإني لاهواهُ مسيئاً ومحسناً وأقضي على قلبي له بالذي يقضي
فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى أيام سخطك لا تمضي

وقد تمنطقت بمنطقة من الخز بحلق الذهب وشدت من الامام بمروة من الذهب مرصعة باللاس . وكان فرش تلك الغرفة يأخذ بالقبول لما فيه من النقوش والاشعار على الابسطة والستائر والجدران . وكان سريرها من الابنوس منصوباً في أحد جوانب تلك الغرفة الواسعة وعليه نقش مزله بالعاج في جملته هذه الابيات :

ومجدولة اما مجال وشاحيها فمحصن واما ردفها فمكثب
لها القمر الساري شقيق وانها تطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله علينا بك العيش الخصيص يطيب
فقالت نعم ان لم يكن لك غيرنا ببغداد من أهل القصور حبيب

وكانت كلة سريرها (الناموسية) من الحرير اسبانجونية اللون وعليها هذان البيتان :

من قصر الليل اذا زرتني ابكي وتبكين من الطول
عدو حبيبيك وشانيهما أصبح مشغولا بمشغول

ناهيك بما على الطنافس والوسائد من الاشعار المطرزة مما يدهش البصر غير ما على الحجلة (التوالت) من النقوش الجميلة وكانت حجلتها مصفرة بالذهب وقد طرزت عليها أبيات تطريزاً جميلا وهي :

دعيني أمت والثمل لم يتشعب ولا تبعدي أفديك بالام والاب
سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكان في تلك الحجلة حق من الذهب فيه بخور أمرت الزهراء باحراق شيء فيه فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الاطياب

ولما علمت الزهراء ان الخليفة قادم اليها أمرت الخدم باوقاد الشموع

وتهيأت لاستقباله بذلك الثوب الجميل كأنها لم تفعل شيئاً يوجب عتاباً أو مؤاخذة

الفصل الثامن والأربعون

العتاب

رجع الخليفة غرفته وهو يغالب غضبه ويكظم غيظه فلما أقبل على غرفة الزهراء كانت قد خرجت لاستقباله وهي تجر ذيل ثوبها تيهاً. ثم وقفت تنتظر ما يبدو منه فرأته ظل ماشياً لا يلتفت اليها فأحبت أن تبادئه بالمسألة فبسط يده واكبّ عليها كأنها تريد تقبيلها فاجتذبها من بين يديها وظل ماشياً اشارة الى غضبه عليها. فثبت في أثره الهوينا وهي مطرقة بلا تذلل أو خوف وأظهرت التعب لهذا الجفاء. أما هو فما زال ماشياً حتى تصدر القاعة فجلس على وسادة وقد أقطب ولم يدع الزهراء للجلوس فظلت واقفة. ثم رفع بصره اليها فرآها تنظر اليه نظر العتاب وعيناها تتكلمان بما يعجز عنه اللسان. فصبر لعلها تقول شيئاً فبسطت كفها وقدمتها له فقرأ عليها بيتاً منقوشاً بالحناء وهو :

فديتك قد جبلت على هواكا ... فقلبي ما ينازعني سواكا

فلما وقع نظره عليه وجد للكلام سبيلا فحول وجهه عن تلك الكف وقال : « قد كان ذلك من عهد بعيد » وهز رأسه هزة الغضب

فقالت : « هل يأذن أمير المؤمنين بالجلوس »

فأشار اليها أن « اجلسي »

فقعدت بين يديه وقالت : « مالي أرى مولاي قد تغير على جاريته »

قال : « لم أتغير أنا يا زهراء »

قالت : « ولا أنا ياسيدي . . كيف يخطر ببالي التغير وأنا في نعمة لم يحلم بها أحد قبلي ؟ »

قال : « أراك سعيدة في هذه القصور »

فابتسمت وقالت : « كيف لا أكون سعيدة وأنا مخصوصة برضى أمير المؤمنين رافع لواء الاسلام والمسلمين . . »

قال : « لا تكذبي . . كم من مرة رأيت أسباب الكآبة في محياك وسألتك عن علة ذلك فانكرت ؟ أظنني عرفت العلة الآن » قال ذلك بنغمة الظافر ولسان حاله يقول « كشفت سرك . . »

فلما أشار الى انقباضها الماضي اجفلت وأخذ الانقباض بغالبها وهي تبتسم وقالت « لا يخلو الانسان من أسباب قهرية حتى لا يكون أهل الارض مثل أهل السماء — فلولا هذا الانقباض القليل الذي يتولاني في بعض الاحايين لكنت أحسبني في النعيم »

فاعجبه تخلصها بهذا الاطراء ولكنه لم يقتنع فقال « نعم ولكن أحب أن أعرف سبب ذلك الانقباض — ما هو سبب انقباضك الفجائي أحياناً وأنت جالسة اليّ ونحن في طرب وغناء ؟ »

فتنهدت رغم ارادتها وقالت « يندر أن يحدث ذلك ولا أذكر سببه »

قال « أنا أعلم سببه »

قالت « طبعاً . أمير المؤمنين أعلم »

قال « لم أكن أعلم ذلك قبل اليوم » وتنحنح

فادركت أنه لا يلبث أن يذكر ما شاهده منها فقالت « وكيف عرفته ؟ »

قال « عرفته بالصدفة . . . هل حفظت درسك في الالحان اليوم »

قالت « كلا يا سيدي »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لاني كنت في شاغل »

قال « ما الذي يشغلك عن ذلك . . وأنت الآمرة الناهية في هذه القصور كلها . . وأنت صاحبة السيادة على ما فيها من الجواري والغلمان ؟ »

قالت « ألعل كثرة الجواري وسعة القصور تغني الانسان عن الاشتغال هذا أمير المؤمنين يده فوق كل يد ومع ذلك فهو يرى ما يشغله احياناً »

فتبادر في ذهنه أنها تؤنبه على تمثله بمابدة وتشير الى ما استخفته من الطرب في تلك الليلة فقال « أظنك تحاسبيني على خطواتي وتعدين علي أنفاسي . . ها أنك عرفت ما شغلني أحياناً . . قولي ما الذي يشغلك . . . قولي ما الذي شغلك عن الدرس الليلة » قال ذلك بصوت فيه شيء من التهديد وحدق بصره فيها

فلم تتهيب من تهديده فظلت رابطة الجأش وقالت « ان ما شغلني عن الدرس هو أهم من الدرس في نظري »

قال « طبعاً هو أهم من الدرس . . وتقولين ذلك صريحاً ؟ »

قالت « قد تعودت الصراحة في القول فلا أغيرها »

قال « فاذاً أصدقيني الآن »

قالت « بماذا ؟ »

قال « مع من كنت مختلية في هذا المساء ؟ »

قالت « مع الامير عبد الله ابن أمير المؤمنين »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لسبب لا اقوله »

قال « او تكتمين ذلك عني ؟ »

قالت « نعم يا سيدي اكتمه »

قال « ولكن ذلك يسوءني كما تعلمين »

قالت « لم أكن اعلم أنه يسوءك ومع ذلك فقد حصل »

قال « تقولين بجسارة انه حصل ولا تريدين ان تطلعيني على السبب ؟ تقولين ذلك صريحاً بلا تخوف ؟ يا لله من هذه الوقاحة »

فتبينت الغضب في عينيه وساءها لفظ (الوقاحة) فقالت « لم أتعود هذا الغضب من أمير المؤمنين ولا هذه الالفاظ » واطرقت دلالا واشتغلت باصلاح الاساور في زندها وهي تنظر اليها

الفصل التاسع والاربعون

الحيرة

فكر الناصر من عتابها ولكنه أصر على استطلاع سرها فقال « اعلمت انك لم تتعودي مني هذا الجفاء لاني لم أر منك ما يبعث عليه. فانت الآن قد خرجت عن عهدي فيك »

قالت « بماذا ؟ ألأني خاطبت ابنك ؟ »

قال « ليست مخاطبته مما تؤاخذين عليه ولكنك فعلت ذلك سراً وأتيت لعبد الله بثياب امرأة . . لا أدري كيف أطاعك هو على ذلك . . انه خائن » وأحس الناصر ان الغضب يكاد يخرجه فتهاسك وسكت

فقالت « اذا غضب أمير المؤمنين من عملي فانا صاحبة الذنب وليس ابنه الامير عبد الله فلا يتهمه بشيء . . وسوف تظهر براءته »

فقال الناصر « والآن قولي . . ألا تخبريني عن سبب تلك الخلوة بعبد الله ؟ »

قالت « لا أقول ذلك الآن . . لا تغضب يا مولاي اني لا اقدر ان اقوله ولكن المستقبل يتكفل بكشفه »

فلما يئس من استنطاقها حدثته نفسه أن يحملها على الاقرار قهراً ثم رأى ذلك يحط من كرامتها وهو يحبها ويحب المحافظة على منزلتها لكثرة حسادها في بلاطه . وكثيراً ما جاءته الوشايات في حقها وهو يدافع عنها ويظهر حسن ظنه بها . فرأى ان حملها على الاقرار بالقوة يحط من كرامته لدى أهل دولته فضلا عن شغفه بها فهو يميل بعواطفه الى تبرئتها لئلا يأول الغضب الى تركها أو قتلها وهو يرى بقاءها لازماً له ويعد وجودها فألا حسناً على دولته لانه ما زال منذ عرفها والسعد خادمه في الحرب والادارة السياسية . على ان الحب كثير الظنون قريب الشكوك . فلما تذكر كيف رآها في خلوة مع ابنه على تلك الصورة ثارت غيرته فرأى من الحكمة أن

يتسهل في الحكم واستطلاع السر بالحسنى فاخذ يفكر في كيف يتخلص الى الرضى

فلحظت هي تفكيره فجثت بين يديه وقالت « كيف يظن مولاي السوء بي وقد غمرني بنعمه ورفع منزلتي وجعلني موضوع حبه وأقرب الناس اليه وتحمل ثقته »

فلما سمع هذه اللفظة تذكر قولا سمعه من سعيد أول يوم لقيه في قصره وطلب اليه أن يستطلع طالعه فقال له يومئذ « ان الخوف يأتيك من أكثر الناس ثقة عندك » فعاد الى الارتياب ولكنه صمم على الصبر فوقف وهو يقول « أنا ذاهب وينبغي لك أن تعرفي لي سكوتي الآن مع ما يحيط بي من أسباب الريب »

قالت « عرفت ذلك لك في جملة أفضالك وسترى أني موضع ثقتك » ومشت في أثره ولحظت أنه يمشي الهوينا كأنه يتوقع أن تدعوه للرجوع أو ان قلبه لم يطاوعه على الخروج وهو لم يستفد شيئاً . فكان يخطو خطوتين ويقف هنيهة ثم يخطو وهي تمشي في أثره لتشيعه الى باب الغرفة . فلما وصل الباب وقف والتفت اليها فرآها مطرقة اطراق التفكير فتبادر الى ذهنه انها عدلت عن الكتمان فتحول نحوها وقال « ألا تغيرين رأيك فتطلعيني على الحقيقة ؟ »

قالت « قلت لمولاي ما يمكنني أن أقوله وأنا أعلم ان حياتي وموتي بين شفتيه ولكن . . . »

قال « ولم ينتظر تمام كلامها « أسألك سؤالا واحداً أجيبيني عليه بالصدق ؟ »

قالت « اسأل يا سيدي فاني لا أقول غير الصدق »

قال « اتحبين ابني عبد الله ؟ »

قالت « نعم أحبه » ولم يتلجلج لسانها ولا تغير وجهها

فبهت لهذه الجسارة ونظر في وجهها وأجال نظره فيها وهي لا تبالي فقال لها « تقولين ذلك بكل جسارة ؟ »

قالت « ألم تشترط عليّ الصدق ؛ اني أحب الامير عبد الله . . كيف لا أحبه وهو ابن سيدي أمير المؤمنين ؟ »

فرأى في هذا التغير ما يخفف الغضب وندم على رجوعه للسؤال فسكت ومشى الى غرفته وعادت هي الى غرفتها واستلقت على سريرها وتنهدت كأنها اطلقت نفساً كان محبوساً في صدرها ويكاد يخنقها . فأتاها جوهر وأخذ يلاعبها التماساً لتسليتها فاشارت اليه أن يتركها وحدها

الفصل الخمسون

الهواجس

ثم أمرت احدى وصائفها أن تهيء لها الفراش وجاءت وصيفة أخرى لتساعدها في تبديل ثيابها وهي مستغرقة في الافكار . فلما فرغت من تبديل الثياب أمرت باطفاء الانوار الا ضوءاً ضعيفاً . وارخت الستارة (الناموسية) على سريرها واستلقت تلتمس الرقاد فلا تجده

وما غمضت عيناها حتى تراكمت عليها الهواجس وأخذت تفكر في حالها وما يظهر من سعادتها التي يحسدها عليها الناس وما يعتور تلك السعادة من أسباب الشقاء . فعادت بذاكرتها الى صباها منذ حملها النخاسون من جبال الصقالبة وهي طفلة ومعها أخوها . ولما تذكرت أخاها تنهدت وقلبت على جنبها الايمن تريد أن تنسى تلك الذكرى فلم تزدها هذه الرغبة الا تذكراً . فتذكرت كيف حملت مع أخيها الى ايطاليا وعليهما اطمار بالية لا تقيها البرد ـ ولكن جمالها كان يستلفت الانظار فوقعت الى احد تجار الرقيق من اليهود وكان عارفاً بمخارج التجارة فعلم ان مثل هذه الجارية لا يدفع ثمنها الا المسلمون في صقلية . وكانت جزيرة صقلية يومئذ في حوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين في المغرب . وكان أمراؤها يتقربون الى خلفاء تلك الدولة بامثال هذه الهدايا . فأراد أن يبتاع الزهراء ليرسلها هدية فابت وتوسلت الى التاجر أن لا يبيعها الا مع أخيها لانها كانت شديدة التعلق .

ولم يكن لها تعزية في ذلك الاسر والفقر الا لان أخاها معها . فاطاعها التاجر واشترط مع أمير صقلية أن يشتري الاثنين معاً فرضي وابتاعهما لان جمال الزهراء بهره واعجبه ما آنسه من لطفها وذكائها . وحدثته نفسه أن يستبقيها له لكنه كان في حاجة الى مهمة من الخليفة العبيدي صاحب افريقيا وهو يومئذ المهدي فاقرّ على أن يرسلها اليه ويستبقي أخاها عنده يربيه في داره ويدربه على الجندية على جاري عادتهم في استخدام المماليك . فابت الزهراء عليه ذلك وتقدمت اليه أن يرسل أخاها معها فيكون حيث تكون فلم يطاوعه قلبه على رد طلبها بعد ما آنسه من لطفها

كانت الزهراء وهي ناعمة على جنبها تتذكر صبوتها على تلك الجزيرة وكيف استغربت ما شاهدته هناك من ظواهر المدنية مما لم تكن وقعت عيناها على شيء مثله من قبل لانها نشأت بين الجبال والاودية ترعى الماشية أو تذهب للاحتطاب . ومع ذلك فقد كانت سعيدة هناك لانها لم تكن تعرف ما وراء تلك السذاجة البدوية من تنعم المدن . واسعد الاوقات عندها عند ما ترجع في المساء مع أخيها وهما يتسابقان في نقل حمل من القش أو العيدان أو يسوقان بعض الماعز وأبواها ينتظرانهما في كوخ حقير فيشعلون تلك العيدان ويحومون حولها للاستدفاء . وكان يلذ لها تذكر ذلك الدفء مع الدخان المتصاعد حتى يكاد يعمي الابصار اكثر مما يلذ لها الفرق في ذلك الفراش اللين مع ما يغشاه من الكلل المطرزة والستائر الموشاة وما تضوّع في سماء تلك الغرفة من الاطياب

فلما تذكرت ذلك تنهدت وقد ضاق صدرها فدفعت الغطاء عنها وقلبت الى الجانب الآخر وأخذت تناجي نفسها « ويلاه ما هذه الهواجس . . آه ما اجمل تلك الجبال الجرداء وما أشهى رائحة دخان العيدان وأنا بقرب أخي وحبيبي . . » ولما ذكرت أخاها جلست على الفراش فجأة والتفتت الى ما حولها على ذلك النور الضعيف فرأت الوصيفة التي تنام عند قدميها لا تزال جالسة كانها شعرت ان الزهراء لم تنم بعد . فظلت جالسة لعلها تحتاج اليها في شيء

أما الزهراء فلما رأتها أجفلت لانها كانت تود أن تكون وحدها لعلها تطلق لاشجانها العنان

الفصل الحادي والخمسون

حديث عن الصبا

وكانت تلك الوصيفة أخص وصائفها بها وقد فتحت لها قلبها واخذتها أماً واطلعتها على بعض سرها . ولم تكد الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة واقفة تتوقع أمرها بما تريده فنادتها الزهراء قائلة « ألا تزالين جالسة يا خالة ؟ »

فقالت « كيف أنام يا سيدتي وأنا أراك تتقلبين على فراشك . . هل تحتاجين الى خدمتي . . ؟ »

قالت « كلا » وفي غنة صوتها دليل على شيء تكتمه

فقالت « يظهر لي أنك تحتاجين الى شيء »

فتنهدت الزهراء وقالت « نعم . . ولكن . . »

فتقدمت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت « هل أرفع هذه الكلة (الناموسية) »

قالت « افعلي . . اني أراني لا أستطيع الرقاد »

قالت « يظهر أن حديثك مع أمير المؤمنين أقلقك . . لا بأس عليك لا يلبث أن يرضى صاغراً » قالت ذلك بصوت منخفض كانها تحاذر أن يسمعها أحد

فقالت الزهراء « اعلم ذلك جيداً . . ولكن رضاءه لا يخفف شيئاً من قلقي . . »

قالت « ما الذي يقلقك وأنت سيدة هذه القصور وساكنيها ربة الجمال والذكاء لا يردُّ لك أمر — حتى أمير المؤمنين صاحب السيادتين يتمنى رضاك »

فتنهدت وتشاغلت بجمع شعرها عن وجهها وارساله الى الوراء ثم قالت « أتظنين السعادة يا خالة في ما ترينه من الرياش والأثاث أو بما يحدق بي من الخدم ؟ اني تعسة . . أني شقية . . » وغصت بريقها

قالت « ماذا حدث يا سيدتي ؟ »

قالت « لم يحدث شيء ولكن هذا النور الضعيف أذكرني أشياء كنت أحاول نسيانها . . »

قالت « هل أثير الشموع ؟ »

قالت « لا . . »

قالت « ماذا افعل . . ماذا تريدين أن أفعل لراحتك ؟ »

قالت « ان الذي يريحني لا تقدرين عليه »

فاطرقت الوصيفة هنيهة وكأنها تذكرت سبب ذلك القلق وقالت « أظنك عدت الى الحديث القديم . . ان ذلك التذكار ياسيدتي لا فائدة منه . ان اخاك لا سبيل اليه وقد آن لك أن تنسيه »

فمدت الزهراء يدها الى فم الوصيفة كانها تحاول أن تسكتها وقالت « لا تقولي ذلك . . كيف أنساه ؟ وانا لا أزداد إلا تذكاراً . . . اني اتذكر صباي يوم حملت من صقلية مع أخي كما أخبرتك مرة . . اتذكر الآن وجهه الصبوح وقد أخذ بيدي ووقف الى جانبي على ظهر السفينة وهي تقلع من مياه صقلية . . ياليتنا بقينا في تلك الجزيرة ولم ننتقل منها . . يا ليتنا غرقنا معاً في تلك المياه . . »

قالت « ولكن انتقالك كان سبباً في وصولك الى هذه النعمة التي يحسدك عليها أقرانك بل يحسدك عليها نساء العالمين »

قالت « هذا صحيح ولكن ينقصني وجود أخي ليتمتع بهذه السعادة معي . . آه من ينبئني عن مكانه . . هل هو حي أم ذهب طعاماً للاسماك ؟ » ومسحت عينيها بطرف كمها

قالت « لا يعلم ذلك الا الله . . ولو كان حياً لعلم بمقامك وجاء اليك »

قالت « كيف يعلم وهو لا يعرف اسمي هذا . . هو لا يعرف اسمي

الزهراء وانما يعلم ان اسمي « حسناء » فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغ اليه خبري . . »

فقالت صحيح . . . وأين افترقتما يا سيدتي ؟ هل تخبرينني لعلي استطيع أمراً ينفعك . . . هل تكاشفيني ؟ »

فقالت الزهراء « فارقته في عرض البحر اختطفني القرصان ونحن على تلك السفينة ولا أعلم ماذا فعلوا بأخي . . »

قالت « ألم تسألي عنه »

قالت « من اسأل ؟ وقد نقلت من أناس لا أعرفهم الى أناس لا أعرفهم وكلهم لصوص . اختطفني اللصوص من بين ذراعي والديّ وباعوني الى تجار من صقلية مكثت عندهم مدة علموني فيها اللسان العربي ثم باعوني لامير صقلية وهذا أمر رجاله فحملوني على سفينة قالوا انهم ذاهبون بي الى ملك عظيم في افريقية . فرضيت لان أخي كان معي فلم تجر السفينة بنا الا بضعة أيام حتى سطا علينا لصوص البحر في ليلة ليلاء وهم كثيرون في هذا البحر يسطون على السفن ينهبون ما بها ويسوقونهم القرصان . . وقد كان في امكاني أن أبقى هناك ولكن . . »

فتعجبت الوصيفة من قولها وقالت « ولماذا لم تبقي ؟ »

الفصل الثاني والخمسون

سبب الفراق

فغصت بريقها وسكتت وهي تتلاهى بمسح دمعتين انحدرتا على خديها وقالت « لم ابق لاني كنت أطلب النجاة من رجل هناك يزعم انه رئيس تلك السفينة وما برح منذ أقلعنا من صقلية وهو يتقرب اليّ وانا اشعر بنفور منه لا أدري سببه وهو يدنو مني ويعدني ويمنيني ويظهر انعطافه نحو أخي ويلاطفه فاظهرت لاخي نفوري من ذلك الرجل وتواعدنا اننا اذا وصلنا الى بر افريقيا شكوناه الى ملكه . وكان ادرك غرضنا فجعل يضيق علينا .

فلما جاءنا القرصان خطر لي من شدة كرهي لذلك الرئيس ان انتقالنا الى سفينة القرصان ينجينا منه ـ ونحن في كل حال غنيمة للقوي فلم ندافع كثيراً ولم تكن نجاتنا في أيدينا . فما شعرت إلا وأنا على سفينة القرصان وقد أقلعت بنا وكنت أحسبهم خطفوا أخي معي فلم أجده فبكيت وصرخت وما من سميع فأخذت أشعر بالتعاسة من ذلك الحين . وحملني القرصان الى شاطىء الاندلس فباعوني الى لصوص آخرين حتى وقعت الى رجل حملني الى قرطبة فلما رآني ياسر رئيس الخصيان اشتراني لسيده أمير المؤمنين . فشغلت في بادئ الرأي بمصائبي ثم بالانتقال الى هذه النعمة وما لبثت أن عدت الى أمر أخي ويكاد الندم يأكلني لاني أحسبني كنت سبباً في هذا الفراق . . » ولما بلغت الى هنا لم تملك عن البكاء وهي لا تجسر أن تجهر به لئلا يظن من يسمعها أنها تبكي خوفاً من غضب الخليفة

وكانت الوصيفة تسمع كلامها وتعجب لشدة تعلقها بأخيها لانها لو كانت هي في مكانها وصارت بهذه المنزلة من الجاه والنعم لم تعد تذكر أحداً من أهلها ـ ولكن الناس يتفاوتون باحساسهم وشعائرهم ففيهم المحب الذي اذا أحبّ تعشق وارتسم حبيبه في كل جارحة من جوارحه ولا يجد له عنه صبراً ولا تغيره طوارق الحدثان . ومن الناس من يخلق مطبوعاً على الالفة اذا تعود شيئاً شق عليه فراقه ولو كان مكروهاً والى ذلك أشار المتنبي بقوله عن نفسه

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ويغلب في من يحب كثيراً أن يكره كثيراً فيكون حبه كلفاً وبغضه تلفاً وفيهم من لا يعرف من الحب الا اسمه وانما يكون الحب في نظره قضاءً لمصلحة أو طمعاً في غرض فاذا تجرد عن ذلك لم يبق له أثر

وكانت الزهراء قوية عاطفة الحب مع تعقل وصدق مودة وقوية عاطفة البغض . وكانت قد تعشقت اخاها كما رأيت وتجد الحياة مرة بدونه وهما في أشق الاحوال وقد ابغضت رئيس تلك السفية حتى لم تعد تستطيع ان

تصوره فلما صارت الى تلك النعمة صارت تحب ان يكون اخوها معها ليشاطرها مسراتها وهي مع ذلك لا تعرف مصيره .. حي هو ام ميت ؟ لا تعلم

أما الوصيفة فلما رأت يأس الزهراء أرادت أن تشغلها عن ذلك الحديث بسواه ولم يكن يشغلها شيء عنه فقالت « احمدي الله أنك نجوت من شخص تكرهينه . . و . . . »

فابتدرتها قائلة « نعم نجوت . . وليتني نجوت . . وكفت عن الكلام كأنها ندمت على ما فرط منها فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت « ان تفكيرك يا سيدتي باخيك لا فائدة منه وقلبي يحدثني انك ستلتقين به . . . ألم تسألي المنجمين عنه ؟ »

فقطعت الزهراء كلامها قائلة « اني لا أصدق المنجمين ولا أثق اذا سألتهم أن لا يبلغوا الخبر الى الناصر . ولا أريد ان يعرف اني مشتغلة عنه باحد لانه لم يشتغل عني بسواي . . »

فقالت « أحسنت » واقتربت من أذنها وقالت همساً « ولكنني علمت ان الرجل الذي أمره مولانا الناصر أن يعلمك الغناء بارع في التنجيم لا مثيل له فيه »

قالت « تعنين سعيداً الوراق ؟ هل يعرف التنجيم ؟ »

قالت « أنا على ثقة من ذلك وعلمت ان مولانا يعول عليه سراً في استطلاع الغيب وله فيه ثقة كبرى فاذا جاء لتعليمك الغناء اسأليه لعله يفيدك ولا خسارة من ذلك »

قالت « ولكن سؤاله في هذا الشأن يقتضي . . . لا بأس إسأرى » واحست من تلك الساعة براحة أذهبت قلقها فاظهرت أنها تميل الى الرقاد فساعدتها الوصيفة بارسال الكلة ونامت وهي تعمل فكرتها في ما تفعله

أما سعيد فذهب تلك الليلة الى غرفته ينتظر أن يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء ولم يفت جوهر شيء مما دار بينهما فجاء سعيداً وقص عليه ما سمعه . فبات تلك الليلة وهو يتوقع أن يبعث الخليفة بطلبه في الغد

الفصل الثالث والخمسون

التنجيم

وفي الصباح جاء ياسر يدعوه الى الناصر فنهض ومعه كتاب التنجيم وياسر يحرضه على الايقاع بالزهراء . فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لا يزال في فراشه فدعاه الى الجلوس فجلس وهو يتجاهل فقال له الناصر « هل علمت جاريتنا الزهراء شيئاً ؟ »

قال « كلا يا مولاي لاني لم أجدها في غرفتها بالامس »

فقال « ألم يدلك تنجيمك على سبب غيابها ؟ »

قال « لم أبحث عن سبب ذلك ولو أمرتني لفعلت »

قال « افعل »

فاستخرج الكتاب وأخذ يقلب فيه ويتأمل بعض اسطره كأنه يحسب ويستخرج والناصر ينتظر ما يقوله . فلما أبطأ في الكلام قال له « ماذا وجدت ؟ »

قال « يأمر مولاي بمبخرة »

فصفق وأمر له بما أراد فجيء اليه بمبخرة من ذهب فيها جمرة فاستخرج من جيبه قطعة من البخور ووضعها في المبخرة وجعل يتفرس في الدخان المتصاعد عنها ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كأنه يستظل بها من الشمس وهو ينظر الى الدخان ويقول « ماذا أرى ؟ أليس هذا الامير عبد الله ؟ »

فلما سمع الناصر قوله تيقن اقتداره على استطلاع الغيب وظل ساكتاً ليرى ما يبدو منه فانزل سعيد يده وأعاد التفرس في الدخان وهو يتصاعد في المبخرة الى السقف وقال « بلى هذا هو الامير عبد الله ابن أمير المؤمنين في الحديقة والزهراء الى جانبه . . هذا يا سيدي ما أراه . . ولا أدري اذا كان البخور يخدعني »

قال « وهل خدعك من قبل ؟ »

قال « كلا وانما استبعدت ذلك لاني تركت الامير عبد الله في قصره ولم أسمع انه جاء هذا القصر »

قال « ينبغي لك ان تعرف كيف جاء »

فعاد الى المبخرة ووضع عليها قطعة أخرى من البخور ونظر الى دخانها وقال « هو هو بعينه وعليه لباس النساء والزهراء الى جانبه تحادثه

قال « ماذا كان حديثها »

قال « لم اسمع شيئاً . . »

قال « احب أن أعرف الحديث الذي دار بينهما »

قال سعيد « وهذا ما أحب أن أعرفه أنا ولكني لا أسمع شيئاً الآن »

قال « هل ترجو أن تسمع شيئاً في فرصة أخرى »

قال « نعم يا سيدي »

قال « يكفي الآن فاكتم ما رأيت ومتى تمكنت من سماع الحديث اخبرني . . وما الذي يساعدك على سماعه ؟ »

قال « يساعدني ان اسمع صوتها تتكلم »

قال « فانت اليوم مأمور بتعليمها الغناء وسأبعث اليها انك آت لهذه الغاية في العصر »

فاشار برأسه اشارة الطاعة وقال « الامر لمولاي ولكن الافضل أن لا يكون ذلك في غرفتها لكثرة من فيها من الخدم والوصائف . . . أو يأمر مولاي أن تكون هناك منفردة ومعها وصيف أو وصيفة فقط »

قال « حسناً وانها تفضل ذلك أيضاً . فمتى ذهبت اليها تجدها في غرفتها منفردة »

قال « هل اذهب اليها في أصيل هذا اليوم ؟ »

قال « افعل » وترحزح الخليفة من مكانه فنهض سعيد واستأذن وخرج وفي العصر اصلح شأنه واصطحب ياسراً الى غرفة الزهراء فاوصله الى باب الغرفة ودخل فاخبرها بمجيئه وانصرف . فدخل سعيد من باب الغرفة

فوجد في وسطها ستراً منصوباً خرج اليه من ورائه جوهر واظهر انه لم يره الا في تلك الساعة وقال له « أنت معلم الغناء ؟ »

قال « نعم »

قال « ان مولاتي في انتظارك وراء هذا الستر بامر الخليفة تفضل واجلس » وثنى وسادة وقدمها له فجلس ثم ذهب فأتاه بعود وقال « هذا عود لتدلها به على ما تريد أن تفعله »

الفصل الرابع والخمسون

التعليم

فتناول سعيد العود ووزنه على لحن ودفعه الى جوهر وقال « ادفعه اليها »

فدخل به وسلمه اليها فقال سعيد « اضربي عليه لحن كذا »

فاخذت تضرب وهو يشير عليها أن تصلح هذا الوتر وتشده أو ترخيه وتغير هذه النقرة أو تلك وهي تفعل وأفكارها تائهة لانها ما زالت مشغولة الخاطر في أمر أخيها والتنجيم

ولم يكن هو أقل اشتغالاً بها وود لو انها تزيح ذلك الستر ليراها وندم لانه لم يشترط على الناصر مجالستها ورؤيتها ولكنه أومأ الى جوهر أن يحتال في ابرازها . فاخذ جوهر يظهر الضجر من نقل الدرس بينهما وقال « ان التعليم على هذه الصورة لا يفيد يا قوم »

وكان لقوله وقع استحسان عند كليهما فقال سعيد « لو استأذنت أمير المؤمنين في أن نتقابل لم يمنعنا . . واذا أمرت الزهراء بذلك الآن كان الامر لها »

فقال جوهر « لا أظن سيدتي تمانع في ذلك ونحن في هذا الجناح من القصر وحدنا ليس من يسمع أو يرى » ودخل اليها فخاطبها همساً ثم عاد وقال « ان سيدتي تأمر برفع الستر على شرط »

قال « وما هو ؟ »

قال « بلغها انك عالم بالتنجيم . . . »

فقطع سعيد كلامه قائلا « ومن ابلغها ذلك ؟ »

قال « علمت والسلام . . وأنا أعلم أيضاً . فالشرط يا سيدي أن تستطلع أمراً شغل بالها منذ عدة أعوام . فاذا فعلت وأصبت كشف الستر وقابلتها . فهل تقبل بهذا الشرط » قال ذلك وهو يتلوى ويتماجن

فقال سعيد « أما وقد امرت فلها عليّ ذلك » ثم وجه خطابه اليها فقال « ما الذي تريدين كشفه يا سيدتي ؟ »

قالت « وصوتها يتلجلج » لا أقول ما هو ولكنني أقول اني فقدت شخصاً منذ أعوام كثيرة ولا أعلم ما صار اليه أمره فاذا كنت تعرف التنجيم حقيقة قل لي من هو وأين هو ؟ »

فاستخرج سعيد كتابه وأخذ يقلب فيه وقد استولى السكوت على المكان لا يسمع فيه الا حفيف صفحات الكتاب ثم قال « انك تبحثين عن أخ شقيق »

فلما سمعت الزهراء قوله لم تتمالك ان صاحت « نعم أخي شقيقي لله درك . . هل هو حي ؟ اخبرني حالا »

فاعاد التقليب وقال « نعم انه حي ؟ »

فاستغربت حكمه السريع وشكت في صدقه وقالت « اتعرف اسمه ؟ »

قال أي اسميه تريدين ؟

قالت « وهل له اسمان »

قال « نعم له اسم تعرفينه واسم جديد لا تعرفينه »

قالت « ما هو اسمه الذي اعرفه ؟ »

قال « سالم »

فصاحت « نعم سالم . . سالم . . قل لي هل هو حي ؟ قل رعاك الله »

قال « نعم انه حي ولكنه . . . »

قالت « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكنه تحت خطر القتل »

فلما رأته صدق في معرفة الاسم وانه شقيقها اعتقدت قوله عن الخطر المحدق به وأخذت ترتعد وقالت « وأي خطر . . . وأين . . . قل لي . . . فان أمير المؤمنين ينقذه منه اكراماً لي »

قال « يا حبذا ذلك . . ولكن الخطر عليه من أمير المؤمنين نفسه »

الفصل الخامس والخمسون

كشف الحجاب

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب بينها وبين سعيد فنهضت وأطلت من وراء الستر وقد ارخت على رأسها خماراً مزركشاً وعيناها تلمعان من الدهشة. فنهض سعيد عند رؤيتها كأنه وقف احتراماً لها فقالت « الخطر عليه من أمير المؤمنين ؟ » قالت ذلك وحالما وقع نظرها على سعيد تراجعت وحولت بصرها عنه لحظة ثم أعادت النظر اليه وتفرست في وجهه كأنها تعرفه أو تعرف رجلا يشبهه ولكنها أحست بقشعريرة

أما هو فنظر اليها بهدوء وقال بصوت خافت « لا تضطربي يا حسناء ان أخاك سالماً لا بأس عليه ولو كان الخليفة خصمه »

فلما سمعته يناديها باسمها القديم اجفلت وزادت رعدتها ولم تعد تقوى على الوقوف وقالت « لست منجماً ولكنك نبي »

فضحك وحول وجهه عنها ليهدأ روعها وقال « لست نبياً ولا منجماً »

فغطت وجهها بكفها وقالت « ماذا أرى . . . ويلاه . . هل أنا في يقظة أو في منام ؟ »

قال « بل أنت في يقظة يا حسناء »

فرفعت كفيها عن عينيها ثم أعادتهما وتحولت مسرعة الى ما وراء الحجاب وهي تقول « نعم في يقظة . يا ليتني كنت في منام »

وكان جوهر واقفاً يسمع ما دار بينهما وقد أخذته الدهشة فلما رأى

الزهراء عادت الى وراء الستر تبعها وقال لها « ما بالك يا سيدتي ؟ ..اسأليه أين أخوك الآن . . أتمي الحديث »

فدفعته بيدها فاظهر انه استلقى على ظهره من عظم الدفعة وأخذ يتماجن فقال « الحق عليّ لاني خالفت مولاي وأذنت بخروجك الى المعلم »

اما سعيد فانه ظل واقفاً لا يتكلم ثم تقدم وأزاح الستر بيده فرأى الزهراء قاعدة وقد جعلت رأسها بين كفيها وأطرقت كأنها أصيبت بالجمود فقال لها « ما بالك يا سيدتي هل عدلت عن الاستفهام ؟ هل أذهب ؟ »

فادارت ظهرها له وانزوت وراء الستر وقالت « نعم أذهب ...اذهب لا . . لا تذهب »

فقال « أذهب ؟ أم لا أذهب ؟ . اذهب لاني قلت لك الحق ؟ أني ذاهب » وأرخى الستر من يده وتحول فوثب جوهر اليه وأمسك برداءه وقال « تعال . . الى أين أنت ذاهب »

فأشار سعيد الى جوهر أن يخرج من الغرفة ويتركهما فخرج

فلما بقي سعيد وحده وقف والستر لا يزال مسدلاً بينه وبين الزهراء وقال لها « والآن يا حسناء ماذا تريدين ؟ نحن الآن في خلوة . . اخرجي اليّ وانظري في وجهي »

فلم تجبه فرفع الستر ودخل فرآها واقفة وهي مطرقة تنظر في الارض وقد امتقع لونها وتبدلت سحنتها وتولتها الرعدة فقال لها « انظري اليّ »

فرفعت يدها كأنها تتقي بصره بكفها وقالت « دعني لا أقدر أنظر اليك. قل لي من أنت ؟ »

قال « قولي أنت من أنا ؟ كما قلت لك من أنت »

فقالت « قل من أنت . . . »

قال « انا سعيد الوراق بعثني أمير المؤمنين لاعلمك غناء أهل العراق»

فرفعت بصرها اليه وتفرست فيه وهي تتجلد وقالت « كلا بل أنت لصّ غادر »

فضحك وقال « لست لصاً ولكن اللص من يخون ولي نعمته ويختلي بالغرباء يأتي بهم الى قصر الخليفة بأثواب النساء »

فصاحت « ويلك .. انك شيطان بل أنت عفريت من العفاريت »

فقال بصوت هادىء « انا من انا .. فالافضل لك أن ترجعي الى رشدك وتتكلي عليّ إذ ليس لك من يفرج كربك سواي »

فتماسكت ووقفت وهي تفرك عينيها ولا تصدق انها في يقظة وصاحت به وقالت « قل لي . قل من أنت حالاً »

قال « أقول ام تكتفين بما قلته ؟ »

قالت « قل . . قل سريعاً » وعيناها تبرقان من الدهشة وشفتاها ترتجفان من الغضب وقد شخصت فيه

فقال « انا سليمان »

فلما سمعت اسمه صرخت ووقعت مغشياً عليها فبادر الى رشها بعطر كان معه حتى أفاقت وحالما فتحت عينيها ورأته تراجعت وغطت وجهها بيديها وقالت « انت سليمان ! . انك أصل بلائي . . سوف أريك عاقبة عملك . . ألا تزال تتعقبني وكنت السبب في ضياع أخي . . » قالت ذلك ونهضت وهمت بالخروج كأنها تريد أن تستعين عليه بأحد فامسك بيدها وأوقفها وقال « تمهلي ولا تلقي بيديك الى التهلكة . . اعلمي ان حياتك وحياة أخيك في يدي »

الفصل السادس والخمسون

الدهشة

فوقفت وهي تنظر اليه وتتفرس في سحنته وهو يرنو اليها بلطف وسكينة ثم قال « لا تغضبي يا حسناء . . ولا تتقدمي عليّ فاني ارتكبت العظائم في

سبيل حبك . اني أحبك . . » قال ذلك بلحن الحب الولهان

فلم يزدها ذلك إلا غضباً وقالت « أنا لا أحبك . . يكفي ماجررته عليّ من البلاء »

قال « لم أجرر عليك بلاء . ولا ذنب لي عندك سوى اني أحبك وقد عرفتك قبل أن عرفك صاحب هذا القصر »

قالت « وتتجاسر على جارية أمير المؤمنين . . ألا تعلم انك إذا اطلع الناصر على حقيقة أمرك أماتك حالاً »

قال لا تجعلي للطيش سبيلا الى عقلك . . . تذكري أخاك وان حياته في يدي اذا شئت قتلته في هذه الساعة »

قالت « كذبت . . قد عرفت الآن أنك تحتال عليّ وتحملني على خيانة مولاي ومولاك الناصر . . فلا تطمع بنيل مرامك — انك مائت لا محالة دعني والا صرخت صرخة جمعت عليك أهل القصر فيسوقونك الى حتفك »

فترك يدها وقال « يظهر انك لم تصدقي قولي ان اخاك حي وانه تحت خطر القتل ولا ينقذه من الموت شيء غير استرضائي . . لا تثوري . . اذا كنت تعتقدين كذبي وانك قادرة على اذيتي فهذا لا يفوتك في أي وقت اردته فلا تتعجلي فتعود العائدة عليك . . ان لامير المؤمنين ثقة فيّ وفي تنجيمي لا تتزعزع »

فقطعت كلامه قائلة « انا أخبره أنك خائن وأطلعه على حقيقة أمرك »

فقال « هل تظنينه يصدقك ؟ »

قال « نعم يصدقني »

قال « لا . . ومع ذلك فان الخطر يبقى على أخيك لان الناصر حالما يعلم به يبعث فيطلب رأسه . . فالاحسن ان تتبصري »

فاقشعر بدنها وخافت على أخيها وتجلدت وكظمت وقالت « ها اني متبصرة قل ما هو خبر أخي »

فتقدم نحوها ونظر الى عينيها نظر الاسترضاء وقال « اني اشكو اليك غرامي بك واستهلاكي في خدمتك وأنت تشتميني وتهددينني . انظري الى

الفرق بيننا ! . أما أخوك فقد سألتني عن اسمه وقلت لك أن له اسمين ذكرت احدهما ولم تسأليني عن الآخر »

قالت « وما هو الآخر ؟ »

قال « اسمه صاحب النقمة »

وكانت تعلم ان ذلك اسم رجل من أشد اعداء الناصر واكثرهم سعياً في خلعه . وقد قام لتحريض العرب والبربر على مناوأته واخراج الدولة من يده . وقد بذل الناصر الاموال وبث الجواسيس في البحث عنه فلم يظفر به . . ولا شك عندها ان الناصر حالما يسمع به يأمر بقتله ولو عرف انه اخوها . وقد يغضب عليها من اجله — لكنها مع ذلك ما زالت تظن سعيداً يكذب تخويفاً لها . فلما ذكر اسم اخيها هذا اظهرت الاستخفاف وقالت « لا يمكن ان يكون هذا الرجل اخي انك تخدعني ترويجاً لغرضك . دع عنك هذا وارجع . . وانا اعدك اذا رجعت عن غيك وافدتني عن حقيقة حال اخي (وتنهدت) اني اعفو عنك وأكتم امرك »

قال « يا سيدتي . . او يا حبيبتي . . اني لا اكذب . . ان صاحب النقمة هو اخوك سالم نفسه واذا شئت اتيتك بالدليل المحسوس »

قالت « وما دليلك ؟ »

قال « دليلي قريب . . ألا تعرفين خط اخيك ؟ »

قالت « اعرفه »

فمدّ يده الى جيبه واستخرج رقاً ملفوفاً في منديل . تناوله وفتحه وقال « اقرئي »

فقرأت سطراً مكتوباً بالدم هذا نصه :

أنا سالم صاحب النقمة أعاهد نصراء الحق اني ابذل حياتي في سبيل قتل عبد الرحمن الذي يسمي نفسه الناصر

كتبه سالم
صاحب النقمة

فاخذت تقرأه وتعيد قراءته وتتفرس في الخط فاذا هو خط أخيها نفسه فرفعت بصرها الى سعيد فحدق هو نظره فيها عنوة فاحست بمجرى

كهربائي تسرب في عروقها فاضعف عزيمتها فتولاها الخوف على نفسها وعلى أخيها فوقفت مبهوتة لا تبدي حراكاً ولف سعيد الرق في أثناء ذلك ووضعه في جيبه وهو يقول « ما رأيك الآن يا حسناء ؟ »

فشعرت بخوار قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت على البساط واطرقت وظلت ساكتة

فقال « هل رأيت اني ناصحك واني أتيت لانقاذك وانقاذ أخيك ؟ ألا ترين اني قادر أن اقتله بكلمة واحدة ؟ . ارجعي عن جفائك وقساوة قلبك وارحمي قلباً كاد يذوب شوقاً اليك . ان سليمان الذي رأيته على ظهر تلك السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويهواك — وما أنا ربان السفينة يا حسناء ولا أنا خادم فيها وستعلمين متى اخلصت الحب لي اني أهل لمحبتك قد ركبت الاخطار وتعرضت للموت من أجلك . وقد فعلت فعل المحب المتفاني في سبيل حبيبه . لو علمت ما الذي فعلته من أجلك لم ترفضي طلبي وسوف تعلمين . . ولا يغرنك ما ترينه من القصور والزخارف انها لا تلبث أن تذهب ولا يبقى غير الحب . . ها اني أعرض عليك هذه النعمة عليك فلا ترفضيها »

الفصل السابع والخمسون

الرجوع الى الصواب

فوقعت في حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب وترجح لديها ان أخاها في قبضة سعيد ولا نجاة الا بمسايرته . ولكنها ما زالت تكرهه وتود قتله ولا سبيل لها الى ذلك . فعمدت الى الملاطفة فقالت « والآن ما العمل . . هل أخي قريب من هذه الديار ؟ »

قال « بل هو في هذه الديار في مخبأ لا يعرفه أحد سواي »

قالت « وما السبيل اليه وكيف العمل ؟ »

قال « سأخبرك عن السبيل في فرصة أخرى انما أرجو منك الآن أن

تثقي بي . . ولا أظنك تفعلين . فان لم تفعلي فدمك ودم أخيك على رأسك . . اني نصحتك وفعلت كل ما تطلبين مني فما رأيك ؟ »

فاطرقت واعملت فكرتها في ما وقعت فيه فلم تجد لها سبيلا غير الملاطفة ريثما تحتال في النجاة فعادت الى رشدها وتعقلها ورباطة جأشها لكنها أحست بتغيير طرأ على احساسها بعد تلك النظرة التي اخترقت احشاءها وهزت أعصابها وقضت على ارادتها وخيل لها من تلك اللحظة انها طوع ارادته ولم تعد تملك رأيها فقالت « نصبر كما قلت . . وأخشى أن تكون خدعتني »

قال « دعي عنك الشكوك »

فسكتت وهي تعمل فكرتها ثم قالت « وكيف التقي باخي هل تستدعيه الى هنا »

قال « كيف يقدر على دخول هذا القصر . . الافضل أن تذهبي أنت اليه ومتى اجتمعت به تقنعينه بالرجوع عن الثورة ونحتال في استرضاء الخليفة عليه وأظننا ننجح ثم نقيم هنا معاً وأنت في منزلتك ولا يعلم أحد بما جرى . . والآن لا ينبغي أن نفترق قبل أن نحسن التفاهم . . فهل أنت واثقة بما أقول ؟ »

فطأطأت رأسها « ان نعم »

فقال « سنتفق على وقت نخرج فيه خلسة الى مقر أخيك . . . لا أقدر أن أتصور فرحك به ساعة اللقاء . . وسيخبرك هو كيف انه مدين لي بحياته ولولاي لم يبق حيًّا »

فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها فابتسمت وقالت « أنت كنت السبب في حفظ حياته ؟ شكراً لك »

قال « لا فضل لي في شيء من ذلك لاني فعلت ما يدفعني اليه شعوري فان حبك يا حسناء قد استولى على كل جارحة من جوارحي . ألا افعل ما يرضيك وهل يكون لي فضل اذا فعلته ؟ والآن دعيني أعلمك لحناً تغنينه للناصر اذا سألك عما تعلمته »

قالت « حسناً » ونادت جوهر فاتى وعاد الى خدمتها فطلبها سعيد لحناً ثم ودعها على موعد المجيء في الغد لتعليمها ومضى وقد مالت الشمس الى المغيب وسار تواً الى غرفته . وكان الخليفة قد نزل الى قرطبة في ذلك النهار لاحوال سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين وكان يفضل ان يقابلهم في قصر قرطبة

أما سعيد فمكث في غرفته فجيء اليه بالعشاء فتناوله ولم يخرج من تلك الغرفة لانه أحب الخلوة ليعمل فكرته في تتميم الحيلة للفرار بالزهراء من تلك القصور

الفصل الثامن والخمسون

الواقع

ذهب سعيد الى فراشه وقد أنهكه التعب لشدة ما أثرته تلك الحادثة في نفسه وهو ينتظر هذه المقابلة منذ أعوام عديدة وقد سعى فيها وبذل كل مرتخص وغال في سبيل الوصول اليها — وهو يعلم الخطر المحدق به ولكنه جن بحب الزهراء ولم يعد يحسب للحياة حساباً . ورغم ما رأيت من تعقله ودهائه فان حبه الزهراء غلب على عقله وأخذ بمجامع قلبه — وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين . فقد تجد الرجل العاقل يقيس الامور ويستخرج أسبابها ونتائجها وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب . فاذا تولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ما يتنزه عنه الجهلاء وهو يرى انه عاجز عن تجنبه . واذا تأمل في ما يأتيه من الخفة والطيش في سبيل الحب خجل من نفسه ولا يرى له مندوحة للخلاص من تلك الشراك

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها في صقلية وكان قد جاء تلك الجزيرة بمهمة سياسية من قبل المهدي صاحب افريقية فغلبت على عقله وأراد أن يستأثر بها لنفسه وركب السفينة معها على أن يحتال في اجتذاب قلبها ثم يرى السبيل للفرار بها . أما هي فحالما وقع نظرها عليه

أحست بنفور منه وصار كلما تقرب منها ابتعدت عنه . وهي تزداد نفوراً حتى فضلت أن يأخذها اللصوص على أن تبقى بقرب ذلك الرجل

أما هو فأخذ أخاها معه ورباه على الغرض الذي أجمع عليه العبيديون في افريقية وهو كره آل مروان في الاندلس والسعي في الاستيلاء على مملكتهم . وكان سعيد من كبراء هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدي العبيدي ومن جاء بعده على عرش الخلافة الفاطمية في القيروان . وقد عهدوا اليه بأغراضهم وكانوا قد بثوا هذه الروح في كثيرين من كبراء القواد في الاندلس نفسها . ومنهم الجمعية التي كانت تجتمع في قرطبة سرًّا كما رأيت

جاء سعيد الى قرطبة بمهمة سياسية من عدة أعوام . وكان قد علم بالبحث والتدقيق ان حسناء التي عرفها في صقلية صارت الى الناصر في قرطبة وسماها الزهراء — عرف ذلك بدهائه واهتمامه وكتمه عن أخيها وجعل همه الوصول اليها . وأقام حولها الجواسيس وكاتبها بأساليب مختلفة يستعطفها وهي تستخف به وتزدله وهو يزداد شغفاً بها حتى أصبح يسعى في الوصول اليها ولو نكاية فيها واسترداداً لكرامته ودفعاً لاهانته . وكان يعلم تعلقها بأخيها فأتاها بهذه الحيلة

قضى سعيد بضع ساعات في غرفته على الظلام وهو غارق في بحار الهواجس وقد فرّ النوم منه وتولاه الارق لعظم ما جاش في خاطره في ذلك اليوم

الفصل التاسع والخمسون

موعد آخر

وهو جالس على فراشه في العتمة وبصره متجه الى نور يظهر له من نافذة تطل على داخل القصر وقع نظره على شبح يتمشى هناك بخفة كأنه يحاذر ان يسمع احد وقع خطاه فتفرسه فاذا هو ساهر وعليه لباس الوصف

كما رآه المرة الماضية . فنهض واقتفى اثره فرآه يلتمس غرفة الزهراء . فما زال في اثره حتى رآه دخل الغرفة وقد وقفت الزهراء لاستقباله وهي لا تزال بثوبها الاعتيادي كأنها كانت على موعد منه . فثارت الغيرة في قلب سعيد وجعل يغالب نفسه فلم يستطع صبراً على ما شاهده فمشى حتى دخل الغرفة ولم يشعر به احد منهما . فرأى ساهراً جاثياً امام الزهراء وهو يقول لها بصوت الحب المفتون « مريني يا سيدتي فانا رهين امرك وليس أشهى على قلبي من ان انفذ ارادتك ويكفيني شرفاً وسعادة أن تقع أوامرك في اذني »

فأجابته هي « انهض يا ساهر . . بارك الله فيك . . . اني مسرورة من مروءتك وصدق مودتك . . قل لسيدك اني لولا حبي له لم أطلب مقابلته ولا بأس عليه من أهل هذا القصر . . فليأت على عجل . . » ولما وصلت الى هنا لمحت سعيداً داخلا فبغتت وبانت البغتة في عينيها ولحظ ساهر تغيرها فالتفت فلما رأى سعيداً تنحى ثم انصرف

أما سعيد فظل ماشياً وهو يتجلد ويماسك حتى صار بين يدي الزهراء وهي تنظر اليه والغضب ظاهر في عينيها فقالت له « ما الذي جاء بك يا سيدي ؟ »

قال وهو يتلطف في التعبير « جئت لأتمتع برؤيتك قبل الذهاب الى الفراش . . وقد تمتعت بما يذهب عني النوم » وتنحنح

فقالت بلحن الاستخفاف « ما كان اغناك عن هذا المجيء . . كأنك متلصص عليّ وتراقب حركاتي ومن يدخل أو يخرج من عندي؟ . ان أمير المؤمنين لم يفعل ذلك »

فقطع سعيد كلامها وقال « لان أمير المؤمنين لا يحبك مثل حبي . . » قال ذلك وتنهد

فقالت وهي تبالغ بالاستخفاف « صدقت أن الناصر لا يحبني أبداً . . ولكن أنت وحدك تحبني . . ما كان اغناني عن هذه المحبة بل ما أحوجني الى بغضك . . » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فلما رأى جفاءها تقدم نحوها وهو يتكلف الاسترضاء وقال « سامحك الله يا حسناء كلما شكوت اليك غرامي وذلي زدت نفوراً وجفاء ؟ »

فلما دعاها باسمها الاصلي تذكرت أخاها فخافت عليه فعادت الى التجلد والملاطفة فقالت « لقد أسأت الي بمجيئك على هذه الصورة حتى أغضبتني وحملتني على ما قلته . ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا . . . »

قال « انما حملني على المجيء حبي لك وغيرتي عليك . . »

فمدت يدها نحوه كأنها تستوقفه وقالت « لا فائدة من الغيرة وأنا في هذا القصر . وعما قليل اكون لك . . لا تسألني عن شيء »

فلما سمع قولها استخفه الفرح وصاح « تكونين لي ؟ قبلت بذلك وعفا الله عما مضى »

قال ذلك وهو ينظر في عينيها وقد نسي الغيرة والشك وتناول يدها كأنه يهم بتقبيلها فاجتذبتها منه ونظرت اليه نظر العتاب والتوبيخ وقالت «امض الآن ولا تجعل للناس سبيلا الى الظنون »

فتحول وخرج وهو يحسب انه نال أتم أسباب السعادة بما سمعه من وعودها . فدخل غرفته واستلقى على فراشه فعادت اليه هواجسه فاخذ يفكر في حاله فاستغرب انقياده الاعمى لداعي قلبه ونسيانه المهمة الاصلية التي قام من أجلها وقد قامت معه أفريقية كلها وعوّل خليفتها عليه ووضع ثقته فيه حتى لو كتب اليه أن يجرد جيشاً لفعل فكيف يشتغل عنه بحب جارية لا تحبه ؟ فاحس بصغر نفسه وضعف ارادته كأنه عبد لعواطفه فاخذ يوبخ نفسه على ذلك الضعف ويهم أن يرجع الى رشده ويعدل عن الغرام الى طلب العلى بحد الحسام فاما تتمثل له الزهراء ويتصوّر انها طوع ارادته تنحل عزائمه ويذهب حماسه

الفصل العشرون

طارق آخر

وهو في تلك الهواجس وقد أخذه الارق ولم يبق في ذلك المكان ساهر سواه واستولت السكينة على القصر ولم يعد يسمع فيه الا خرير الماء في برك الحديقة وفي البركة الداخلية في بيت المنام وسعيد يحمل نفسه على الرقاد ويحاول نسيان تلك الافكار عبثاً — وهو في ذلك الهدوء والظلام سائد سمع حركة في غرفته فجلس فرأى شبحاً داخلا عليه عرف حالا انه عابدة . وما زالت تمشي الهوينا حتى رأته جلس على فراشه فاسرعت اليه وجثت بين يديه وقالت « بالله يا سعيد . الى متى تضحك مني ؟ »

فاظهر الاستغراب وقال « أضحك منك ! ما هذا الكلام ؟ »

قالت وصوتها مختنق « نعم تضحك مني وتهزأ بحبي . . »

قال « دعي عنك الاوهام . »

قالت « يكفيني ما قاسيته من الصبر على وعودك . . قل لي اني لا أحبك ودعني أمضي لسبيلي . . . »

قال « كيف أقول لك ذلك وأنت تعلمين اني أحبك ولكننا لم نفرغ من مهمتنا بعد . . وأنت على بينة من كل شيء »

قالت « نعم أنا على بينة من كل شيء . . . ولذلك لم أعد أستطيع صبراً »

فادرك انها تشير الى اطلاعها على شيء يكتمه عنها فقال « ماذا تعنين ؟ »

قالت « اعني انك شغلت عني ونسيت عابدة المسكينة ؟ » وأجهشت بالبكاء

فأثر بكاؤها في قلبه واحس انه أساء اليها ولكنه ما لبث ان تصوّر الزهراء حتى نسي اساءته وجعل همه اتمام معدات الوصول اليها فقال « دعي عنك هذه الاوهام . من يشغلني عنك ؟ واذا رأيت مني تقرباً الى احد سواك فما ذلك الا سعياً في الوصول الى الغرض المطلوب الذي تعلمينه »

فتنهدت تنهداً عميقاً ورددت قوله « الغرض المطلوب ! ! آه من ذلك

الغرض . . ما كان أغنانا عنه . . ولا أظننا نصل اليه مع ما يحدق بنا من العوائق »

فاظهر انه استاء مما القته من الشك في سبيل ذلك الغرض وقال « لا تضعفي أملي بنيل المطلوب . . » وخفت صوته وقال « سيأتي يوم تكون فيه ملوك هذه الجزيرة وتكونين أنت ملكة عظيمة الشأن »

قالت « دعني من ذلك دعني . . . ان السعادة ليست في السيادة ولا في الثروة . . . ان السعادة في الحب . . . » قالت ذلك وصوتها يتلجلج خجلا وبلمت ريقها ثم قالت « لو كنت اعلم انك تحبني مثل حبي لك لكنت اسعد امرأة على وجه الارض . . آه من يقول لي الحق ؟ »

فقطع كلامها وقال « انا اقول لك . . صدقيني . . وسوف تتحققين صدق قولي »

فوقع كلامه على قلبها برداً وسلاماً واحست انها في نعيم وقالت صحيح ؟ صحيح أنت تحبني ؟ »

فمد يده الى يدها وقبض على أناملها فاحست عابدة بمجرى كهربائي انتفضت له أعصابها وغلبت على أمرها وقالت « صحيح انك تحبني . . فانا سعيدة . . . »

قال « بقي ان اسألك انا هل تحبينني ؟ »

ولم يتم سؤاله حتى تناثر الدمع من عينيها وقالت والبكاء يخنقها « أتسألني اذا كنت احبك ؟ أمثلي يسأل هذا السؤال . . لم يبق في جارحة لم تفتتن بك . ألا يكفيك من الادلة ما أنا فيه ؟ ما الذي حملني على ارتكاب هذه الاخطار ؟ »

فقال « لم ترتكبي خطراً بعد . . ان وجودك في هذا القصر من أسباب السعادة يتمناه كل انسان . . ولكننا سنصل الى الخطر قريباً وعند ذلك يظهر الحب الصادق ولا شك عندي انك ستبرهنين على صدق محبتك لي وللامام العبيدي صاحب افريقية الذي نحن في خدمة مصلحته »

قالت « آه يا سعيد كل شيء سهل في سبيل حبك . . دعني أغتنم هذه الظلمة واصرح لك بما يكنه فؤادي من الشغف بك . لو كنا في النهار أو

كانت هذه الغرفة مضيئة فخجلت ولكن التمة تستر . . اني أحبك الى حد الجنون ولا أراك تحبني وتهتم لامري مع اني أتفانى في سبيل مرضاتك . . أفعل ذلك من كل قلبي ويلذ لي العذاب اذا كان فيه سرورك . . . فهل عندك مثل الذي عندي ؟ أو مثل نصفه أو ربعه يا ترى ؟ »

فضغط على يدها ثانية وقال « كفى يا عابدة شكوكا . . وقد دنا الوقت ولا نريد ان تتفرغ للا نريده . لم يبق من المهمة التي جئنا من أجلها الا خطوة واحدة ـ وهي عليك »

قالت « مرحبا تشاء »

قال « ألا يزال ذلك الحق معك ؟ »

فضربت كفها على صدرها وقالت « هو هنا في أصون مكان »

فقال « الي به »

فدفعته اليه فاستخرج من جيبه ورقة قطعها نصفين وحسب ما في ذلك الحق فيهما وهو مسحوق ابيض لامع ولف كل واحدة على حدة ودفعهما اليها وقال « احتفظي بهاتين الورقتين جيداً لوقت الحاجة »

قالت « وما فيهما . . هل من بأس علي اذا تناولت منهما شيئاً ؟ . . »

فابتدرها قائلا « احذري ان تفعلي . . » وضحك يوهمها انه يمزح

فضحكت وقالت « لم اكن اجهل ذلك . . . ولكنني أرجو ان لا أحتاج الى تناولهما . . . »

فتجاهل مرادها وقال « احتفظي بهما حتى آتيك غداً او بعد غد »

فاحست انها ينبغي أن تتصرف وقفت وودعته وهي تتفرس في وجهه والظلام يحجب لوائح المكر والغدر عنه ولو لم يحجبها فان عابدة لم تكن ترى في سعيد غير الكمال لانه استهواها بغضليسيته

الفصل الحادي والستون

الهواجس

خرجت عابدة من عند سعيد وعادت اليه بلابله بأشد مما كانت عليه فتصور كيف انه يخادع هذه الفتاة المخلصة ويغريها على المخاطرة بنفسها بمواعيد كاذبة ويراها شديدة الثقة به وهو ينوي خيانتها — فرجع الى تعقله فرأى انه يفعل أفعالا لا يرتكب مثلها المجانين انه سيرتكب جريمة القتل تحت أشد الاخطار . وعاد الى التفكير في مهمته السياسية الاصلية وكيف انه كاد يفوز بها لو لم يله عنها بحب الزهراء . . ولما تذكرها خفق قلبه واعمل فكرته في أمرها وقال « قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة من قلب سعيد . فاذا اداجي عابدة وأعدها فهل الزهراء تداجيني ؟ . . ولكن سعيداً غير عابدة . . ان من يرتكب ما ارتكبته ويصل ما عملته لا يشق عليه أن ينتقم من تلك الجارية . . اني أريها العذاب ألواناً . . لا . لا . لا أفعل ذلك مع الزهراء انها حبيبتي لماذا أنا مستسلم لها — اتركها وشأنها والنساء كثيرات وهذه عابدة المسكينة تتمنى رضاي . ان حبي الزهراء سبب بلائي وسيكون سبباً في ضياع أمة برمتها . . ألم يضع الامام العبيدي ثقته فيّ وأهل افريقية ينتظرون نتيجة سعيي ؟ » . ولما فكر في ذلك هبّ من فراشه كالمجنون ووضع كفيه على عينيه كأنه يستحث قريحته لاعمال الفكرة في حقيقة حاله . . ووقف لحظة ثم عاد فتصعد على الفراش وقد تمثلت له الزهراء في أشهى ما يتمناها فيه فقال « ان نظرة في حسناء تساوي العالم برمته وما لذة الانسان من المناصب والمراتب اذا لم يكن له حبيب يحبه — الزهراء تساوي كل شيء ولا بد من المخاطرة في نيل الاماني — وما فاز باللذات غير الجسور . أما عابدة فاني اشغلها بسواي وارضيها . . »

قضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الهواجس ولم ينم الا قليلا وأفاق في الصباح على نقر الباب ففتح عينيه فرأى ياسراً داخلا فجلس له وحياه ورحب به . فقال ياسر « انظنني اقلقتك من رقادك »

قال « كلا بل أنا في شوق الى رؤيتك »

قال « وأنا أيضاً . . وقد استبطأتك وكنت احسبك تبعث اليّ باكراً لتقص عليّ ما جرى بالامس »

فعلم انه يعني ما جرى بينه وبين الزهراء لان ياسراً يكرهها ويريد أن يوقعها في شر يحقرها في عيني الناصر انتقاماً منها لما يتوهمه من عقوقها ونكرانها الجميل وهو يعتقد انه كان السبب في ادخالها بلاط الناصر فلم تعرف له هذا الجميل . وظهر له من حديثه مع سعيد مرة انه يوافقه على ذلك وكان يظنه يستطيع بالتنجيم معرفة سبب اجتماعها بعبد الله ويفشيه للناصر فيغضب عليها وربما طردها — وادرك سعيد كل ما كان يجول في خاطر ياسر فقال « ان أمر هذه الجارية حيرني ولم استطع كشف سرها تماماً مع اني قضيت ليلي البارح ولم أنم الا قليلا أفكر في أمرها . ولما رأيتك داخلا ظننتك أتيت لتدعوني الى أمير المؤمنين لانه أكثر الناس تطلعاً الى ذلك »

قال « انه لم يعد من قرطبة »

قال « هل بات هناك ؟ ولماذا ؟ »

قال « لانه ذهب لمقابلة بعض وفود ملوك فرنسا وايطاليا وهو يفضل أن يستقبلهم في قصر قرطبة . فلما ابطأ في الرجوع بات هناك وقد أوصاني قبل ذهابه ان افتح عيني اراقب كل حركة »

فضحك سعيد وقال « يظهر انك لم تكن ساهراً »

ففهم مراده فقال « كنت ساهراً وقد رأيت ساهراً يدخل القصر بلباس بعض الوصفاء فسهلت له الدخول على أمل أن تتورط هي فتقع وقعة لا قيام لها منها »

فاطرق سعيد وفكر في نتيجة وقوع الزهراء في الذنب فرأى ان الناصر يغضب عليها فيتوسط هو في الاصلاح فيكون له فضل عليها يساعده على قبولها به ويحب من الجهة الاخرى اذا كان بينها وبين عبد الله تواد أن يكون قصاصها على يد الناصر . فقال سعيد « ومتى يعود الخليفة من قرطبة ؟ »

قال « لا أدري ولعله يعود في هذا المساء وقد يبيت هناك الليلة أيضاً ويأتي غداً وعلى كل حال اني انتظر رجوعه بفارغ الصبر »

فقال « ما تظن الناصر يفعل اذا تحقق ما بين الزهراء وابنه من العلائق ! »

قال « اظنه يطردها ان لم يقتلها »

فسكت واظهر انه يهتم بالنهوض فنهض ياسر وخرج وهو يقول « وفق الله سعينا »

فلما خلا سعيد بنفسه أعمل فكرته فرأى ان سعي ياسر ضد الزهراء يفيده في كل حال طالما كان حائزاً على ثقة الخليفة يديره كيف شاء فمكث يترقب الفرص

أما ياسر فجعل همه في ذلك اليوم مراقبة الابواب لعله يرى عبد الله داخلا ليشي به الى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء . ولكنه كان يخاف أن يأتي عبد الله ويعود قبل رجوع أبيه من قرطبة فبعث بعض الخصيان يسأل في قرطبة عن رجوع الخليفة متى يكون فعلم انه عائد بعد الغروب فاعطى الاوامر ليكون القصر في تأهب لاستقبال صاحبه وعاد الى مراقبة الابواب

الفصل الثاني والستون

حديث ذو شجون

غربت الشمس ولم يأت أحد وبعد الغروب رأى ياسر ساهراً ومعه رجل بلباس الخصيان دخلا من باب القصر ولم يعترضهما أحد من الحراس كأنهم كانوا على موعد . فعلم ياسر بان أحدهما عبد الله وتنحى ريثما مرّا وراقب جهة مسيرهما فرآهما ظلا سائرين نحو قصر المؤنس الى الحديقة التي اجتمعا بها في المرة الماضية . فسار من جهة أخرى بحيث يتحقق ان الزهراء نزلت لمقابلة عبد الله فلما تحقق ذلك أصبح همه أن يأتي الناصر قبل تفرقهم

ليرى الاجتماع بنفسه فيكون ذلك أدعى الى تشبثه وسرعة انتظامه

فرجع الى الباب الخارجي الذي يدخل منه الناصر اذا عاد من قرطبة وأخذ يتشوف عن بعد وقد دنا المساء واظلمت الدنيا لكن قصور الزهراء كانت تنار ليلا بالمصابيح من كل أطرافها . ورآهم يغيرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالا للخليفة ولم تمض هنيهة حتى رأى الخصيان والفرسان وعليهم الجواشن مسرعين يليهم سائر الموكب وفي وسطه الخليفة والى جانبه تمام رئيس الخصيان زميل ياسر . ولم يكن بينهما تحاب شأن المتنافسين في المناصب في كل زمان ولكن الناصر كان يقدم تماماً في اكثر الاحيان ويقلل من نفوذ ياسر . وهذا يعتقد ان الزهراء هي التي جعلت الناصر يتغير عليه ولذلك زاد رغبة في الانتقام منها . ورأى هذه الفرصة أثمن الفرص ليظهر اخلاصه للناصر وتفانيه في خدمته ليغيّر ما في نفسه من تفضيل تمام عليه

فلما رأى الناصر في موكبه وتمام الى جانبه لم يعد يصبر عن التصدي لمخاطبته قبل الوصول الى القصر مخافة أن يذهب الى قصر آخر غير المؤنس ثم يتعذر عليه استقدامه في تلك الساعة

فلما وقع نظر الناصر على ياسر توسم في وجهه خبراً فانفرد عن الموكب نحوه فمشى ياسر في ركابه حتى دنا من قصر المؤنس وترجل الخليفة وأشار الى الناس بالانصراف وظل مع ياسر فقال له « ما وراءك يا ياسر ؟ »

قال « ما ورائي غير الخير وكنت أود أن لا يعلم مولاي الا بما يسره لو لم أعلم انه راغب في معرفة سر ذلك الاجتماع »

فانتبه الناصر حالاً الى انه يعني اجتماع الزهراء بعبد الله فقال « هل جاء ولدنا عبد الله الى هنا ؟ »

قال « نعم يا سيدي ولو أنه جاء كما يجيء سائر اخوته وأهله لم يكن بأس من مجيئه ولكنه يأتي متنكراً . . . »

قال « وكيف يأذن الحراس بدخوله ؟ »

قال « يأذنون له بأمر الزهراء فانها توصيهم بذلك على يد أحد خدمتها »

فغضب الناصر وقال « والآن أين هو ؟ »

قال « هو في الحديقة المعهودة وهي معه »

فأطرق الناصر حيناً ثم ضرب الارض برجله وقال كأن عبد الله ينتقم مني لاني حبست عابدة عنه ؟ . الى هذا الحد بلغت جسارته أن يتعدى على جاريتي الزهراء نفسها ؟ »

فسر ياسر من غضب الناصر وأحب أن يمكنه من الغضب عليها وحدها فقال « لا أظنه يطلب انتقاماً ولكنها خدعته والنساء لا يخفى على أمير المؤمنين حالهن »

فمد الخليفة يده الى جيبه واستخرج ورقة وقال « هذا كتابه جاءني في الامس الى قرطبة ولم يصبر عليّ حتى أعود الى هذا القصر فيخاطبني »

فقال ياسر « هل يطلب عابدة ؟ »

قال « بل هو يهددني اذا أنا لم أعدها اليه ولم أفهم معنى تهديده . . فقد فهمت الآن انه يريد ان ينتقم مني بأخذ الزهراء . . . ولكن كيف تقبل هي موافقته ؟ »

فقال ياسر « ان النساء . . . »

فقطع الناصر كلامه وقال « أحب أن أراهما وأسمع حديثهما ولي بعد ذلك رأي فيهما » قال ذلك والغضب بادٍ في أسرته

ففرح ياسر لهذا التهديد وأسرع بين يدي الخليفة وبعث الاوامر الى خدمة القصر ان يخلوا هذا الجناح منه لان أمير المؤمنين سيمر فيه . ولم تمض بضع دقائق حتى لم يبق هناك أحد . فمشى ياسر بين يدي الناصر حتى وصلا الى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة فوجداها مقفلة فقال ياسر « انها أقفلتها حتى لا يطل أحد منها عليهما » . واخرج من جيبه مفتاحاً فتحها به بخفة بحيث لا ينتبه أحد لفتحها ودخل وأعدّ للناصر مقعداً بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة

فرأى الناصر الزهراء جالسة هناك على مقعد من حجر وقد كشفت عن وجهها كأنها مع بعض أهلها وعبد الله جالس أمامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبان على نور المصباح جلياً ولم يبق عند الخليفة شك في أنه ابنه وانها الزهراء جاريته فاضطرب وثارت غيرته لكنه صمت كأنه أصيب بالجمود . أما ياسر فكاد قلبه يطير من الفرح لنجاح مهمته

وكان أول شيء سمعاه قول عبد الله « أنت تعلمين يا زهراء منزلتك عندي قبل الآن »

فاجابته « نعم أعلم . . ولذلك فاني بعثت اليك لاخاطبك بهذا الشأن ولولا حبي لك لم أفعل »

قال « ان رضاك عزيز عندي ولكن طفح الكيل ولم أعد أستطيع صبراً . . . »

فقالت « مهما يكن من طفاح ذلك الكيل لا أرى ما يوجب هذه النقمة . . . »

فقطع عبد الله كلامها قائلا « كيف لا انقم وقد عاملوني معاملة العبد المملوك . لم يكفهم انهم سلبوني ولاية العهد حتى أصبحوا يسلبونني أسباب راحتي ـ هذه جارية أتتني واستلطفتها وطلبها أخي مني فاعتذرت له فشكاني الى أبي فبعث يطلبها ليراها فارسلتها فحبسها عنده لنفسه »

قالت » أهذا يوجب كل هذه النقمة حتى تنصر الغرباء على أبيك ؟ أليس هو ولي نعمتنا ؟ أليس هو أمير المؤمنين وأرواحنا حلال في قبضة يده ؟ — يجب ان تعلم اني أحبك لاني حالما علمت بتغيير قلبك على أبيك بعثت اليك أنصح لك . ولولا حبي وغيرتي على سيدي الناصر وليّ نعمتي لم يكن أسهل عليّ من أن أرفع أمرك اليه وهو لا يعجز عن القصاص . . . »

قال « انه لم يتصرف معي كما يتصرف مع سائر اولاده وقد قال لي ابن عبد البر الفقيه وهو أعلم فقهائنا ان من كان مثل أخي الحكم لا يليق للخلافة لاشتغاله عن امور الدين بالدنيا »

فقالت « كأنك تطمع ان تكون ولاية العهد لك ؟ »

قال « وما المانع ؟ ألم يحدث ذلك في الاسلام ؟ . . ان الخليفة غير مقيد بمبايعة أكبر اولاده بل هو يجب ان يلاحظ اخلاقهم وقدرتهم »

فقطعت كلامه قائلة « ليس في ولي العهد ما يمنع مبايعته . . ثم لم اكن انتظر منك ان تخالف اباك في شيء وألا تكون قد ايقظت الفتنة . . فانا قد تحملت تهمة الريبة من سيدي الناصر لاني خاطبتك المرة الماضية على انفراد وقد هددني فلم افه بشيء خوفاً عليك . . فاصغ الى قولي وارجع الى رشدك فما انت أولى من اخيك بولاية العهد ولو كنت اهلاً فان طاعة مولانا الناصر واجبة وهو الذي اختار اخاك اما اذا كنت تنوي الخروج عليه فذلك امر آخر . . وانت أعجز من ان تستطيعه . . »

وكان الناصر وهو جالس يسمع ذلك الحديث ترتعد فرائصه وقد اخذته الدهشة من عظم الاستغراب وكان يسترق اللحظ مرة بعد اخرى الى ياسر فيرى الفشل بادياً على محياه وكأنه اسقط في يده ومع ذلك فان اشتغال ذهنيهما بتتمة الحديث لهاهما عن كل شيء

اما عبد الله فلما سمع استخفاف الزهراء به هز رأسه وقال « اتظنين اني وحدي ناقم على والدي ؟ ـ اني آخر الناقين لانه اساء الى كل الاحزاب استبد بالسلطة واستبدل رجال الدولة من العرب والبربر بالخصيان من الصقالبة فلذلك نقم الناس عليه . . ولو قلت كلمة لالتف حولي الوف من أهل الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النقمة »

فلم تتمالك الزهراء عند سماع ذلك الاسم عن الوقوف ثم شغلت نفسها عنه وقالت « لله انت من امير مغرور . اعلم اني نصحتك واعيد النصح ثانية فاذا لم تقبل فاني موعزة بامرك الى ابيك لاني أخشى بهذه الدولة ان تذهب فريسة الغرور وقد بناها ابوك على هام الرجال فأحيا بها دولة المسلمين وعزز الاسلام . . فلا تهدمها بطيشك . . واشير عليك قبل أن تقدم على هذا العمل ان تستشير العقلاء »

فقاطعها قائلا « قد استشرت الفقيه ابن عبد البر وهو اعلم الفقهاء وان كان والدي قد رذله وفضل عليه سواه »

قالت « احسب هذا الفقيه هو الذي اغراك على ابيك انتقاماً لنفسه من الفشل الذي اصابه يوم ذاك الاحتفال اذ امتنع عليه الكلام »

فضحك وهو ينهض وقال « انا أعقل من ان انقاد لسواي . . وسترين »

قالت « لا بل ارجو ان ترجع الى رشدك وتعدني انك تائب في هذه الساعة والا فانك غير خارج من هذا المكان قط »

قال « تهددينني ؟ »

قالت « لا تستخف بي او تطمع باسترضائك فاني افني حياتي في نصرة مولاي ومولاك . . »

فهزَّ عبد الله رأسه استخفافاً ومشى فصاحت الزهراء « ساهر »

فجاء ساهر باسرع من لمح البصر فاشارت اليه ان يقبض على الامير عبد الله فهجم عليه وقد أعد وثاقاً شد به يديه وعبد الله ينظر اليه مستغرباً وهو يقول اخسأ يا غلام . . . ألا تعلم من انا ؟ »

فلم يجب ولكن الزهراء اجابت « انا أعرف من انت ولا يغرنك انه كان خادماً لك فقد كان عيناً لي عندك خوفاً من مثل هذا الطيش أن ينال شعرة من مولاي الناصر »

فلم يتمالك الناصر ان صاح من على الشرفة « لله درك يا زهراء »

فعرفت الزهراء صوت الخليفة وكانت قد توثقت من القبض على عبد الله فانسلت واختفت اما عبد الله فانه اسقط في يده وجمد الدم في عروقه ولم يعد ينفعه الندم فساقه ساهر الى سجن خاص واقفل عليه

الفصل الثالث والستون

المشورة

اما الناصر فنهض ومشى وياس بين يديه وقد تولته الدهشة وبان الفشل واليأس في وجهه ولم ينبس بكلمة . وظل الناصر ماشياً حتى دخل غرفته وقد أعدوا له المائدة فذهب اليها فأكل وهو لا يتكلم لعظم ما قام في نفسه

من الامر الخطير وقد جاءه الخبر بغتة فلم يدر كيف يتصرف . وكان على موعد من لقاء سعيد بعد ان أرسله الى الزهراء بالامس يستطلع سر اجتماعها بعبد الله فخطر له ان يستقدمه ليمتحن معرفته ويستشيره في الامر لانه أصبح شديد الثقة به

اما سعيد فكان في غرفته في ذلك المساء ينتظر رجوع الناصر فعلم من حركة أهل القصر انه جاء فلبث ينتظر وصوله وبعد ساعة اتاه ياسر وقد امتقع لونه من الدهشة والفشل وقص عليه ما كان وهو يأسف لان مهمته ضد الزهراء لم تنجح وكان يحسب سعيداً يشاركه في الاسف او يشير عليه في شيء فتظاهر سعيد بمشاركته في ذلك ولكنه وقع الرعب في قلبه مخافة ان يبيح الامير عبد الله بخبره فيذهب سعيه ادراج الرياح ويصبح في خطر القتل فاشار على ياسر ان يذهب ويكتم ما دار بينهما فمضى وبقي سعيد وحده وأخذ يعمل فكرته وقد غلب عليه القلق والخوف ولا بد من المبادرة او الفرار

وهو في ذلك جاءه غلام الناصر يدعوه اليه حالا فخفق قلبه خوفاً لئلا يكون الناصر اطلع على شيء من سره ولكنه تجلد ووضع كتاب التنجيم في جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل على الناصر فرآه في فراشه وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وهو يظهر السكون والتكتم فوقف سعيد بين يديه متأدباً ينتظر أمره كالعادة فاشار اليه ان يجلس فجلس على البساط جثوًّا وأطرق فقال له الناصر « اظنك استبطأتني »

قال « نعم وقد كنت انتظر رجوع مولاي بفارغ الصبر »

قال « ولماذا ؟ »

قال « لاتبرك برؤيته ولانقل اليه نتيجة المهمة التي عهد بها اليّ »

قال « أظنك تعني خبر الزهراء وما دار بينها وبين ولدنا عبد الله »

قال « نعم يا مولاي »

قال « ما الذي دلك عليه عاسك ؟ »

قال وهو يبتسم « لم أجد الا كل ما يحسن بالجارية الامينة المحبة »

قال « هذا لا يكفي ان كنت تعرف التنجيم قل ما هو الحديث الذي دار بينهما ؟ »

فأطرق سعيد وأخذ يقلب الكتاب بين يديه وينظر الى الناصر خلسة والناصر متكئ على جنبه الايسر وخده على كفه اليسرى وهو يراقب حركات سعيد فلما رآه يتردد قال له « ما بالك ؟ قل الذي رأيته »

فاظهر سعيد انه يخشى التصريح فقال الناصر « قل كل ما سمعته . لا بأس عليك »

قال « سمعت شيئاً لا اجسر على التفوه به واكاد اكذب تنجيمي ولا اصدقه لغرابته »

فضحك الناصر وهو يعتدل في مجلسه وقال « لا تكذب تنجيمك بل كذب ظنك بالناس خيراً . ألم تقل لي مرة ان الاذى يأتيني من أقرب الناس اليّ ؟ »

قال « يظهر ان مولاي الخليفة قد اطلع على السر من سواي »

قال « نعم . قل اذاً صريحاً ولا تبال »

قال سعيد وهو يظهر الاهتمام « أما وقد اطلع مولاي على ذلك الامر الفظيع فلا اكتمه ما ظهر لي من الاسرار المتعلقة به . . »

قال « قل ارشدني اني مضطرب البال من العتب وليس من الخوف »

قال « يحق لمولاي ان يعتب على ابنه اذا أراد الغدر به »

فلما رآه كشف السر بالتنجيم حسب اعتقاده عظم سعيد في عينيه وعزم على استشارته والعمل برأيه فقال « قل الذي دلك عليه علمك ولا تحاذر »

قال « دلني علمي على ان الزهراء حفظها الله اجتمعت بالامير عبد الله لترده عن فظيعة كان يحاول ارتكابها ضد امير المؤمنين »

قال « صدقت وما العمل الآن ؟ . قل اني عامل برأيك »

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح وعول على قطع السبل المؤدية اليه فاعاد النظر الى كتاب التنجيم ورمى البخور في النار ثم اطرق يفكر ويقلب صفحات الكتاب والناصر ينتظر فراغه من التعزيم والتبخير ورأى عينيه

تحمران وتدمعان وقد تبدلت سحنته . وأخيراً وضع الكتاب من يده وأشار بيديه جميعاً اشارة القبض وقال « اقبض عليه حالاً . . اقبض عليه وعلى رفيقه في منزله انه شريكه في جرمه . . واقبض على رجل ثالث كان معك الليلة . . فاذا قبضت على هؤلاء بادر الى الاعدام . . الى الاعدام ان بقاء واحد منهما يفضي الى الفتنة . والحازم من اجتث شجرة الشر من جذرها . . هذا هو رأيي قلته بصراحة وقد نفضت يدي من خطر المستقبل ان لم يعمل امير المؤمنين برأيي »

وكان الناصر يسمع كلام سعيد ويتفهمه جيداً وهو ينوي ان يعمل بكل حرف منه بعد ان تحقق تنجيمه وسداد رأيه مراراً

اما سعيد فلما فرغ من كلامه اظهر انه تعب واخذ يرتعش كانه اصيب بالبرداء فقال له الناصر « ما بالك يا حكيم ؟ »

قال « اني اخاف أن يتأخر مولاي وتأخذه الشفقة فيذهب بالدولة الى الخراب ـ يقبض الآن على فقيه الامير عبد الله الذي يئس من منصب القضاء فنقم على الخليفة ولا دخل للبر في شيء منه سوى اسمه . . ويقبض أيضاً على رفيق امير المؤمنين الليلة فانه شريك في الامر واذا سأل امير المؤمنين نفسه يعلم ان هذا الاخير من اكبر الاعداء مع أنه من اقرب المقربين . ويفعل ذلك سريعاً وسراً فان لم يفعل فاني اول الماتين »

فحمل الناصر منه هذا التعبير محمل الغيرة الشديدة على الدولة وخاف ما خوفه منه وخصوصاً لان كلام سعيد عن كل من الثلاثة وافق ما في نفسه فامر بعض غلمانه ان يقبض على ياسر حيثما كان ويزجه في السجن وبعث آخرين الى قصر مروان للقبض على ابن عبد البر وحمله الى قصر الزهراء حالا

الفصل الرابع والستون

الانتقام السريع

وظل سعيد جالساً ينتظر أمر الناصر بالانصراف فلم يأمره فأظهر انه يبكي فقال له الناصر « ما بالك يا حكيم »

ففرك عينيه وقال « لا شيء يا سيدي »

قال « لا بل أنت تبكي لامر ما »

قال « أبكي على الامير عبد الله فاني كنت أحبه وقد خسرته ولكن أمير المؤمنين خير منه . . ألا يرجو سيدي رجوعه ؟ »

قال « وكيف ترى أنت ؟ »

قال « لا أرى دواء لهذا الامر غير السيف واذا خفت الحية فاقطع رأسها والا فأنت في خطر منها . اني أرى رأي عبد الملك بن مروان مع سعيد بن الاشدق وقد سار اليه وصار من أعوانه بعد أن خرج عليه وحاربه أما عبد الملك فلم ير خيراً من قطع الرأس فدعا ابن الاشدق اليه وقتله فأمن الفتنة بعده — تلك سياسة بني أمية في الشام من معاوية فما بعده وكذلك فعل جدك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء — اذا خفت جماعة فاقطع رأسهم والذي يظهر من تنجيمي ان الامير عبد الله يوشك ان يجعل نفسه رئيس عصابة ولكن . . »

قال الناصر « يظهر انك تخاف أن يغلب عليّ الحنو فاستبقي عبد الله . . . كلا . . . ثم كلا اني قد سمعت تهديده باذني وأما ابن عبد البر الضعيف الساقط فلا بد من قتله لانه من جملة المحرضين وأما ياسر فقد تعبت من دسائسه وشكاويه وكأن الزهراء قتلت أباه فلا ينفك يشكو منها أو يعرض بها وقد تبين اليوم تحامله عليها . . اني قاتل أولئك الثلاثة قبل أن يطلع النهار »

قال « يعجبني سداد رأي أمير المؤمنين . تلك كانت سياسة الدهاة

من أسلافك اذا خافوا رجلا قتلوه سرًّا فيأمنون غوغاء الاحزاب »

قال « إذهب الى فراشك ونم مطمئناً وغداً تجد لوحاً على باب القصر وقد كتب عليه ما فعلناه »

فنهض سعيد تأدباً وهو يقول « نصر الله مولانا على أعدائه وأيده بروح من عنده ولا شك عندي ان مبادرته الى القصاص على هذه الصورة توقع الرعب في قلوب اولئك الاغرار الذين يتعرضون لبطشه واذا أمر مولانا أن يكتب على اللوح عبارة تهديد يشار بها الى سائر العصاة كان فيها رهبة لهم فيأمر أمير المؤمنين ان يكتب على ذلك اللوح : وهـذا جزاء الخائنين وسيناله من حذا حذوهم وخصوصاً صاحب النقمة »

قال « أصبت بورك فيك » وتزحزح إشارة للانصراف فخرج سعيد وهو ينظر الى السماء ويداه مرفوعتان يدعو للخليفة بالنصر وذهب الى فراشه وهو يخاف أن يعدل الخليفة عن قتل أولئك الثلاثة قبل أن يبوح أحد منهم بأمره

وأصبح أهل القصر في الصباح التالي فرأوا على بابه الكبير لوحاً قد كتب عليه ما معناه :

« قد أنفذ حكم الشريعة الغراء بالقتل على الامير عبد الله بن أمير المؤمنين ومحمد بن عبد البر الفقيه وياسر الفتى رئيس خصيان القصر قصاصاً على خياناتهم وخروجهم على أمير المؤمنين حامي حمى المسلمين ومؤيد الدين وعلى ولي عهده . قتلوا خوف الفتنة وهـذا جزاء الخائنين . ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب . فليعتبر بهم كل من سولت له نفسه الامارة بالسوء ان ينبذ الطاعة ويخرج عن الجماعة وأولهم ذلك الخائن صاحب النقمة »

لم يطمئن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق نجاته من الفضيحة

الفصل الخامس والستون

الندم

أما الناصر فبعد خروج سعيد من عنده أمر بقتل الثلاثة [١] حالا بدون ان يراهم وبعد قليل جاءه الجلاد انه فعل فأمر بكتابة اللوح وتذكر الزهراء وصدق مودتها وكان الليل قد مضى معظمه فلم يصبر عن رؤيتها فبعث اليها يستقدمها اليه ليشكرها ويبشرها انه قتل الخائنين وكانت قد نامت فنهضت وأصلحت من شأنها وأتت اليه وهي تستغرب تلك الدعوة المستعجلة

دخلت عليه فرأته جالساً على السرير وبين يديه لوح يقرأه ويهز رأسه فلما دخلت وضع اللوح الى جانبه ورحب بها قائلا « مرحباً بالحبيبة الصادقة »

فاكبت هي على يده تقبلها فقبلها وامرها ان تجلس الى جانبه فجلست مطرقة فقال لها « قد أسأنا الظن بك وانت بريئة من اسباب الريبة »

فقالت « اني جارية أمير المؤمنين وهو ولي نعمتي افديه بروحي ولا فضل لي »

قال « بل لك الفضل فانك أصدق مودة الي من ابني . . ذلك الخائن . قد سمعت ما دار بينكما باذني . . . لله درك من صديقة أمينة وتباً له من خائن مارق . . . »

قالت « كيف عرف سيدي بوجود أبنه هنا وعهدي انك في قرطبة »

قال « دلني عليه ياسر الخائن حال وصولي وقد اراد الايقاع بك فاخذني الى تلك الشرفة وارانيكما تتحدثان فلما رأى براءتك من التهمة التي وجهها اليك خجل ولكنه نال جزاءه »

قالت « أما عبد الله فاني سأعود الى مخاطبته وانا على ثقة من ندمه

---

(١) نفح الطيب ٩٧٧ ج ٧ وابن خلدون ١٤٣ ج ٤

ورجوعه لان في فطرته شيئاً من طيب عنصر والده وانما اغتر بأقوال المفسدين كالفقيه ابن عبد البر وأمثاله أما هو فانه طيب القلب وحسن الاسلام كما لا يخفى على أمير المؤمنين »

وكان الناصر طروباً بحديثها لانه كان يطرب لكل حركة من حركاتها فلما أثنت على عبد الله وقالت انها كانت ترجو إصلاحه أحس بتسرعه في قتله وشعر بالندم لكنه تذكر الخطر الذي كان يهدده لو لم يفعل فبادر الزهراء قائلا « أنا لا أرجو صلاحاً ممن يخون أباه وأخاه وعلى كل حال فقد قضي الامر » ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لتقرأه فما أتت على بعضه حتى صاحت « ويلاه قتلت عبد الله . . » ولطمت وجهها ونظرت الى عيني الناصر وتفرست فيهما كأنها تستفهمها فرات الشرر يكاد يتطاير منهما فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت الى اسم صاحب النقمة فاقشعر بدنها لانها تذكرت أخاها وانه سيقتل مثل تلك القتلة فغلب عليها البكاء للسببين معاً فظنها الناصر تبكي على عبد الله فقال « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت « ابكي على شباب عبد الله »

قال بلحن الغضب « أتبكين على الخائن وأنت أعلم الناس بخيانته ؟ »

قالت « أو ليس هو بضعة من أمير المؤمنين ؟ فكيف لا أبكيه وقد كنت أحسبني أرجعه عن خطائه »

قال « أنت أمرت بالقبض عليه بعد أن يئست من إصلاحه »

قالت « قبضت عليه إرهاباً ولم يكن عندي ريب من ندمه في الغد . . . ولكن ويلاه . . . هل قتل عبد الله فعلاً ؟ »

قال « نعم قتل وكذلك سيقتل أمثاله الخائنون . . فبعد أن يعلموا اني قتلت ابني لهذه الخيانة فلا يلومون إلا أنفسهم اذا وقعوا في يدي فاني قاتلهم جميعاً والقتل أنفى للقتل »

فتذكرت أخاها وما يكون من أمره اذا وقع في قبضة الناصر فأحبت أن تستطلع رأي الخليفة في العفو عن أمثاله فقالت « واذا رجعوا تائبين ؟ »

قال « أقتل ابني وأعفو عن سواه ؟ لا يقع في يدي واحد من الخائنين الا قتلته أياً كان »

فوقع قوله في نفسها وقعاً شديداً لانها تعرف شدة الناصر وبطشه وزادت خوفاً من ذكر اسم أخيها ورأت تأجيل طلب العفو الى فرصة أخرى . وهي لا تعلم مع ذلك اذا كان أخوها يرضى بطلب العفو فرأت ان تقنعه اولا بالرجوع ثم تتوسط له بالعفو عنه

وبعد قليل أمر الخليفة بانصرافها وبعث اللوح لتعليقه بالباب ويوسد يطلب الرقاد فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء فتصور له ابنه عبد الله عند آخر نظرة فغلب عليه الحنو وأخذ الندم يتسرب الى اعتقاده شيئاً فشيئاً وهو يغالبه وينتحل الاسباب التي تسوغ السرعة في القصاص تخلصاً من الفتنة لكنه مع ذلك غلب عليه الارق وتولاه القلق فلم يغمض له جفن وهو يتقلب كأنه نائم على الشوك

ولما طلع النهار أحس بضعف وانقباض فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج فأتاه مسرعاً فشكا اليه حاله وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بالباب فعلم سبب ذلك الانحراف فوصف له بعض المنعشات أو المبردات في اصطلاحهم وقال « لا يخفى على أمير المؤمنين سبب هذا الانحراف والعلة تزال بضدها . فيستحسن أن يلهو سيدي بما يشغله عن التفكير »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « تأمر جارية مغنية تغنيك ألحاناً مفرحة . . فان من الالحان ما يبعث على الحزن ومنها ما يبعث على الفرح . وعرفت فيلسوفاً من أبناء مهنتنا اخترع ألحاناً تضحك وأخرى تبكي وألحاناً تفرح أو تغضب لغير سبب موجب الضحك أو البكاء أو الفرح أو الغضب وانما يجري ذلك من وضع الالحان على النفس . . وأظن ذلك الفيلسوف قد مات الآن ولا أعلم اذا كان علم أحداً هذه الالحان »

فتذكر الناصر ان عابدة تحسنها فقال « ان جاريتنا عابدة تعلمت هذه الالحان من معلمها سعيد الوراق . . »

فقال ابن تاج « ان سعيداً هذا من عجائب الدنيا لا يوجد شيء من العلوم لا يعرفه حتى الموسيقى ! فاذا شاء مولاي أمر جاريته عابدة بمجالسه فتسقيه هذه المرطبات وتغنيه على انفراد فاني أرجو شفاءه عاجلا »

الفصل السادس والستون

عابدة

فاستحسن الناصر هـذا الرأي وأشار اليه أن يمضي لتحضير العلاج وارساله وبعث بعض الغلمان الى سعيد فأتى فقص عليه ما أشار به الطبيب فأظهر موافقته على ذلك العلاج واستأذن في الذهاب لاستقدامها وقلبه يكاد يطير من الفرح لسنوح هذه الفرصة ليتم بها غرضه

وكانت عابدة في غرفتها وعندها بعض الجواري يتحدثن بما هو منشور على ذلك اللوح وهن يستغربن وقوعه بهذه السرعة فلما رأت سعيداً قادماً أسرعت اليه وقد زادت ضربات قلبها وعلت الحمرة وجنتيها وأبرقت أسرتها. فمشى هو أمامها الى غرفته فلما دخلت سلمت عليه فهش لها واستدناها فأجلسها الى جانبه ولاطفها ووضع ذراعه على كتفيها كأنه يضمها تحبباً فأحست بقشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل . فزاد تورد وجنتيها ولمعت عيناها وأطرقت خجلا وقلبها يخفق فرحاً وهياماً فقال لها « قد آن الوقت ودنت الساعة وانما تتوقف سعادتنا عليك »

فقالت « تتوقف السعادة عليّ ؟ عليّ أنا ؟ اني رهينة ما تريد في سبيل هذه السعادة » قالت ذلك بلهفة الحب المتفاني

قال « نعم عليك ؟ . . . أين الورقتان اللتان أودعتهما عندك . . . هل أنت محتفظة بهما ؟ »

فنظرت اليه نظر العاتب وهي تبتسم وقالت « كيف لا أحتفظ بوديعتك بل كيف أقدر ان أخالف لك أمراً » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت الورقتين في صرة ودفعتهما اليه

فتناول الصرة وقال « أتعلمين ما هو داخل هذه الصرة »

قالت « ورقتان »

قال « وما فيهما »

قالت « احسب فيهما سما . . فهل هذا صحيح ؟ »

قال « الصحيح لا أقوله لك الآن » وحدق في عينيها فحولت بصرها عنه وأحست كأن سهماً اخترق احشاءها أو مجرى كهربائياً تسرب في عروقها فأطرقت وهي تنتفض

فأتم سعيد كلامه قائلا « ان في هذه الاوراق مخدراً ينام صاحبه نوماً طويلا »

فقالت « نعم »

قال « فهمتِ ؟ ان في هذه الاوراق منوماً لا يقظة انا بدونه »

فرفعت بصرها الى فيه ولم تجسر ان تنظر في عينيه وقالت « لم أفهم مرادك يا سيدي »

قال « ألا تذكرين اني سألتك يوماً ونحن في الارباض اذا كنت تتحملين خطر القتل من أجل الحب »

قالت « نعم وأذكر اني قبلت ان أتحمل كل خطر . وأنا الآن أعترف بذلك وأفتخر به »

قال « اعلمي ان الخليفة يشكو من أرق وانقباض فوصف له الطبيب مَن يسامره أو ينادمه بالغناء بألحان مطربة وذكر له الالحان التي استنبطها الفارابي للضحك والطرب والخليفة يعرف انك تحسنين هذه الالحان فطلب اليّ ان أدعوكِ اليه وأفهمكِ ما يلزم فها اني قلت لكِ » وسكت

فظلت ساكتة تنتظر تتمة الحديث فرأته شغل عنها بحك عثنونه فقالت « ما علاقة هذا بالخطر ؟ »

فنهض وقال « لا علاقة بينهما صدقتِ . . دعي هذه الاوراق معي وقومي لمنادمة الخليفة فاني أخاف أن يستولي عليكِ الضعف »

قالت « لا تخف من شيء فان أمرك يبث فيّ قوة وشجاعة »

وهو يعلم ان أمره نافذ عندها ولو بغير إرادتها وقد اختبر ذلك مراراً فاذا أمرها وشدد أمره ونظر في عينيها وهي تنظر في عينيه استهواها فتعمل ما تؤمر به حرفياً وهو ما يعبر عنه علماء اليوم بالتنويم المغناطيسي . ولم يكن تعليله معروفاً في ذلك العصر أو ربما عبروا عنه بالسحر — فلما قالت له ذلك أمسك يدها بين يديه وحدق في عينيها وأمرها أن تنظر في عينيه ففعلت فدفع اليها الورقتين وقال لها « اني آمرك ان تسقي ما في هذه الورقة للخليفة الناصر في هذا اليوم »

فارتعشت وغلبت على امرها وقالت « سأفعل ذلك ياسيدي »

قال « اسمعي يا عابدة ضعي هذه الورقة في جيبك واذهبي الآن الى الخليفة وهو في غرفته على فراشه ومعك القانون والعود وغنيه واطربيه واسقيه من الشراب الذي وصفه الطبيب . . فهمت ؟ »

قالت « نعم » وهي تحدق في عينيه ويدها ترتعش بين يديه

قال « فاذا سمعت آذان نصف الليل اعمدي الى هذه الورقة صبي ما فيها في كاس الشراب وقدميه للخليفة . وبعد أن يتناوله ببضع دقائق يغلب عليه النوم ويبقى نائماً الى الابد »

قالت « نعم . . ماذا أفعل بعد ذلك »

قال وهو يخرج الورقة الاخرى . وبعد ذلك تأتين الى هذه الغرفة فاذا لم تجديني فيها فانك تجدين قدحاً فيه ماء صبي فيه هذه الورقة واشربيه فتنامين ريثما آتيك وقد أعددت كل ما يلزم للفرار الى محلنا حيث نكون قد قمنا بما علينا وقد دبرت كل شيء

فتناولت الورقتين وخبأتهما في جيبها ولم يبد عليها اضطراب أو خوف لكنها قالت « هذا آخر سعينا في سبيل السعادة ؟ »

قال « نعم . امضي وانتبهي لآذان نصف الليل »

فنهضت وتناولت العود وسارت الى غرفة الخليفة وأخذت تغنيه وتسقيه كما أوصاها الطبيب

الفصل السابع والستون

الفرار

أما سعيد فمكث بعد ذهاب عابدة مدة صامتاً يفكر بخطارة الامر الذي بشها به وكيف أنها طاوعته بلا تردد فلم يبق عليه إلا أن يفر بالزهراء وأراد أن يقتل الناصر مخافة أن يبعث في طلبه بعد فراره بأحب جواريه اليه . وأن يقتل عابدة ليبقى أمره مكتوماً

فذهب الى الزهراء في غرفتها فقابله جوهر بالباب فسأله عنها فقال « انها ما فتئت منذ علمت بمقتل الامير عبد الله ورفيقيه وهي منقبضة النفس لا تكلم أحداً . فعلم سعيد أنها مضطربة الخاطر على أخيها لما قرأت اسمه على لوح الاعلان باعدام هؤلاء فقال « استأذن لي بمشاهدتها » فأجاب مطيعاً وقد علمت أنه من رجال سعيد وقد أدخله بلاط الناصر جاسوساً فهو يستهلك في خدمته ويحتفظ بسره

عاد جوهر وأشار الى سعيد أن يدخل فدخل وهو يمشي الهوينا كانه يفكر في شيء شغل خاطره فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد أسندت خدها بكفها واستغرقت في التفكير فلما شعرت بدخوله رفعت رأسها اليه فتفرست فيه لحظة ثم عادت الى الاطراق

فتقدم نحوها وقال « هل رأيت صدقي ؟ »

فلم تجبه

فقال « يا حسناء قولي . هل علمت اني قلت لك الصدق عن أخيك ومحضتك النصح في كيفية انقاذه ؟ »

فرفعت بصرها اليه وقد تلألأ الدمع في عينيها وبدت ملامح العتب والاسف في محياها وقالت « آه ليتك لم تقل شيئاً ولو بقيت جاهلة أمر أخي لكان خيراً لي من أن أرتكب في سبيل انقاذه خيانة سيدي وولي نعمتي »

قال « أراك تزدادين حباً به »

قالت « كيف لا ولم أر منه شراً بل لم أسمع منه كلمة تسوءني . وقد رفع منزلتي وقدمني على سائر نسائه وبنى هذه القصور حباً بي . . كيف لا احبه ؟ بل كيف لا أعبده ؟ . هذه هي المحبة الخالصة و . . . » وسكتت كأنها همت أن تقول شيئاً وأمسكت نفسها حياءً

ولم يفته أنها كانت تشير الى محبته غير الخالصة فقال « تعيرينني بمحبة الناصر يا حسناء ؟ لماذا لا يحبك وأنت تتفانين في خدمته ؟ وأما القصور فقد بناها لنفسه وحاشيته . وأما الحب الصادق فهو الذي يرى نفورك ويأبى السعادة بعيداً عنك يرفض الملك ويحترف التنجيم والتعليم للوصول اليك يعرض حياته للخطر من أجل حبك . . هذه هي المحبة الخالصة وهذا هو الحب الصادق . دعينا من هذا الآن وقولي هل انت عازمة على انقاذ أخيك أم لا ؟ وقد رأيت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه »

فأجفلت وقالت بلحن الانكسار والذل « نعم عرفت »

قال « اذا كانت نجاته لا تهمك فذلك أمر آخر »

قالت « أنت تعلم أن نجاته تهمني كثيراً ولكن الطريق وعر »

قال « ولا بد دون الشهد من ابر النحل . ومع ذلك فاني لا أرى مشقة عليك في الخروج من هذا القصر ليلة واحدة وتعودين في الصباح وأخوك معك وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدمينه كما تشائين . . اذا كنت عازمة على الخروج مني قولي وإلا فأنا ذاهب » قال ذلك وأظهر أنه يريد الخروج فابتدرته قائلة « وتهددني أيضاً ؟ أهكذا تكون الاريحية ؟ ألأني في حاجة الى خدمتك تنتهرني ؟ » واغرورقت عيناها بالدموع

فجثا بين يديها وتظاهر بالتأثر من قولها وقال « حاشا لله ان أهددك فاني انما ألتمس رضاك وأبذل حياتي في سبيل حبك . . أنت صاحبة الامر قولي قولي وأنا فاعل ما تريدين حتى الموت وأنا مستعد لاستقباله باسمك — آه لو كان لك قلب مثل قلبي فتدركين مقدار حبي لك ولكنك قاسية

القلب . . وطالما وصفتك بهذا الوصف »

فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت « سأسأل الله في هذه النهاية اني أكاد أكون مجبولة بالحب . . واذا أحببت فالى حد التلف — وذلك من حديثي بالامس مع قتيل هذا النهار احسن مثال »

فقطع حديثها قائلاً « يظهر انك لم تبغضي أحداً سواي ؟ »

قالت « اعترف لك يا سيدي اني لم أحبك ولكن اذا صدقت الخدمة في إنقاذ أخي فاني أحبك ولو من قبيل الامتنان »

فنظر اليها شزراً وقال « أقول اني ميت في حبك وقد ركبت كل مركب خشن في سبيلك وأنت تشترطين في حبي الف شرط ؟ . آه قد احوجتني أن أبوح لك بذنب ارتكبته في هذا النهار من أجل حبك »

قالت « وما هو »

قال « أنت تعلمين حبي للامير عبد الله وقد كنت عنده معززاً مكرماً ولكنني أعلم أنه عارف بمقر أخيك فخفت اذا استنطقه الخليفة أن يدله عليه فيقتله . فأشرت على الناصر أن يبادر الى قتل عبد الله وقتل رفيقه بدون استنطاق وقد فعل . . . ألا تعدين ذلك فضلاً لي ؟ »

فانطلت حيلته عليها وصدقته وقالت « صدقت »

قال « وتقولين أنك ربما تحبينني اذا أنقذت أخاك ؟ »

قالت « أتريد أن أخدعك ؟ هذا ما أشعر به وسترى »

قال « لا أفعل شيئاً لا يرضيك وسترين . . . وأنا راض بتأجيل الحب حتى تظهر خدمتي . فقولي الآن هل تذهبين ؟ »

قالت « الى أين ؟ ومتى ؟ »

قال « تذهبين معي الليلة الى أرباض قرطبة حيث تلاقين أخاك كما قلت لك »

فرفعت نظرها اليه وقالت « كيف أذهب ؟ »

فحدق في عينيها تحديقاً شديداً وقال « تذهبين متنكرة على بغلة بثياب صاحب البريد ومعك جوهر الخادم وأنا ألاقيك خارج هذا القصر ونذهب

معاً وستين أني صديق صادق قولي نعم . . قولي لا تكوني خائفة فما فاز باللذات غير الجسور »

فأحست بضعف الارادة فنهضت وهي تتنهد وكأنها تتأهب للخروج وقالت « متى أخرج ؟ »

قال « اخرجي بعد الغروب وفي ركابك جوهر »

قالت « وبعدئذ ؟ »

قال « وبعد ذلك أخرج أنا من باب آخر ونلتقي معاً خارج هذه القصور في الطريق المؤدي الى قرطبة ثم نترافق الى أخيك »

قالت « هل أنت واثق اني أجده هناك ؟ »

قال « نعم »

قالت « هذا آخر اجتماع لنا هنا ؟ »

قال « لا حاجة الى الاجتماع بعده فقد تم الاتفاق بيننا اخرجي أنت مع جوهر . ألا تثقين بأمانته ؟ »

قالت « نعم »

قال « فأخبريه بعزمك على الخروج الليلة لمشاهدة أمر يهمك ولا تخبين أن يعلم أهل القصر بخروجك واشيري عليه انك تتنكري بثوب صاحب البريد فان صاحب البريد لا يسأل عن خروجه ودخوله وخصوصاً اذا كان معه احد غلمان الزهراء وقولي له أن يهيء لك الثياب والبغلة »

فوقفت هنيهة وهي مطرقة تعمل فكرتها كأنها تتردد تخاف ان تعدل عن عزمها فقال « اذا كنت تخافين الخروج فما انت أهل للحصول على أخيك »

فلما ذكر أخاها عادت اليها جسارتها وقالت « نعم أذهب . وسنلتقي بعد العشاء في الموقف الثاني في الطريق بين الزهراء وقرطبة »

فقال « بارك الله فيك وأنا ذاهب لنلتقي هناك » وخرج

الفصل الثامن والستون

الارباض

وكان حراس باب القصر في ذلك المساء جلوساً يتحدثون بما علموه من مقتل الامير عبد الله وابن عبد البر وياسر ويستغربون وقوعه وقد أتتهم الاوامر المشددة بالانتباه الى من يدخل القصر أو يخرج منه . وهم في ذلك سمعوا قعقعة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تلثم . والى جانبه جوهر على بغلة فهمّ الحراس أن يعترضوا فقال لهم جوهر « هذا بريد مولاتنا الزهراء » ففتحوا لهما فخرجا

فلما صارت الزهراء خارج القصر منفردة غلبت عليها الوحشة والتفتت الى ما حولها فاذا هي وحدها في صحراء رملية وكلما بعدت أحست بالظلام لان أنوار تلك القصور كانت تؤانسها حتى اذا وصلت الموقف المعهود وقفت وأدار جوهر بغلته نحوها وسألها عما تحتاج اليه

فقالت « الى اين نحن ذاهبون ؟ . . ما هـذا ؟ . كيف خرجت من قصري وانا فيه كالملكة المتسلطة حتى على الملك نفسه . . . »

فقطع جوهر كلامها قائلا « لا تزالين يا سيدتي صاحبة السيادة وفي الغد تعودين الى قصرك ومعك اخوك وتخلصينا من انقباضاتك وعبساتك . . »

وكان جوهر خفيف الروح وهي تستأنس بكلامه فاعجبها تعبيره فقالت « هل ألاقي اخي ؟ يا حبذا ذلك »

قال « لا بد من لقائه . . والا فلماذا خرجت ؟ »

وهمت بالجواب وعيناها شاخصتان في منتهى الطريق تنتظر مجيء سعيد وبغلتها تتحرك تحتها فشغلها شبح ظهر عن بعد من ناحية القصر فاسرع جوهر ببغلته للاقائه . ثم عاد مسرعاً وبشر الزهراء انه سعيد فلم تدر أتفرح أم تحزن لانها كانت لا تحبه ولكنها لا ترى بداً منه أملاً بلقاء أخيها فظلت صامتة حتى وصل سعيد اليها فحياها وقال « هل انت مرتاحة ؟ . . »

فأجابت برأسها « أن نعم »

فأومأ لها أن تسوق بغلتها بجانبه وساروا . وكانت قد تعوّدت الركوب لان الناصر كثيراً ما كان يصطحبها في خروجه للصيد أو التنزه وركوب البغال سهل

ساروا برهة لا يتكلمون حتى أطلوا على الجسر المؤدي من قرطبة الى أرباضها فوق الوادي الكبير فسموا دوي الطواحين . وكانت الزهراء لم تسمعها من عهد بعيد لانها لم تمر على ذلك الجسر من عدة أعوام — قطعوا الجسر وقد مضى هزيع من الليل فأشرفوا على الارباض وهم سكوت . وكانت الزهراء كلما بعدت عن القصر خطوة اقتربت من الندم خطوتين فلما دخلت الارباض ورأت ما هنالك من المنازل الحقيرة أحست بانقباض نفسها واستوقفت بغلتها وقالت « الى أين نحن ذاهبون ؟ »

فبادر سعيد اليها وقال « الى سالم »

قال « أرى سفرنا طال كثيراً »

قال « لم يبق الا القليل »

وظلوا سائرين فرأت انهم تجاوزوا الارباض فتصوّرت ان سعيداً يخدعها . فأوقفت بغلتها وقالت « أرانا خرجنا من حدود قرطبة »

قال « نحن على مقربة من المكان لا تخافي » وبعد قليل اطلوا على الوادي الكبير ثانية حتى صاروا عند الشاطىء . وعرفوا ذلك من لمعان سطح الماء عن بعد وانعكاس صورة السماء عنه

ثم وصلوا الى بيت منفرد فنزل سعيد ونزل جوهر واعان الزهراء في النزول فنزلت وأخذت قواها تضعف من الخوف وكادت تعتقد انها وقعت في الفخ ولكنها تجلدت واطاعت سعيداً والتفتت الى ما حولها فاذا هي في بساتين قليلة العمارة . وقد ساد السكون في ذلك الليل فلا يسمع فيه غير خرير ماء الوادي . ثم ما لبثت ان رأت كلباً كبيراً خرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويقفز عليه — وهو سلام المعرفة عند الكلاب .

فعلمت الزهراء من ذلك انهم وجدوا المكان المقصود وجارت تتوقع ان ترى أخاها او احداً يأخذها اليه

الفصل التاسع والستون

الخوف

وبعد أن ترجلوا تناول جوهر ارسان البغال وأخذ في شدها الى بعض جذوع الشجر هناك . وأشار سعيد الى الزهراء بان تمشي معه فمشت وهي تحاذر ان يمسها ذلك الكلب بسوء وقلبها يخفق حذراً من الخديعة . أما سعيد فكان يلاطفها حتى دنت من البيت فتناول من جيبه مفتاحاً فتح به الباب ودخل والظلام حالك فتراجعت وقالت « لا أدخل على الظلام »

فأنار مصباحاً هناك ودعاها فدخلت الى بيت مفروش فرشاً بسيطاً فأشار اليها أن تجلس فقالت « أين أخي ؟ »

قال « ليس هو هنا وانما أردت ان تستريحي هنيهة »

فاجفلت وقالت « استريح ؟ كنت افضل ان نظل سائرين حتى نصل اليه فقد مضى معظم الليل وسيدركنا النهار وينبغي ان نكون في القصر في صباح الغد »

فضحك وقال « لا بأس سنكون هناك كما تقولين » قال ذلك وخرج فالتفتت حولها فلم تزدد الا وحشة وأخذت تفكر فيما أتته من الطيش في تسرعها ولكنها لم تشعر انها كانت مخيرة في ذلك . وأرادت أن تصيح وتستغيث فخافت العاقبة فرجعت الى رشدها وأخذت تتجلد وتعمل فكرتها . فخدعتها نفسها أن تستغيث بجوهر لعله ينقذها فنهضت ومشت الى الباب فرأت سعيداً واقفاً الى جانبه يكلمه ثم أشار اليه فاسرع نحو الشاطىء وعاد سعيد نحو البيت والكلب يقفز حوله

فرجعت الزهراء الى مقعدها واحست انها وحيدة هناك وقد اصبحت في قبضة سعيد يعمل بها ما يشاء فأخذ قلبها بالخفقان وجاش الحزن في

صدرها وأحست بالحاجة الى البكاء ولم تستطع أن تحبس دمعها فبكت . ثم دخل سعيد فلما رآها تبكي ضحك وقال « ما بالك تبكين ؟ »

قالت « أخاف أن تكون قد خدعتني »

قال « كيف اخدعك أو أريد بك سوءًا وانا انما أريد سعادتك وقد تركت الدنيا كلها من أجل لقائك »

قالت « أين نحن الآن ؟ أين أخي ؟ بالله أرني اياه ثم لا أبالي بعد ذلك ما يصيبني »

قال « تمهلي انك سترينه وتكونين في أوج السعادة »

وهما في ذلك سمعا صفيراً فاجفلت الزهراء وجعلت تتلفت وهي مذعورة فقال لها سعيد « لا تخافي »

فقالت « وما ذاك ؟ »

قال « هذا ربان السفينة يخبرنا بوصولها »

قالت « وأي سفينة ؟ »

قال « سفينة لنا في هذا النهر سننتقل بها الى المكان الذي فيه أخوك وليس هو بعيداً »

فصفقت وصاحت « ويلاه . . الى أين تذهب بي يا سليمان ؟ ألم تعاهدني على الذهاب الى أخي ؟ »

قال « نحن ذاهبون اليه في الماء وذلك أهون من السفر بالبر »

فقالت « بالله دعني . . ارجعني الى القصر قد استغنيت عن رؤية أخي أو غيره . . ويلاه ما هذا ! . أين أنا ؟ » قالت ذلك واطلقت لنفسها عنان البكاء

فتقدم سعيد اليها وامسكها بيدها وقال « لا تظني سوءًا يا حسناء نحن ذاهبون الى أخيك . . تعالي اخرجي انظري الى السفينة فانها ستحملنا الى منزل تجدين فيه أخاك فتتحققين صدق قولي »

فاجتذبت يدها من يده وتراجعت ثم اعملت فكرتها فرأت نفسها منفردة هناك وندمت ندماً شديداً على مجيئها ولكنها لم تقطع الامل من

لقيا أخيها فتجلدت وأطاعت سعيداً في الخروج الى السفينة فرأت الشراع منصوباً فدعاها للنزول ولم تجد في السفينة أحداً من النوتية وما لبثت ان رأت السفينة تخترق عباب الماء وليس فيها أحد غير هي وسعيد وجوهر

الفصل السبعون

الفشل

فلنتركهم يخوضون الماء ونرجع الى عابدة عند الناصر وهي تسقيه المرطبات وتغنيه وتنادمه . قضت بقية ذلك النهار عنده وهو يتلاهى بالحديث والشراب . فلما اقترب العشاء كان الشراب والغناء والخلوة نبهت فيه ذكرى ابنه عبد الله فتصور ما كان من تسرعه في قتله وكيف ان الزهراء قالت له انه كان في امكانها اقناعه واستبقاؤه حياً ولامته على تسرعه فاحس بشوق لرؤيتها ومحادثتها فبعث في طلبها فلم يجدها في غرفتها فالح في البحث عنها فلم يقف لها أحد على خبر . فغضب وغلبت عليه الحدة فامر برفع المائدة واخرج عابدة وطلب الانفراد ليناجي نفسه في ما فعله هل اخطأ بقتل ابنه أم كان يقدر أن يستبقيه . فقضى بقية تلك الليلة في أمثال هذه الهواجس لا يجسر أحد على مخاطبته

أما عابدة فكان اخراجها من حضرة الخليفة صدمة قوية للغرض الذي كانت تهيء نفسها له وسارت تواً الى غرفة سعيد فلم تجده هناك ولاحظت من حال الغرفة انه خرج منها خروج المسافر ومكثت على ذلك وهي تصبر نفسها لعله يأتي فمضى هزيع من الليل ولم يأت فخرجت تلتمسه عند الزهراء فوجدت مربيتها وكانت قد تعرفت اليها فسألتها هل رأت سعيداً فقالت « لا هو ولا الزهراء »

فاجفلت عابدة للحال ودلها قلبها على مكيدة فقالت « وكيف اتفق خروجهما معاً ؟ »

فهزت كتفيها كانها تتنصل من تبعة ما خطر ببالها فادركت عابدة ان تلك

الوصيفة تشك في ذلك الامر ثم شاع في القصر كله خبر ضياع الزهراء ولم تبق وصيفة ولا وصيف ولا خادم ولا خادمة الا عرف به وبعث عمام رئيس الخصيان للبحث عنها في سائر القصور فلم يقف لها على خبر

أما عابدة فانها عادت الى غرفة سعيد لتعيد النظر وتتفرس في الاشياء فلم تزدد الا اعتقاداً بفراره فانقبضت نفسها وتولاها اليأس فجلست على مقعد هناك وقد انحلت عزائمها واسترخت كأنها أصيبت بغيبوبة واستغرقت في الهواجس وأخذت تراجع تاريخ حياتها مع سعيد وكيف كانت متيمة به وهو يعدها بان يتزوجها وكيف جعل شرط الزواج فوز العبيديين على الامويين واستخدمها في كثير من الاحوال لتنفيذ أغراضه وآخرها دخولها قصر الزهراء على ما علمت وكيف أراد أن يستخدمها في الفتك بالخليفة وكيف انها قبلت بذلك على أن تكون هذه المهمة آخر العقبات في سبيل نيل مرامها ثم هو يفر من القصر بالزهراء . ولما تصورت فراره بها اجفلت وجلست على المقعد والظلام حالك فغلب عليها الانقباض فاركنت الى البكاء

وهي مستغرقة في البكاء سمعت الآذان وعلمت انه آذان نصف الليل فتذكرت وصية سعيد أن تسقي الخليفة العقار وتشربه في تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة للاستهواء فنهضت واستخرجت الورقة من جيبها وعمدت الى الكاس وفيه الماء وصبت العقار فوقه وأخذت تتأمله وتقول « هل الموت مختبيء في هذا الماء ؟ . . الموت ولا هذا العذاب . . ولكن لا . لا . ربما صدق سعيد فيأتيني بعد قليل . . . كيف يأتي وقد فر بالزهراء ؟ . . لا . لا اظنه يفعل بل هو يشفق على قلبي لانه يعلم مقدار حبي له »

ثم وضعت الكأس من يدها واسندت رأسها على الحائط فغلب عليها النعاس من فرط التعب فنامت فتوالت عليها الاحلام المزعجة ولم تستيقظ الا على آذان الصبح فنهضت مذعورة لصوت الآذان ورأت الكأس لا يزال كما هو فتناولته وكان الاستهواء قد ذهب تأثيره فانتبهت لنفسها وقالت «أين ذهب سعيد ؟ . هل يعود ويشفق على قلبي . . . سامحك الله ما أقسى قلبك . .

واذا لم ترجع فهل ابقى حية ؟ تباً للحياة بعدك . الافضل ان اموت . . ان الموت في هذا الكأس »

ورفعت الكأس وتأملت وهمت أن تضعه على شفتيها فاذا بيد قبضت على ذراعها فوقع الكأس الى الارض وانسكب ما فيه فاجفلت والتفتت فرأت ساهراً بوجه عبوس يقول لها « أين معلمك ؟ . . أين سعيد الوراق الخائن ؟ »

قالت « لا أعلم . . أين هو اني ابحث عنه »

قال « قبحه الله من خائن . . قد وشى بالامير عبد الله والفقيه وعجل قتلهما وهو هو سبب خروجهما على الخليفة وانت معه لانك رفيقته »

فقالت « أنا ؟ . أنا المسكينة الذليلة ؟ انه خاني قبل كل واحد . . » واطلقت لنفسها البكاء . . فرق ساهر لها وقال « خانك انت ؟ »

قالت « قد عذبني عدة أعوام وهو يعدني بالزواج فاطعته الى هذه الساعة ثم ظهر لي انه فرّ . . ألم يفر ؟ »

قال « يظهر انه فر والزهراء معه وقد علم الخليفة بذلك وبعث اليّ فامرني ان ابحث عنه فلما وجدتك هممت بالقبض عليك لانك رفيقته »

قالت « ويلاه من ذلك الظالم الخائن . . آه لو القاه لاقتله بيدي قد كنت لهذه الليلة اتعشقه واستهلك في حبه أما الآن بعد أن تحققت خيانته فليس في الدنيا ابغض اليّ منه ولو تأتى لي ان امتص دمه لفعلت . . » قالت ذلك وهي ترتعد من التأثير وتحرق أسنانها

ومن نواميس الحب انه يزداد بالتبادل أو بالامل فالمحب يزداد تعلقاً بحبيبه اذا تحقق انه يحبه أو استدل من تصرفه انه سيحبه فيحيا بالامل . فاذا علم بعد ذلك ان امله في غير محله وان ذلك الحبيب كان يخادعه تصيبه صدمة الفشل فينقلب حبه بغضاً ويشتد بغضه بنسبة ذلك الحب ـ وهكذا أصاب عابدة لما تحققت خيانة سعيد لها فانها نقمت عليه نقمة لا تقاس بها نقمة أعدى الاعداء

فقال لها ساهر « انت طبعاً تعرفين منزله ومخبآته في قرطبة وارباضها »

قالت « اعرف . . نعم اعرف كثيراً من أحواله » وحرقت أسنانها

قال « اتبعيني » ومشى نحو غرفة الخليفة فلقي تماماً رئيس الخصيان فاخبره « ان هذه الجارية تعرف كثيراً من مخبآت ذلك الخائن لانها كانت معه وقد خدعها وخانها وكاد يقتلها فهي تدلنا عليه اذا أمر الخليفة بشرذمة ترافقنا نذهب الآن للبحث حالا »

فدخل تمام على الناصر وقص عليه ما قاله ساهر فامر أن يرسلوا معه شرذمة من الفرسان الاشداء ومعهم عابدة ترشدهم الى المكان فهيأوا الافراس وأتوا عابدة بفرس ركبت عليه وركب ساهر على فرس الى جانبها وقد اعجبه ما ظهر من أدبها . وكان قد استلطفها كثيراً منذ رآها في قصر مروان منزل الامير عبد الله وتولدت فيه حاسة الشفقة عليها الآن . وكان حسن السريرة مخلص الطوية شديد الحب مع انه خصي لا يرجو من وراء الحب غير تعب القلب . ولكنه كان قد أحب الزهراء الى درجة العشق ويكتفي من حبها أن تبتسم له وتظهر رضاها بعمله وقد خدمها في التجسس على عبد الله خدمة حسنة ولذلك كان من أكثر الناس غضباً على سعيد لفراره بها

الفصل الحادي والسبعون

الفتح

أما سعيد فقد تركناه على ظهر السفينة ومعه الزهراء وقد تولاها الخوف وأوشكت أن تيأس من النجاة لكنها صبرت نفسها لترى عاقبة الصبر . فجرت السفينة بهم ساعة والريح خفيفة وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهي لا تزداد الا اضطراباً تنتقل في السفينة من جانب الى جانب تتطلع الى الشاطىء والظلام يحجب الشاطئين عنها لولا ما تراه من بصيص الانوار في بعض الاماكن

وكان جوهر في أثناء ذلك متشاغلا لا يتكلم . فرأت سعيداً يغافل جوهر ويدور من ورائه ويده كيس معلق بحبل قد حمله سعيد ومشى

الهوينا وجوهر مشتغل بربط حبل الشراع الى السارية وقد وقف على حافة السفينة والظلام حالك والرجل في غفلة فاستغربت الزهراء ذلك التلصص ولم تفقه له معنى . على انها لم يطل نظرها في الامر حتى رأت سعيداً وثب على جوهر فجعل ذلك الحبل حول عنقه ورفسه برجله فسقط في الماء الى قاع النهر فصاحت الزهراء « ويلك ماذا فعلت ؟ » ووقفت وركبتاها ترتجفان وهي تنظر الى الماء تتوقع أن يعوم جوهر فلم يعم لأن في الكيس حجراً أغرقه الى القاع . فصاحت « ما هذا » فتجاهل سعيد ثم قال « لعل جوهراً وقع في الماء »

فقالت « تقول ذلك وأنت أغرقته ؟ »

قال « ما لنا وله دعينا وحدنا »

فأيقنت عند ذلك وقوع الخطر فصاحت فيه « ويلك يا خائن . . كيف قتلت الرجل وهو خادمك الامين . ما أسهل القتل عليك . . »

وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطىء فلم يجبها حتى رست السفينة فنهض اليها وتناولها بيده وقال « اطلعي الى البر »

فتراجعت وقالت « الى أين ؟ لا . لا أطلع »

قال « أتريدين البقاء في السفينة ؟ »

قالت « بل ألقي بنفسي في الماء . الموت خير لي من رفقتك » واجتذبت يدها من يده وهمت أن تلقي نفسها في النهر

فنهاها وهو يقول « ألا تريدين أن تلاقي أخاك ؟ قد وصلنا الى مكانه وخلصنا من التعب »

فلما سمعت قوله عاد اليها أملها وأطاعته فنزلت الى البر وقد بان الفجر فالتفتت الى ما حولها فاذا هي في بستان في وسطه بيت كالذي كانت فيه منذ هنيهة ورأت البغال هناك ايضاً ثم شاهدت الكلب الذي رأته بالامس واذا بسعيد قد تناول المفتاح وفتح الباب واشار اليها ان تدخل فتحققت انها في البيت الذي كانت فيه منذ بضع ساعات وان سعيداً لم يركب السفينة إلا ليغرق جوهرا في الماء فأصبحت ترتعد من فظاعة ذلك العمل ولما

دعاها للدخول أبت وقالت « لا ادخل أو تقول لي اين اخي ؟ »

قال « يظهر ان اخاك وسائر رجالنا فروا من هـذه الديار لما بلغهم مقتل الامير عبد الله والغالب أنهم رجعوا الى القيروان إذ كان موعدنا من اول الامر انه اذا احسسنا بالفشل ونحن في اي مكان رجعنا الى القيروان . فما علينا الآن إلا ان نذهب الى هناك »

قالت « ألا تزال تخدعني . قد انكشفت لي خيانتك ولـكن ويلاه بعد ان ضاعت حيلتي . . » قالت ذلك وقعدت على الارض وأخذت تبكي وتلطم وجهها

فأمسكها سعيد وأراد إنهاضها وهو يقول لها « لا تستسلمي الى الظنون . . ما أنا والله خائن وانما أنا محب عاشق . اقلعي عن هذا الجنون وتعالي معي الى القيروان فتشاهدين أخاك وبعد ذلك اذا شئت الرجوع به الى قرطبة والا بقينا هناك بارغد عيش »

قالت ألا تزال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك ؟ »

فامسك بيدها وقال « ادخلي الى البيت وافعلي ما شئت . . لا فائدة من بقائك هنا . . قومي ادخلي »

فاطاعته ونهضت حتى دخلت البيت وعرجت الى أقرب الغرف فوقفت الى الحائط وهي في غاية الاضطراب

فجثا امامها جثو المتضرع وقال « آه يا حسناء والله اني أحبك . . أحبك . وتحبك كل جارحة من جوارحي . . . قد ركبت الخطر واقترفت الذنوب وأتيت الفظائع طمعاً بالوصول اليك . أيعقل اني أخونك ؟ سترين مني ما ينسيك هذا العذاب ـ نعم اني أسأت الى كثيرين ولـكنني فعلت ذلك في سبيل حبك ارحمي متيما دنفاً لا يطلب من الدنيا سواك » قال ذلك بتذلل ويكاد الدمع يتناثر من عينيه وهو شاخص اليها

الفصل الثاني والسبعون

اليأس

أما هي فكانت تسمع كلامه وهي مطرقة فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت « أتعترف بجرائمك وذنوبك ثم تطلب الي أن أحبك ؟ اني لا أحبك ولا أقدر أن أحبك . . »

فتململ واعتدل في مقعده وقال « نحن هنا وحدنا وترينني استعطفك واتذلل لك فلا تستبدي بي واسمعي نصحي . . »

قالت « ان من يزعم انه محب لا يكذب حبيبته ولا يخونها »

قال « أنت حبيبتي ومتى خنتك ؟ »

قالت « ألم تأت بي الى هنا لمشاهدة أخي فأين هو ؟ »

قال « قلت لك انه رجع الى القيروان ودعوتك للذهاب اليه فلم تقبلي »

قالت « هل يعقل فرارهم جميعاً ؟ »

قال « نعم هذا كان موعدنا انه متى شعرنا بالفشل ننتقل الى القيروان .. فلما سمعوا بمقتل عبد الله وابن عبد البر وباسر واطلاع الناس على أمرهم فروا ـ وقد اخطأوا لانهم لو انتظروا مجيئي الآن لعلموا ان عدوهم الاكبر قد مضى »

قالت « من تعني ؟ »

قال « اعني اكبر عدو نخافه ونخشى بأسه »

قالت « لا أعرف أحداً تعنيه الا أن يكون الناصر »

قال « هو اعني »

فاجفلت وقالت « ماذا تعني بأنه مضى ؟ »

قال « لا تعجبي . . أعني انه مات »

فتراجعت وصاحت « الناصر ! الناصر مات ؟ خسئت ان باعك أقصر من أن تناله »

فوقف وهو يهز كتفيه ويقول « سواء صدّقت أو لم تصدقي فقد قلت لك الواقع ومع ذلك فهو بعيد عنا ولا شيء يمنعني مما أريده واذا بقيت على عنادك جعلتني أعمد الى العنف

فتفرست في وجهه وقالت « لك أن تقتلني وتقدر أن ترميني في هذا الماء كما رميت ذلك الخادم الامين ولكن لا يمكنك أن تحول بغضي الى حب وأنت قد ارتكبت ما ارتكبته حسب قولك التماساً لحبي وانا لا أحبك . . لا أحبك . . فافعل ما تشاء . . اقتلني »

فنظر اليها نظر الاستغراب وقال « أظنك لم تفهمي مرادي . . انك اذا أقلعت عن هذا العناد وأطعتني ليس فقط تلاقين أخاك بل تعيشين عندي عيشة الملكة الآمرة الناهية . . »

قالت « فهمت كل ما تقوله ولكنني لا أقدر ان احبك — أقول ذلك مع علمي ان موتي وحياتي بين يديك . فافهم »

فقال « يا لله ما هذه الوقاحة »

قالت « لا تكثر الكلام . ليس عندي غير ما قلته لك وان ما تزعم انك فعلته في سبيل حبي لا يزيدني الا بغضاً لك واذا خيرت بينك وبين الموت لاخترت الموت . ألا يكفيك هذا التصريح أقتل ثم أقتل » قالت ذلك وقد احمرت عيناها من البكاء والغضب وأخذت ترتعد وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وقد خارت قواها وأسرع تنفسها وأوشكت أن تصاب بنوبة عصبية . ثم انقلب ذلك الغضب بغتة الى حزن فغلب عليها البكاء فأخذت تندب نفسها وتلطم خديها وتقول « ويلاه يا زهراء . . . أين أنت يا سيدي الناصر . . نصرك الله على أعدائك واذا علمت بموتي فاعلم اني مت على ولائك . فاني محبة لاحبائك عدوة لاعدائك الى آخر نسمة من حياتي . . آه . آه . . تباً لك يا سعيد أو يا سليمان أو كما تسمي نفسك . . قد ارتكبت آثاماً كثيرة ألم يكن الافضل لك أن تقتل نفسك وتخلص الناس من شرك ؟ من أجل هذا الحب الذي تزعمه ارتكبت هذه الآثام — أنت تكلفني أن أحبك ولا طاقة لي بذلك . . دعني . .

أو اقتلني وليس لك مأرب ثالث » ولما فرغت من قولها كان أنهكها التعب وهي لم تنم طول الليل الماضي فضلا عن الغضب والخوف ثارت قواها وهي لا تزال في ثوب صاحب البريد

أما سعيد فكان يسمع توبيخها وتعنيفها وهو صابر يراعي حركاتها وسكناتها ويتردد بين أن يبقى على المحاسنة أو يأتيها بالعنف فلما رآها استلقت منهوكة القوى وقد امتقع لونها وكان يغمى عليها قعد أمامها ومد يده الى رأسها وأراد أن يمر يده على جبينها لعله يؤثر عليها بكهربائيته أو مغنطيسيته فالما لمست يده جبينها نهضت مذعورة كأنها وخزت بحربة ونفرت منه . فنهض وقد أخذه الغضب وجرى في أثرها وهو يحاول أن يحوط خصرها بذراعيه وهي تتحاشى أن يمسها فأفلتت منه وقد تدلى شعرها على كتفيها وهمت أن تخرج من البيت الى البستان فسبقها وأقفل الباب فأصبحت سجينة ولكنها أحست بقوة لم تعهدها في نفسها من قبل والتفتت الى سعيد وقالت « أهذا ما تزعمه من حبك ! تثب عليَّ كالوحش الكاسر والله انك لا تأخذني الا جثة هامدة »

فتراجع وقال « كم توسلت اليك وتذللت لك فلم تقبلي وهل يليق بي وأنا لا يعجزني قلب الممالك وتفريق الجنود أن أعجز عن إخضاعك ؟ »

قالت « قلت لك يمكنك أن تقتلني فقط . هذا كل ما يمكنك أن تفعله معي والقتل لا يهمني . . اقتلني كما قتلت سواي وعش هنيئاً . . ماذا ينجيك من غضب أمير المؤمنين الى أين تفر من سيف نقمته ؟ »

فضحك ضحكة ضج لها المكان وقال « قلت لك ان الناصر مضى الى حال سبيله »

فصاحت « ان يدك أقصر من أن تناله »

قال « يظهر انك لم تعرفي من أنا وسوف تعلمين »

الفصل الثالث والسبعون

شد الوثاق

قال ذلك وأراد أن يتحول عنها ليتناول شيئاً في غرفة أخرى فسمع نباح الكلب نباحه اذا استغرب قادماً فاجفل سعيد وأنصت واذا بدبدبة خيول قد تعالت فتركته الزهراء مشتغلا بالتنصت وفتحت الباب ووثبت الى الخارج فعثرت بالعتبة ووقعت لكنها عادت فنهضت واذا بعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفي مقدمتهم فارسان عرفت منهما ساهراً فصاحت « ساهر . . ساهر . . لله درك . . عليكم بهذا الخائن أحيطوا بالمنزل واحذروا أن يفلت منكم »

فهرولوا بأفراسهم حول المنزل وجاء بعضهم من ناحية الباب فخرج اليهم سعيد وقد تبدلت سحنته وجحظت عيناه وقال لهم « لا تزعجوا أنفسكم ها أني بين أيديكم لا أحمل سيفاً ولا سكيناً ولا تخافوا فراري » قال ذلك بهدوء وسكينة كأن لم يكن شيء مما كان

فتقدم اليه ساهر ووراءه جماعة قد صوبوا بسيوفهم الى سعيد وقال له ساهر « تسمح لي أن أشد وثاقك ؟ »

فمد يديه وقال « افعل »

فأخذوا يشدون وثاقه وهو ينظر الى ما بين يديه فرأى عابدة بينهم فقال « عابدة ! وأنت أيضاً ؟ »

فلم تجبه ولكنها تقدمت الى الزهراء وأخذت تخفف عنها فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت « هو في خير وكيف أنت جئت معه ؟ »

قالت « أتيت معه لأرى أخي »

قالت « ومن أخوك »

قالت « يسمونه صاحب النقمة »

قالت « صاحب النقمة أخوك . . ألم تريه ؟ »

قالت « لم أجده هل تعرفين مكانه »

قالت « نعم أعرفه »

فصاحت « بالله أين هو ؟ خذيني اليه »

فاشارت اليها أن تنتظر والتفتت الى ساهر وكان قد شد وثاق سعيد وعمد به الى أربعة يحرسونه وجاء في الحال الى الزهراء ووقف متأدباً وقال « هل تأمر سيدتي بشيء أجريه اني عبدها المطيع »

قالت « بورك فيك من شهم لقد جئتني بالفرج في اوان الضيق جزاك الله خيراً »

فابتسم وقال « ان هذه الكلمة من فيك تساوي عندي كل أموال العالم — ولا تنسي أن لعابدة الفضل الاكبر لانها دلتنا على هذا المكان ولولاها لم نعمل شيئاً »

فالتفتت الزهراء الى عابدة وضمتها الى صدرها وقالت « ولا أنسى فضلك يا عزيزتي ويزداد ذلك الفضل اذا استطعت ان تهديني الى أخي »

قالت « أنا أعرف مخبأه لكنني لا أقدر أن أدعوه فانه لا يصدقني بل ربما فتك بي »

فقال ساهر « أنا أسير اليه . قولي أين هو مكانه »

قالت « ولا أنت فانه يسيء الظن بكل رجال الناصر وكل أهل الاندلس وخصوصاً الآن بعد شيوع مقتل الامير عبد الله ؟ »

قال « ما الحيلة اذاً ؟ »

قالت « الحيلة ان نأخذ اليه كتاباً أو علامة من سعيد فانه يأتي سريعاً لانه يحترمه احترام العبادة . . »

فقال ساهر « لا أظن سعيد يعطينا كتاباً أو علامة »

قالت عابدة « أنا اكلمه . . دعوني أدخل اليه وحدي »

قالت ذلك ودخلت عليه وهو مشدود الوثاق في إحدى غرف ذلك البيت . وكان جالساً وقد أقطب حاجبيه وأطرق كأنه يفكر وبان الاهتمام في عينيه فلما لمح ظلها رفع بصره اليها فلم يتمالك عن ارسال دمعتين فلما رأته

يبكي خفق قلبها وتذكرت ما كان له من المنزلة الرفيعة في نظرها وكيف قضت عدة سنوات وهي ترى السعادة في رؤيته والموت والحياة بين شفتيه فتأثرت من منظره وغلب عليها الحنو فقالت « يسؤني ياسيدي أن أراك في هذه الحال . وأنا الجانية عليك لاني دللتهم على مكانك ولكنك اذهبت رشدي باعمالك »

فقطع كلامها قائلا وهو يظهر التجلد « لا ذنب لك ياعابدة وانما الذنب لي . . أنا لا أنسى ما اقترفته من أسباب الشقاء لك وكم عرضتك للموت . . أعرف هذا كله ولذلك فلا لوم عليك مهما فعلت وسيسوقونني الى الخليفة أو غيره وسيقتلني طبعاً . فهذا كله لا يهمني لان الحياة لم تعد تحلو لي . . » وسكت هنيهة ثم قال « ماذا فعلت بالناصر هل أصابه سوء ؟ »

قالت « لا . لاني لم أقدر على تنفيذ أمرك »

فتنهد تنهداً عميقاً وقال « الحمد لله . . أشعر الآن يا عابدة كأني صحوت من رقاد أو أفقت من اغماء . . فاذا كنت قد تعمدت نجاة الخليفة فان لك الشكر ؟ »

قالت « الحق يقال أني لم أتعمد ذلك قط » وقصت عليه ما وقع بالاختصار ثم قالت « لعل الخليفة اذا تأكد رجوعك وتوبتك يعفو عنك ليستفيد من علمك ودهائك »

فهز رأسه هزة الانكار والاشمئزاز وقال « لا . لا أحب البقاء بعد الآن لان نفسي لا ترضى بدون منصب الملك أو الخليفة . أما وقد تعذر ذلك فالقبر أولى . . وقد خدعتك وخدعة سواك وفتكت وغدرت رغبة في ذلك المطمع فاسقط بيدي فاحب الآن ان أخدمك بشيء تريدينه »

قالت « لا أريد شيئاً . . سوى ان الزهراء . . . وهذه قد لحقها منك عذاب شديد (فخرق اسنانه عند سماع اسمها) فاذا كنت تشعر بذلك فاكرمها بايصال أخيها اليها . وأنا أعرف مكانه لكنني أعلم أنه لا يصدق سواك ولا يثق بغيرك فارسل اليه علامة منك أو كتاباً ان يحضر الى هنا

ومتى جاء كنت وسيلة في تعريفه الى أخته وهـذه كفارة عن كل سيئاتك معها . . »

قال « افعل ذلك . . مدي يدك الى هـذا الخاتم تناوليه من أصبعي واذهبي الى المنزل الذي تعرفينه واطلبي سالماً ولا تسمه صاحب النقمة فمتى جاءك أعطه هذا الخاتم واسأليه ما شئت »

فمدت يدها واستخرجت الخاتم من يده وأحست وهي تستخرجه ببرودة اطرافه فتجاهلت

ولما أرادت الخروج ناداها فعادت فقال لها « أنت تعلمين أن القوم الذين أغريناهم على الثورة لا يزالون يجتمعون هناك وتعلمين ان الذنب في ذلك ذنبي انا فهؤلاء لا تزال الدولة تعدهم أعداءها فاذا عرفت مكانهم ربما فتكت بهم فتزيد ذنباً آخر الى ذنوبي فينبغي أن تذهبي أنت وحدك وتحتفظي بهذا السر وتأتيني بصاحب النقمة وحده وأنا أرشده الى الحقيقة وهذا المفتاح في جيبي لتفتحي به الباب الخارجي وهو يسود فيحل تلك الجمعية ولا يعرف أحد بها ولا تجدين الآن منهم أحداً هناك كما تعلمين »

قالت « حسناً » واستخرجت المفتاح ورجعت الى الزهراء وقالت لها « هذه هي العلامة وأنا أذهب بها لآتيكم بسالم ومتى جاء فان سعيداً يتم المعرفة »

الفصل الرابع والسبعون

صاحب النقمة

تنكرت عابدة بلباس رجل ومشت حتى دخلت ذلك الدهليز واتصلت منه الى الباب وطرقته الطرقة التي عرفتها فخرج اليها شاب ملثم الوجه وقال « من الطارق »

فقالت « افتح وخذ الرسالة » ففتح كوة صغيرة في الباب فمدت الخاتم منها وحالما رآه فتح الباب ودعاها للدخول وهو يحسبها رجلا فقالت « ان صاحب هذا الخاتم يدعوك اليه الان أنه على مقربة من هذا المكان »

قال « هل هو في ضيق ؟ »

قالت « لا . . ولكنه يحب أن يراك وحدك »

فدخل وغير ثيابه وخرج معها حتى تجاوز الدهليز وهو يتفرس فيها لانه طرب لرخامة صوتها وشعرانها امرأة فقضى مسافة الطريق وهو يسألها الاسئلة ولو بغير باعث ليسمع صوتها وكلما سمعه زاد استئناساً به وقد تذكر انه سمعه قبلا وطرق باب قلبه

وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع صهيل الافراس وعلم انها افراس صقالبة الناصر فوقف وقال لها « أخاف أن يكون في الامر دسيسة يارجل أو يا امرأة »

قالت « كلا يا سيدي وستري ذلك حال وصولك »

قال « لا . . لا أخطو خطوة من هذا المكان قبل ان ترفعي عنك هذا القناع »

قالت « أخاف أن تعرفني » قالت ذلك وأزاحت اللثام

وحالما وقع نظره عليها عرفها فصاح « عابدة ! أين سعيد ؟ ماذا أرى »

قالت « لا تخف يا سالم . . أما وقد عرفتني فلم يبق باعث على الحذر وعما قليل ترى سعيد وهو يقص عليك خبراً جديداً »

وكان سالم قد خرج وعليه عباءة وتحتها السيف والخنجر وكان طويل القامة عظيم الهيبة جميل الخلقة يكاد الشرر يتطاير من عينيه لا يهاب العشرة اذا لقيهم وحده وقد تعود الضرب والطعن . فلما سمع قول عابدة وهو يعلم منزلتها عند سعيد واختبر غيرتها على أحزابه . مشى معها حتى وصلا الى باب البستان وكانت الزهراء قد اختبأت في احدى الغرف ريثما يقابل اخوها سعيداً ويمهد السبيل للتعارف

فمشت عابدة بين يدي سالم في البستان ومشى هو في أثرها مشية البطل الباسل لا يبالي بما هناك من الخيول حتى وصل باب البيت فسبقته عابدة الى سعيد وأنبأته بمجيئه وكلفته ان يخاطبه ليستأنس به لئلا يستغشها فصاح من الداخل « سالم ! »

فلما سمع صوته وثب اليه وهو يقول « لبيك يا سيدي » وما تم ان رآه موثماً على تلك الصورة حتى صاح « ماذا أرى » واستل سيفه وقال « تفديك روحي من أوثقك ؟ »

فاجابه سعيد بهدوء وسكينة « تمهل يا بني نحن في حال آخر . انا اوثقت نفسي وانما دعوتك لاعترف لك أني خدعتك »

فاستغرب سالم قوله وقال « خدعتني ! معاذ الله »

قال وهو يغص بريقه « نعم خدعتك وخدعت آخرين ما لنا ولذلك احب ان انصحك نصيحة الوالد . أعلم يا سالم ان المشروع الذي قمنا له فشل وقد تعلم فشله من مقتل الامير عبد الله ورفيقيه لانهم انهموا بالانتماء الينا . والصواب الآن الرجوع عن هذا الامر . . »

فصاح « نرجع عنه ؟ . أنا لا أرجع . . خصوصاً بعد ان جاهر ذلك الخليفة برغبته في الاقتصاص مني فقد بلغني انه كتب ذلك على اللوح الذي اعلن فيه الاعدام »

قال « نعم قد فعل ولكن لا فائدة من مقاومته وليس من الحكمة مقاومته عبثاً فالرجوع الى الصواب اولى . . اخبر بذلك سائر الرفاق »

قال « لا حاجة الى اخبارهم فانهم تفرقوا من الامس خوفاً بعد اطلاعهم على ذلك الخبر »

قال « وانت »

قال « كنت عازماً على البقاء والمثابرة على السعي في هذا السبيل عملاً بما بثثته فيّ من الانفة وطلب الحق . . ولكن . . »

قال « قد قلت لك رأيي في هذا الشأن »

قال « وانت الى أين ذاهب بهذا الوثاق »

قال « اني ساساق الى الخليفة ليحاكمني »

قال « وكيف تقبل بذلك — دعني انجيك من الآن بحد هذا الحسام »

قال « لا تفعل . . »

قال « أذهب اذاً معك للمحاكمة او القتل ولا أتخلى عنك »

قال « تأتي معي ولكن لتكون سعيداً صاحب القول الفصل والكلمة النافذة في بلاط الخليفة »

فدهش لهذا القول ولم يفهمه فقال « ماذا تعني . . ان الناصر لا يكاد يقع بصره عليّ حتى يأمر بقتلي لاني كنت اكثر أعدائه مجاهرة بعداوته »

قال « نعم . ولكن لك شفيعاً لا ترد شفاعته »

قال « مَن هو ذلك الشفيع إن لم يكن أنت »

قال « ألا تذكر أختك حسناء »

فقال « دعني من ذكراها فقد مضت عدة أعوام لم أذكر اسمها ولكنها لم تبرح صورتها من ذهني . . ما الذي بعث الى ذكرها الآن »

قال « لانها ستكون شفيعة لك عند الخليفة »

فصاح قائلا « أختي حسناء هل هي حية باقية ؟ أين هي . . أم أنت تعني شيئاً آخر »

قال « أختك حسناء حية وهي الآن صاحبة المقام الاول عند الناصر »

الفصل الخامس والسبعون

اللقاء

فاطرق سالم وهو يفكر في ما سمعه ولا يصدقه . ثم رفع بصره الى سعيد وقال « اصدقني الخبر يا سيدي . . فقد فهمت منك مراراً أنها ماتت »

قال « نعم قلت لك هذا ولذلك اعترف لك الان اني خدعتك فان أختك لا تزال حية وهي أقرب الناس من الناصر »

قال « يا للعجب . . ماذا اسمع ؟ كيف غاب عني هذا الامر كل هذه الاعوام وأنا على مقربة منها ؟ »

قال « لانك لا تعرف اسمها الجديد فكما غيرت اسمك من سالم الى صاحب النقمة غيرت هي اسمها من حسناء الى الزهراء »

فصرخ وقد دهش وقال « الزهراء ! . . الزهراء حظية الناصر اختي ماذا تقول ؟ »

قال « نعم ان الزهراء أختك وهي تتفانى في حبك »

قال وقد جحظت عيناه « هل تعلم هي بوجودي ؟ »

قال « كانت تحسبك ميتاً الى الامس فاخبرتها بوجودك حياً فهربت من بيت الخليفة وأتت معي ليلا لتراك وتنصح لك بالرجوع الى طاعة الناصر »

فصاح وقد أخذته الدهشة « أين هي ؟ »

قال « هي قريبة منك » وأشار بعينيه الى ذلك المكان

قال « هي هنا الآن ؟ » وتلفت حوله

وكانت الزهراء ساعة رجوع عابدة مستلقية في بعض غرف البيت للراحة من عناء ذلك الليل فدخلت عليها عابدة وحدها فنهضت وسألتها عن سالم فقالت « أنه سيأتي بعد قليل لانها تركته في بيته يتأهب للمجيء »

فقالت « اصدقيني . . أظنك لم تجديه أو لعله فر أو مات ؟ قولي »

فقالت « وحياتك هو حي وسيأتي بعد قليل »

فصدقتها وصبرت نفسها وهي كلما سمعت حركة أو صوتاً تحسب أخاها قادماً وعابدة تشاغلها ريثما يفرغ سعيد من التعريف . . واذا بالزهراء نهضت فجأة وقالت « أسمع صوت أخي . . . هذا صوته يرن في أذني . . . » وهرولت نحو الباب فمشت عابدة معها ولما دنت من الغرفة التي كان سعيد فيها سمعت كلاماً فقالت « اسمع سعيداً يتكلم . مع من ؟ »

قالت « ستعلمين بعد قليل »

قالت « أظنه يكلم أخي . . » واقتربت من الباب وكان مغلقاً فسمعت أخاها يقول « هي هنا الآن »

فعرفت صوته ففتحت الباب وكان هو يقول ذلك ويتلفت حوله فوقع بصره عليها وهي لا تزال بلباس صاحب البريد فلم يعرفها . أما هي فوقفت لحظة تتعرف ملامحه وتتفرس فيه . وما عتمت أن القت نفسها عليه وهي تصرخ « أخي . . أخي سالم ! »

فلما سمع صوتها عرفه فضمها اليه وتعانقا وتضاما وعابدة وسعيد ينظران اليهما نظر الاشفاق وسعيد كأنك ابدلته بسواه فقد تغير قلبه وتبدلت عواطفه وأحس بالفظيعة التي أوشك أن يرتكبها لو لم تتداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه . فانه كان عازماً على الفتك بها وباخيها اذا هي لم تبادله الحب والغرام . فلما رأى تعانقهما والدموع تتساقط من عينيهما فرحاً بذلك اللقاء شعر بخطر الذنب الذي كان عازماً على ارتكابه وأحس بلذة الاحسان في هذا اللقاء لانه كان وسيلة التعارف بين الاخوين مهما كان قصده فجعل يتأمل حركاتهما فكانا يفترقان لحظة ريثما يتأمل أحدهما بوجه صاحبه ثم يعودان الى العناق

أما عابدة ففرحت لانها كانت الوسيلة في انقاذ الزهراء وأخيها وسرها على الخصوص انها لم تقتل الخليفة ولا هو علم انها كانت عازمة على قتله وان لم يكن ذلك العزم من ذنبها

أما سالم فانه بعد أن قبل أخته مراراً تباعد ونظر الى ما حوله ثم نظر الى أخته وقال « لا أزال أحسبني في منام لاني كثيراً ما ضممتك في مناي وقبلتك مثل هذه القبلات ثم استيقظ فلا أجد أحداً

قالت « أنت في يقظة يا حبيبي وقد تمت سعادتي الآن بلقياك »

فقال « أليس الفضل في هذا الاجتماع لصديقنا سعيد ؟ »

قالت « نعم له فضل . . » وتنهدت فصاح سعيد فيها وقال « أنا أولى بهذا التنهد يا حسناء » قال ذلك وهو مغلول اليدين . فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة فقال لاخته « حلوا وثاق سعيد واذا كان له ذنب فهو لا يفر فاعترضه سعيد قائلا « لا . لا أريد أن يحل وثاقي . . »

فحولت الزهراء انتباهه الى عابدة وقالت « ان الفضل الاكبر في هذا اللقاء حقيقة هو لهذه الاديبة اللطيفة . هل تعرفها ؟ »

فهز رأسه عجباً وقال « نعم . . نعم اعرفها »

قالت « وهل عرفتها قبل الآن ؟ »

قال « عرفتها مع سعيد الوراق . . . يا للعجب ماذا أرى ؟ أهذا سعيد

صاحب الرأي الصائب والقول الفصل . . . »

أما عابدة فقد توجهت في ملابس سالم وحركاته توددا اليها واعجاباً بها فتحرك قلبها وهي أول مرة تحرك قلبها لغير سعيد فغضبت لتحركه خوفاً من أن يسوقها الى بلاء جديد فاحبت أن تلهو عن ذلك بشيء آخر فقالت للزهراء « وهل نسيت يا سيدتي ساهراً ؟ . . . »

قالت « لا انسى فضله من وجوه كثيرة . . . أما لقاء أخي فانا مدينة به لك بنوع خاص . . »

ثم نادت ساهراً وكان في طرف البستان مع سائر الخصيان فاتى ووقف متأدباً فقالت له « هذا أخي صاحب النقمة »

فأجفل وصاح « أخوك ! . هذا أخوك ؟ وتقولين صاحب النقمة . . أليس هو طلبة أمير المؤمنين . أعوذ بالله كيف يكون أخاً لاعز الناس عنده ؟ »

فقالت « وسيكون هو من أعز الناس عنده لانه أخي . . »

فخفى رأسه موافقاً وقال « نعم سيكون . . والآن يا سيدتي ألا نعود الى القصر فان أهله في قلق شديد لغيابك » قالت « نمضي حالا »

فخرج وأمر الصقالبة أن يتأهبوا للركوب ويجعلوا سعيداً محفوراً وهو معهم وسار الجميع قاصدين القصر

الفصل السادس والسبعون

المحاكمة

أما القصر فكان أهله في وجل لغياب الزهراء . وقد علموا بذهاب ساهر والصقالبة للتفتيش عنها والخليفة أكثر الجميع قلقاً وغضباً ولو أخذت الزهراء وهو في ريب من اخلاصها لكان وقع المصيبة عليه أخف كثيراً . أما الآن بعد أن ظهر له من حبها واخلاصها في خدمته ما ظهر فضلا عن تعقلها ورويتها فاصبح شديد التعلق بها يفديها باعز ما لديه

فقضى معظم ذلك النهار في قلق لا يرتاح له بال وهو يرسل الوصيف

اثر الوصيف يتشوفوا الطريق عن بعد وصعد هو على منارة من منائر جامع الزهراء ليشرف منها على الطريق المؤدي الى قرطبة فلم يرَ شيئاً

وفي الاصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة ومعهم سعيد والزهراء وعابدة ورجل آخر لم يعرفوه فأمر أن يؤتى بهم الى بيت المنام في قصر المؤنس وجلس لهم مجلسه يوم جاءته عابدة وسعيد حيث البركة وعليها التماثيل الذهب وغيرها

فادخلوا عليه أولا الزهراء وهي لا تزال بلباس صاحب البريد . فلما رآها استغربها فكشفت عن وجهها واكبت على يده قبلتها فلما عرفها صاح بها « ويلك ما هذا ؟ »

فقالت « هذا الثوب الذي تنكرت به ساعة الفرار »

فاقطب حاجبيه وقال « ساعة الفرار ؟ . . لماذا تفرين أرأيت مني انكاراً لحقك ؟ وأنت أعز الناس عندي لما تأكدته من صدق مودتك واخلاص طويتك . . . كيف تفرين ؟ »

قالت « فررت الى أخ لي كنت قد أضعته ثم بلغني انه موجود في مكان بالارباض فذهبت لاراه »

قال « وما كان أجدرك أن تطلبي احضاره فيجيئك ولو كان وراء سد يا جوج »

قالت « نعم أعلم ذلك ولكني أخاف على أخي من أمير المؤمنين »

قال « تخافين على أخيك مني ؟ »

قالت « نعم يا سيدي . . انما خوفي منك وحدك وليس من سواك ؟»

قال « أ الى هذا الحد تسيئين الظن فيّ ؟ هل أكافئك على صنيعك الجميل باذى أخيك ؟ »

قالت « أيعدني أمير المؤمنين اذا جاءه أخي وكان مذنباً أن يعفو عنه »

قال « لك ذلك » « قالت ولو كان ذنبه كبيراً ؟ »

قال « ماذا عسى أن يكون ذنبه نحوي ؟ »

قالت « قد يكون من الخارجين على الدولة . . »

قال « اعفو عنه اكراماً لك ولو كان صاحب النقمة »

قالت « هو صاحب النقمة يا سيدي بعينه »

فاستغرب قولها وقال « وكيف يكون صاحب النقمة أخاك ؟ »

فقصت عليه حديثها عن أخيها باختصار وما كان من أمر سعيد وكيف أحبها ولم تحبه وما فعله الى أن فرّ بها بالامس وكيف أنقذها سامر وعابدة

وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة فلما فرغت منه انجلت أشياء كثيرة لم يكن يفهمها وتبين له أمور كثيرة تزيد ثقته بالزهراء فقال لها « لقد عفونا عن أخيك أين هو ؟ »

فأمرت احد الغلمان أن يدعو سالماً فخرج وعاد به فدخل سالم وهو يمشي مشية الشجاع مع احترام فاعجب الناصر بما في وجهه من دلائل البسالة والجمال فأشارت اليه الزهراء أن يقبل يد الناصر ففعل ووقف فقال له الناصر « أنت صاحب النقمة ؟ قد بلغنا خبر خروجك علينا في جملة الخارجين . فما الذي رأيتموه من الناصر حتى خرجتم عليه ؟ »

فخافت الزهراء أن يقول أخوها كلمة تغضب الناصر فيعود الى الانتقام فقالت « ألم يعف أمير المؤمنين عنه ؟ »

قال « عفوت ولكنني لا أفهم ما يحمل هؤلاء على الخروج وكان الاسلام على وشك السقوط فانهضته وكانت الدولة مبعثرة فجمعت شتاتها وقهرت أعداءها ألم أرفع شأن الاسلام بعد ان كانت هيبته تذهب بما أتاه أصحاب بغداد من أسباب الضعف فأتاني ملوك النصارى يتزلفون ويتقربون وهاداني أكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتي . أليس في ذلك عز للاسلام والمسلمين ؟ من استطاع ذلك من الخلفاء قبلي ؟ . وأنتم مع ذلك تتآمرون وتتواطأون » وكان يقول ذلك وصوته يرتجف من الغضب حتى خافت الزهراء غضبه ونظرت الى أخيها مخافة أن تبدو منه كلمة تبعث على هياج الناصر

فسمعت من الخارج صوتاً يقول « لا ذنب لاحد من المتآمرين انما الذنب لواحد منهم »

الفصل السابع والسبعون

موقف هائل

فعرف الخليفة صوت سعيد فأمر بادخاله وهو موثق اليدين وليس على وجهه شيء من مظاهر الخوف وانما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منهما . فلما وقع نظر الخليفة عليه هاب منظره وأمر أن يحل وثاقه فتقدم بعض الحرس الى حله ووقف بضعة منهم الى جانبيه بالسيوف المسلولة وأشار بدخول سائر القادمين فدخلت عابدة فوقفت بجانب الزهراء ودخل ساهر ووقف متأدباً بجانب سالم فأمر الخليفة سعيداً أن يتقدم حتى يقف في وسط القاعة فتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط فقال له الناصر « أنت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا ؟ » فلم يجب

فقال « أهذا جزاؤنا لانا قربناك وأكرمناك وجعلناك مستشارنا ؟ تحرضنا على قتل ولدنا لانه خرج علينا وأنت السبب في خروجه ثم تتجاسر على الفرار بجاريتنا الزهراء من قصرنا ؟ هل بعد ذلك من مسوغ للرفق بك ؟ . . يسوءني والله ان أخسر مشيراً عاقلا حكيما مثلك ولكن يا للعجب كيف ارتكبت هذه الفظائع . كيف جعلت لهذه الدنايا سبيلا اليك فاقترفت أموراً يتنزه عنها الجهلاء وأهل الطيش وأموراً يستحي أهل الفجور من اتيان مثلها . أين كانت حكمتك . أين كان عقلك وسداد رأيك ؟ بل أين كان تدبيرك وأنت تعلم أن فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وعبد الرحمن حيّ فانه يملأ الارض عليك خيلا ورجالا ويأتي بك صاغراً ذليلا . . اذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة من أكرمك وقدمك ألم يكن لك عقل يدلك على الخطر الذي يهددك من هذه الجرأة ؟ »

وكان سعيد واقفاً يسمع كلام الناصر وقد تكتف ووقف مستريحاً ينظر الى بيت من الشعر مطرز على ستارة من ستائر تلك القاعة وسائر

الحضور ينظرون اليه ينتظرون ما يعتذر به عن نفسه وكلهم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله ورغم ما أساء به اليهم لا تزال منزلته رفيعة في اعينهم

أما سعيد فلما سمع سؤال الناصر عن سبب جسارته وكيف يغر بجاريته ولا يخشى بأسه نظر اليه وقال « أما سوء التدبير فلا أقبل التلطخ به فان تدبيري لو عرفه المولى لما وجد به خرقاً ولكن القضاء قضى بفساد ذلك التدبير لاقف هذا الموقف »

فقال الناصر « كأنك دبرت الوسيلة لقتلي أيضاً ولم تنجح . . فكيف خطر لك أن تفعل ذلك ونحن لم نقصر في اكرامك وما الذي كنت تتوقعه من اقتراف تلك الجريمة — أنها لم تكن لتغنيك بالمال ولا لترفع منزلتك بل قد تكون سبباً في الحط من شأنك حتى عند نفسك يوم يثوب اليك رشدك وترى أنك قتلت الابرياء وأسأت الى من أحسن اليك . . »

فاعتدل سعيد في موقفه ووجه خطابه الى الناصر باهتمام وجرأة وقال « يعلم امير المؤمنين انه لم يقل لي شيئاً لا أعلمه وقد اعترف لي بسداد الرأي والحكمة والتعقل ولكنه يسألني عما حملني على مخالفة الصواب وتعريض نفسي لذلك الخطر . . لم يحملني على ذلك يا أمير المؤمنين طمع في مال فان الاموال كثيرة عندي ولا الحياة فاني لا أرى السعادة بها . . قد ارتكبت كثيراً من الرذائل . . ارتكبت الخيانة والغدر والكذب وأنا أعلم جيداً أنها رذائل وان مثلي يجب أن ينزه نفسه عنها . ولم أرتكبها طمعاً بالمال أو الجاه كما قلت ولكن . . . » ولما وصل الى هنا غص وتغيرت سحنته وتشاغل ببلع ريقه والجميع سكوت وقد أمسكوا نفسهم تشوقاً لسماع ما يعتذر به سعيد عن نفسه فلما سكت جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض

أما سعيد فرفع كمه مسح به دمعة انحدرت على خده واستدرك فقال « لا يظن أمير المؤمنين اني أبكي جزعاً من الموت اني لا أرى السعادة في الحياة كما اني لا أراها في الجاه ولا المال »

الفصل الثامن والسبعون

الجسارة

فاستغرب الخليفة تعبيره وتشوق لتتمة حديثه فقال له « أنا أعلم أنك لا تخاف الموت لان أعمالك الماضية تدل على ذلك ولكني سألتك عن سبب اقدامك على الخيانة وأنت أعقل من أن تأتيها عن جهل — ونحو أمير المؤمنين أيضاً . ألم تخش بأسه ؟ »

فأجابه سعيد « ان الرذيلة التي لا يجوز ارتكابها مع أمير المؤمنين لا يجوز ارتكابها مع سائر الناس . وأستأذن الامام الناصر بكلمة أقولها وأنا في آخر يوم من أيام الدنيا — ان المنصب الذي يشغله أمير المؤمنين انما ساقته اليه التقادير وهو غير مخير ولو وجد فيه سواه لبلغ الى مثله . . لا تغضب يا سيدي . لو لم تولد من بيت الخلافة وينصرك الناس على قتل الناس لم تبلغ هذا المقام فانت وصلت اليه على جسر من الجماجم فوق بحر من الدم — وأي فخر في ذلك ؟ فلما رفعوا مقامك وبايعوك وجعلوك خليفة بنيت القصور وأكثرت من الجواري والخصيان وأمرت الناس أن يعظموك وقد فعلوا وهم يحسبون لك فضلاً عليهم والفضل لهم في صيانة دولتك والدفاع عن حياتك — ثم أنت تنكرت على أحدهم جزءاً صغيراً مما تحوزه لنفسك . . ولا ذنب لك في ذلك فانها القاعدة التي جرى عليها الناس من قبل ولكنها ليست هي أسباب السعادة »

فامتعض الناصر من تلك الجسارة لكنه تجلد وصبر عليه حلماً وسعة وقال « ربما كنت مصيباً لكنك لم تجبنا عما حملك على تعريض نفسك للخطر فضلا عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل وأنت الحكيم العاقل ؟ »

قال « لست أول حكيم عاقل ارتكب الرذائل في سبيل مطلبه »

قال « نعم ولكننا لم نفهم الغرض الذي حملك على ذلك »

قال « ان الغرض الذي حملني على هذه الرذائل من أشرف الاغراض بل هو أشرفها جميعاً لان عليه يتوقف عمران هذا الوجود بل هو سنة من

سنن الله في خلقه وفضيلة من أكبر الفضائل — وأما سواي فانه يرتكب الرذائل في سبيل اغراض طالما سنة الوجود وقد نهى عنها الشرع والعرف . كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتل التماساً لمنصب الملك أو الخلافة وهذا المنصب نفسه مشوب بأمثال هذه الرذائل لان طالب الملك متى ناله حلل لنفسه كل محرم وساعده الناس على التمادي في الاثرة وصار يحسب أموال الرعايا وأنفسهم حقاً له فيبني القصور ويزخرفها بالذهب والفضة مما يجمعونه له من نهب الثغور ويقتني الجواري على اختلاف أنواعها ويتحكم برقاب الناس وأموالهم كما يشاء ولا يرى لسواه حقاً بمشار ممشار ذلك . . بل ويل لمن يجرأ على الاعتراض . . . ولو لم أكن على باب الآخرة لم أقله . . . »

فدهش الجميع لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة ولم يجسر أحد قبله على مثل هذا التصريح في حضرة خليفة شديد البأس ولكنهم غضوا من أبصارهم تهيباً من الخليفة

أما الناصر فظل على اظهار الاستخفاف بما يسمعه ولم يشأ أن يجعل نفسه المقصود من ذلك التعريض فقال « صدقت ان كثيرين من طلاب الملك لم ينالوه الا بعد سفك الدماء وهؤلاء اخواننا العباسيون اكبر شاهد على ذلك وقدوتهم أبو مسلم الخراساني الذي كان يقتل على التهمة . لكنني لا أزال انتظر أن اسمع منك السبب الذي حملك انت على ما فعلت ولم الح عليك بالاستفهام الا لاستفيد من حكمتك فقد كنت كما تعلم كثير الثقة بعلمك والاعجاب بتعقلك . . »

الفصل التاسع والسبعون

الحب

فتنهد سعيد تنهداً عميقاً وأجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء وكانت شاخصة فيه وقد غطت رأسها بالنقاب وأخذ منها الاعجاب

ل مأخذ فلما رأته ينظر اليها حولت نظرها عنه أما هو فلما وقع نظره
ابتسم ابتسامة شفت عن معان كثيرة وتنهد ثانيـة وقال وهو يوجه
مه الى الناصر « ان السبب الذي حملني على ما ارتكبته انما هو أشرف
الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ
اعهم وهو الذي أمر به الشرع وأوصى به الله وقد امتدحه الحكماء
تغزل به الشعراء بل هو أكبر الفضائل — ان ذلك السبب يا سيدي هو
« الحب » هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب عار
وقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ أليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فلما قال ذلك أجفلت الزهراء وأطرقت حياءً لعلمها أنه يشير الى حبه
إياها ولم يخف غرضه على الناصر فقال له « ولكن الله ينهي عن التعدي
على نساء الآخرين »

قال « نعم يا سيدي ولكن الحق الطبيعي في الحب المحب الاول خلافاً
لما هو جار في أعمال الناس فان القوي يفوز بما يريد والضعيف يذهب حقه
هدراً »

فقال الناصر « واذا كان الضعيف حكيما ألا تقضي عليه حكمته أن
يخاف العقاب فيبتعد عن عرين الاسد ؟ »

قال « نعم اذا استطاع ذلك سبيلا ولكنه غلب على أمره وتمكن
الحب من قلبه حتى أعمى بصيرته وأصبح لا يرى للحياة معنى بدون الاجتماع
بحبيبه — كما يعمي طالب الدنيا بزخرفها وكما يعمي طالب السيادة فلا يرى
غير مطلبه وكما يعمي طالب الجاه فانه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول
عليه والسيادة ظلم واستبداد تخالف الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني
الانسان . وأما الحب فانه شريعة طبيعية أمر الخالق بها وقال في كتابه
« ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » فلا غرو اذا اعترض طلبه فتك أو قتل أو غدر وخصوصاً
اذا كان المحب سبق سواه الى ذلك الحبيب . . »

فلما سمعت الزهراء قوله خافت أن يظن الخليفة بينها وبين سعيد تبادل

المحبة قبل مجيئها اليه فاستأذنت بالكلام فأذن لها فقالت « ولكن شرط المحبة الصحيحة ان تكون متبادلة فاذا لم تكن ذلك بطلت فضيلتها وأصبح طلبها تعدياً . . »

فنظر سعيد اليها وهي تتكلم وقد ترنح لصوتها الرخيم فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر اليها كأنه يتوقع أن تعود الى الكلام فلما علم أنها فرغت قال « ان الحب فضيلة مهما اعترضه أو تقلبت عليه الاحوال لأنه أساس العمران والمحبون هم الفضلاء ولولاهم لخلت الدنيا من الرحمة والاحسان . ولولا الحب يا حسناء لكانت الحياة كالصحراء القاحلة ماؤها أجاج وهواؤها سموم وانما يجعل ماؤها عذباً وسمومها نسيما « الحب » آه من الحب » ولما قال ذلك شرق بريقه ثم أجهش للبكاء والناصر ينظر اليه ويعجب وكان ولا من شارك سعيداً بالبكاء عابدة فانها لم تستطع امساك نفسها لما غلب على قلبها من التذكارات الماضية وكيف كانت عالقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل سواه لكنها ما زالت تشعر بالعطف عليه فلما رأته يبكي بكت

أما الزهراء فأجابت سعيداً قائلة « ولكن اذا تأكد المحب ان حبيبه لا يحبه ولا يقدر أن يحبه ولا سبيل للوصول اليه . أليس من الحكمة أن ينساه ويتسلى عنه ؟ »

فتنهد سعيد وقال « لي عقل يحل المشكلات ورأي يرد السيل الجارف وعزم يهد الجبال الراسيات وقد تغلبت على كل أنواع المشاق . لم تعرض لي مشكلة الا حللتها ولا أردت أمراً الا قدرت عليه — الا الحب فانه غلبني على أمري وذهب بعزيمتي وقضى على عقلي وحكمتي . . »

فقالت « فماذا يفعل المحب اذن ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فمد سعيد يده الى جيبه وقال « اذا تأكد يأسه من حبيبه فقد تأكد أنه مائت اذ لا حياة للمحبين بغير الحب واذا عاشوا فعيشهم الشقاء فما عليهم إلا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك واستخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه إلى الزهراء وقال « اني أموت فداء الحب » والتفت الى عابدة وقال

سامحيني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً » ونظر الى الناصر فقال « ليس لك عندي غير هذه الروح عقاباً على جرائمي . خذها » والتقم ما في تلك الورقة

الفصل الثاني عشر

عابدة وسالم

فعلم الناصر أنه تناول السم فصاح فيه « ويلك أتقتل نفسك ؟ . تمهل .. إني أحب استبقاءك واضن بحكيم مثلك أن يموت . . قد كنت أحب أن أستبقيك ماذا فعلت ؟ »

فقال « تستبقيني لاخدمك وأموت حسرة . . وقد يئست من حبيبتي ؟ لا حياة لي الا بالزهراء »

قال « أهديك مئات من الجواري أجمل منها . . »

قال « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ولولا ذلك لكانت هذه (واشار الى عابدة) أولى الجميع بالبدل ولكن قلبي لا يرضى احداً غير هذه (وأشار الى الزهراء) فاني أحس كأنها شطر من قلبي ولا يعيش الانسان بنصف قلبه . . فاهنأ بها أنها جوهرة جمعت بين الصدق والاخلاص ولكن لك وحدك فقط . . »

فقال الناصر « كيف تقتل نفسك بيدك ؟ »

فقال « خيراً من أن يقتلني الجلاد »

فصاحت عابدة « اذا كان هذا دواء الحب اذا يئس من حبيبه فما أجدرني ان اقتل نفسي . . » وأخذت تبكي فأدركت الزهراء مقصودها فاقتربت منها وأشارت اليها أن تسكت

أما سعيد فلم تمض لحظات حتى بدأ الالم في بطنه واسترخى فاشار الناصر ان يحمل من ذلك المكان وقد شق عليه أمره لانه كان يحبه ويحترمه ولو بقي حياً لاستخدمه في بعض أموره

فحملوه وقد كاد يغمى عليه وبعد قليل مات فدفنوه

أما الناصر فبعد خروج سعيد تراجع واعتبر وزادت الزهراء رفعة عنده وازداد حباً لها والتفت اليها وابتسم فرآها تنظر في الارض كأنها تفكر فقال « كل ذلك جرى لاجلك ؟ . . »

قالت اني حقيرة لا أستحق هذه العناية ولكن الرجل قصير العمر رحمه الله »

قال « نعم انه دلنا على فضلك وصدق مودتك . . فانت اليوم أرفع منزلة عندنا من قبل . فاطلبي ماتشائين »

قالت «ان نعم مولاي متواليةعلى جاريته وقد تم حظي بعفوه عن أمر هذا وانما أشارك هذه المسكينة بحالها لانها قاست العذاب في أثناء مساءة ذلك الرجل الغريب وكانت تحبه وهو لا يحبها وهي تخدمه وهو يخادعها فأحب ان تنال تعزية تنسيها ذلك »

فالتفت الناصر الى سالم وقال « يا سالم . . هل أنت متزوج »

قال « كلا يا سيدي »

قال « أتتزوج عابدة انها أديبة عاقلة »

فاشرق وجهه وحنى رأسه وقال « ذلك حظ كبير لي وكيف لا أحظى نصيباً اختاره لي أمير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر أن تزف عابدة الى سالم وان يخصص لها قصر يعيشان فيه برغد وهناء

فقالت الزهراء وهذا ساهر يكون في بطانة مولاي الناصر فانه أهل للمناصب الكبيرة »

قال جعلناه من خاصتنا ـ وانقضى المجلس على تلك الحالة

﴿ تمت الرواية ﴾